العرب



تأليف

الدكتور فيليب حتي

الناشر : دار العلم للملايين

العرب

تاريخ موجز

تأليف

الدكتور فيليب حتي

استاذ آداب اللغات السامية

ورئيس دائرة العلوم الشرقية بجامعة برنستون

الناشر : دار العلم للملايين

بيروت ١٩٤٦

فاتحة

إن ما لاقاه كتابي المطوّل الموسوم بـ « هستوري أوف ذي أرَبز History of the Arabs (مكملان ، لندن ١٩٣٧و١٩٤٠و١٩٤٣) حـدا مطبعة جامعة برنستون إلى ان تقترح عليّ وضع مُوجَز في تاريخ العَرَب بالانكليزية . وما لبث أن ظهر هذا المُوجَز بعنوان « ذي أَرَبز : اي شورت هِستوري» The Arabs-a Short History (برنستون ١٩٤٣و١٩٤٤) حتى أَقبل عليهِ القرّاء إقبالاً اقتضى إعادة طبعهِ أربع مرّات منها طبعة خاصة بالقوات الاميركية المسلحة . فانتشرت منه عشرات الآلاف من

النُّسخ . ولقد تمت ترجمتهُ الى الاسبانية في الارجنتين . والمخابرة جارية بشأن نقلهِ الى البرتغالية وغيرها من اللُّغات .

وقد استعنتُ بثلاثة من رفاقي الذين ساهموا معي في منهاج التدريس الخاصّ بالجيش الاميركيّ في جامعة برنستون وهم السادة شكري خوري وفرحات زيادة وابراهيم فريجي على ترجمة هذا المُختصَر الى العربية . وهم بدورهم استعانوا بترجمة كتابي المطوَّل التي كان قد ساهم في وضعها زميلي الدكتور ادورد جرجي ولم تُطبع بعد . فكان من نتيجة جهودهم هذا الكتاب « العَرب : تاريخ موجز » . وأخيراً كلَّفتُ زميلي الدكتور نبيه امين فارس ان يتعهد مخطوطة هذا المُوجَز بعنايتهِ ويُشرف على طبعها ويصلح مسوداتها ويضع خرائطها وفهرسها . فاستحقوا جميعاً خالص شكري .

عن جامعة برنستون في ١٥ آب سنة ١٩٤٥

فيليب حتي

مكانة العرب في التاريخ

•

لم تمضِ على وفاة النبي محمد مئة سنة حتى أصبح العرب أسياد دولة أعظم من دولة الرومان في أوج عزّها، دولةٍ امتدت أرجاؤها من بحر الظلمات غرباً الى حدود الصين شرقاً ومن جبال اورال شمالاً الى حدود السودان جنوباً . وردّد المؤمنون في كلمتَي الشهادة اسمَ الجلالة والرسول من رؤوس المآذن في جنوبي اوربا وشمالي أفريقيا وأواسط اسيا ، فرجّعت جبالُ الاندلس وسهول الهند والصين ومجاهل الصحراء الكبرى أصداءَها . ودخل في دين العرب وفي لسانهم ودمهم من الشعوب واللغات والاجناس ما لم يعهدهُ التاريخ من قبل ، حتى في أخبار اليونان والرومان .

ولقد دوّن لنا التاريخ أخبار البابليين والاشوريين والكلدانيين والآراميين وغيرهم ممن ترعرع آباؤهم في مهد الجزيرة العربية ثم

نزحوا عنها الى البلدان المجاورة حيث شادوا دُولاً عظيمة ما لبث ان اتى الدهر عليها فعفت آثارها واندرست . أما العرب فكانوا ولا يزالون منتشرين في مركز من أهمّ المراكز الجغرافية تخترقهُ طرق هي بمثابة حبل الوريد من جسم التجارة العالمية .

ومنذ وضعتِ الحربُ العالمية الأولى أوزارَها أخـد انتباه العرب الى ما في ثقافتهم مـن ثروة يتزايد ، وأخـذ شعورهم الوطني ينمو ويستعر . فهذه مصر تنشد استقلالهـا الناجز وتَثبّت أركانه ، وهذاالعراق ،بلادالرافدَين ،ينادي بفيصل مليكاً في عاصمة العباسيين ، وهذاابن سعود، عاهلالجزيرة، يبسط سلطانهعلى أواسط الجزيرة وشماليها الغربي ويشيد ملكاً راسخ البنيان ، وهوذا لبنان يؤسس اوّل جمهورية في الأقطار العربية وينال قَصَبَ السّبْق في ممارسة هذا النوع من الحكم الشعبي — حكم العامة لا الخاصة .

فمن وسط الرماد الهامد انبعثت اليوم العنقاءُ حيةً — والعنقاء من طيور الجزيرة — قويةَ الجناحـين . فالأسلام ، دين الجزيرة ، منتشرٌ اليومَ في أنحاء العالم بأسره . وعـدد المؤمنين يبلغ مئتين وسبعين مليوناً ونيّفاً . وأصوات المؤذِّنين ترتفع من عـلى رؤوس المآذن في جميع أنحاء العالم في كلّ ساعـة من ساعات الليل والنهار فتملأ الفلك المحيط بالكرة الأرضية ، وتتصاعد الى السماء .

ولم يقتصر ما شاده العرب في تاريخ العصور على انشاء دولة بل تعدّى ذلك الى الثقافة والعمران .فلقدورثالعربُالمدنياتِ القديمةَ التي ارتفعت معالمها على شواطيء الرافدَين وعـلى سواحل البحر الابيض المتوسط الشرقية وفي وادي النيل . واقتبسوا عن الاغريق

والرومان القيم من مآثرهم ، ثم أضافوا اليه كثيراً مما ابتدعوه، ومن ثم نقلوه الى اوربا في عصورها المظلمة ونشروه فيها . فكان من جراء ذلك ان بزغ في اوربا فجر تلك اليقظة العلميـــة التي لم يزل العالم الغربي ، ومنه اميركا ، يتمتع حتى اليوم بحسناتها .

وليس من شعب آخر قام في القرون الوسطى بما قام به العرب في سبيل تقدّم البشرية . (ونحن هنا لا نطلق كلمة عرب على ابناء الجزيرة فحسب بل على سائر الشعوب التي اتخذت العربية لساناً .) فبينما كان فلاسفة العرب مكبّين على دراسة تآليف ارسطو كان شرلمان ورجال بطانته يحاولون إتقان كتابة أسمائهم . وبينما كان علماء العرب في قرطبة يتردّدون عـــلى خزائن كتبها السبع عشرة (ومنها خزانة حوَت ٤٠٠٫٠٠٠ مجلد) ويعودون الى بيوتهم فينعمون بالاستحمام في حمامات بلغت الغاية في النظافـــة والاناقة كان الاساتذة والتلامذة في جامعة اكسفورد يستنكرون الاستحمام ويحسبونه من ملذات العيش الشهوانية التي يجب الترفع عنها .

ولتاريخ العرب أهمية أخرى عندنا لأنه يدور على محورِ ثالثِ الأديان الموحّـِدة وآخرِها من حيث الزمن . ذلك هو الدين الحنيف الذي يمتّ بنسب الى اليهودية والنصرانية . فقد نشأت هذه الأديان الثلاثة في بيئة روحية واحدة– في أحضان الروح الساميّة . فالمسلم يعترف بأكثر العقائد اليهودية والنصرانية ، والعكس بالعكس .

ولقـد عرف العرب في تاريخهم مَعْنى النصر والهزيمة ، غير ان الفكرةَ التي دعا اليها النبي محمد ،فكرةَ التوحيد ،هي التي لازمها النصر فتغلبت على مختلف الشعوب على الرغم من تغلّب بعض هذه

على العرب في ميادين القتال كالأتراك والمغول مثلاً . ومن أهمّ حقائق التاريخ الراهنة في عصرنا هذا ان الاسلام لا يزال قوّةً فعالة في حياة الملايين من البشر من مراكش غرباً حتى الهند الصينية شرقاً ، بل لا يزال ديناً حياً يدين به نحو ثُمن البشرية جمعاء .

أما اللغة العربية فهي اليوم وسيلةٌ للتعارف والتفاهم بين خمسين مليوناً من الناس . ولقد كانت في أثناء بعض القرون الوسطى لغةَ العلم والثقافة والتقدّم والعمران في العالم قاطبة . فكان عدد المؤلفات الفلسفية والطبية والتاريخية والدينية والفلكية والجغرافية التي كُتبت بها في خلال المدّة الواقعة بين القرن التاسع والقرن الثاني عشر للميلاد أعظمَ مما كُتب بايّ لغة أخرى . ولا يزال أثر اللغة العربية ظاهراً في لغات الغرب التي استعارت منها مفردات علمية وفنية جمّة . ولا تزال حروفها أوسع الحروف انتشاراً بعد اللاتينية .

وعربُ اليوم أبعدُ عراقة في السلالة الساميّة وأكثر تمسكاً بتقاليدها من غيرهم من أبنائها . فقد حافظ العرب أكثر من سواهم على مميزات الأرومة السامية من جسدية وذهنية واجتماعية . وعلى الرغم من ان اللغة العربية هي احدث اللغات السامية من حيث الأدب المدوّن فقد حافظت اكثر من العبرانية وشقيقاتها من اللغات السامية جميعاً على خصائص اللغة السامية الأم .

والأسلام هو غاية الكمال ديناً في مطابقة العقلية الساميّة . على ان لفظة « ساميّ » اتخذت في اوربا واميركا معنى غير معناها الصحيح ، واقتصر استعمالها للدلالة على اليهودي دون سواه من

الشعوب السامية . ولا مبرّر لهذا الخطأ سوى الجهل . فما يحسبهُ الاوربيون والأميركيون من « الملامح السامية » — كالانف اليهودي مثلًا — ليس هو بالسامي على الاطلاق . بل هو ما يميز اليهودي من غيرهِ من الساميين . وقد ورثهُ اليهود عن الحثيين والحُوريين لما اختلطوا بهم قديماً عن طريق التزاوج .

وتنحصر الأسباب التي تجعل العربي — وعلى الاخصّ البدوي — أفضلَ ممثل للأرومة السامية، بيولوجياً ونفسياً و اجتماعياً ولغوياً، في عزلته الجغرافية في الصحراء ، وعدم تبدّل وسائل الحياة فيها وبقاء طرق العيش على ما كانت عليه منذ البدء . وما أصالة النسب وتجرّد السلالة عن الهَجَانة والاختلاط إلا نتيجةُ العزلة والانقطاع في وسط بيئة منزوية وعيش ضيّق كما هي الحال في أواسط الجزيرة . ولدينا في جزيرة العرب ، مثال فريد للبداوة ولطريقة تكيّف الأنسان بحسب مقتضيات الاقليم الذي يعيش فيه والتربة التي يدرج عليها . فالتاريخ لم يدوّن لنا أخبار شعوب هاجرت الى جزيرة العرب واستوطنت أنجادها وواحاتِها واختلطت بسكانها الأصليين كما هاجرت شعوبٌ مختلفة الى بلاد الهند مثلًا واليونان وايطاليا وبلاد الانكليز والولايات المتحدة واقامت بين ظهراني السكان الاصليين واختلطت بهم . ولم يذكر لنا التاريخ أخبار فتح حمَلت فيه شعوبٌ ما على الجزيرة وتغلّبت على حصونها الرملية ثم استقرتّ فيها . فسكان الجزيرة — وعلى الاخص البدو — بقوا على ما كانوا عليه منذ بدء التاريخ . وفي جزيرة العرب نشأ

أوّلا أجداد الشعوب السامية من بابليين وأشوريين وكلدانيين وعموريين وآراميين وفينيقيين وعبرانيين وعرب وأحباش . وفيها قطنوا برهـــة من الزمن قبل ان نزحوا عنها وصاروا الى ما صاروا اليه .

العَرَبُ الأَصْلِيّون : البَدو

يتناول موضوعُ هـذا الكتاب جميعَ الشعوب الناطقة بالضاد في الجزيرة وفي سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق وفي ايران (أثناء وقوعها في أحضان العروبة) وفي مصر وبرقـة وتونس والمغرب الاقصى وفي صِقلّية والاندلس في إبان ازدهار الحضارة العربية فيها . ولا بدّ لنـا اولا من الوقوف هنيهة لدرس أحوال العرب الاصليين ، وهم البدو .

ليس البدوي زُطّياً أو نَوَرِياً يهيم على وجهه لا غاية له ولا قصد . بل البدوي أفضل من كيّف الحياة البشرية طبقاً لأحوال الصحراء الطبيعيـــة . فحيث تَيَمّم المرعى نزلَ ، وحيث نَدَرَ قوّضَ خيامَهُ وارتحل . وللبداوة في الصحراء قوانين علمية لا تقل شأناً ، في وضعها وتنظيمها ، عن قوانين الحياة الصناعية في حواضر

المدن . وهي ضرب من المعيشة ضيّق زاهدٌ يجاري بيئةً عسيرة مُقِلة . فمعظم بلاد العرب صحراء قاحلة ، والسكنى لا تصلح إلا في بقع من أطرافها تجاور البحار المحيطة بها ، وفي عدد من الواحات المنتشرة في أنحائها . وقد أطلق العرب على بلادهم اسم « الجزيرة » . وهي كالجزيرة حقاً اذ تحيط بها البحار من جهات ثلاث وتكتنفها الرمال من الجهة الرابعة .

وعلى الرغم من سعة البلاد (إذ هي أكبر شبه جزيرة في العالم) فلا يزيد عدد سكانها على ثمانية ملايين . ويقول علماء طبقات الارض ان الجزيرة كانت فيما مضى من العصور متصلة بالصحراء الكبرى الافريقية وبالمنطقة الرملية الممتدّة في عرض آسيا من أواسط ايران حتى صحراء غربي الصين . ثم انفصلت عنها بفعل خسوف ارضيّ لا تزال آثارهُ ظاهرةً في وادي النيل والبحر الاحمر وخليج فارس . وبلاد العرب اشدّ أقاليم العالم حرارةً وأقلّها مطراً على الرغم من وقوعها بين بحرين هما البحر الاحمر وخليج فارس ، وذلك لأن هذين البحرين ضيّقان ولا أثر لهما في تعديل الاقليم والأحوال الجوية الغالبة على الاراضي العديمة المطر في القارتين الافريقية والاسيوية .

وقد تعود مياه المحيط الهندي الى الجنوب ببعض الغيث على الجزيرة . إلا ان ريح السموم التي تلفح البلادَ كلّ عام لا تترك وراءَها إلا القليل من الرطوبة في داخل الجزيرة . فلا عجب إذاً إذا تغنى شعراء العرب بالنسيم العليل وهبّاته الشرقية المنعشة ، وهي المعروفة عندهم بريح الصبا .

ولا يزال البدويّ يقطن بيوت الشعر كما قطنها أجدادهُ من

قبل ، وينتجع بمواشيه المراعي التي انتجعها اسلافه منذ بدء عهدهم . وهو يتخذ تربية الحيوان من الغنم والابل والخيل مهنةً ، ويتعاطى القنص والغزو ولا يحترف ما سوى ذلك لان هذه وحدها هي التي تليق به ، ولأن الزراعة والتجارة والصناعة على اختلاف أنواعها هي في عرفه دون مقامه شرفاً . والحقيقة الراهنة ان ما يصلح للفلاحة من أرض الجزيرة قليل ، وأنّ الحنطة تكاد لا تزرع فيها . ومن هنا عدّ البدوي الخبزَ من كماليات الحياة .

وقد ينبت في الجزيرة بعض الشجر كالنخيل والكرم والبن الذي جلبه اليمنيون من بلاد الحبشة في القرن الرابع عشر للمسيح وغيرها . وينمو في الواحات اللوز وقصب السكر والبطيخ . ولا يزال المرّ واللبان (البخور) اللذان كان لتجارتهما شأن في تاريخ عرب الجنوب معروفين هنالك .

ومناخ الجزيرة قاسٍ ، وهواؤها جاف ، وتربتها فيها ملوحة . وليس في طول البلاد وعرضها نهر تصبّ مياهه في البحر طيلة السنة . وليس من نهر صالحٍ للملاحة . فكل ما هنالك أودية مشتبكة تتدفّق فيها السيول عندما تطغى . ولهذه الأودية منفعة أخرى اذ تسير فيها القوافل ويسلك الحجاج شعابها ولا يزال الحج منذ فجر الاسلام حلقةَ الاتصال بين الجزيرة وسائر البلدان .

وقد زهت في الهلال الخصيب الذي يكتنف الجزيرة من الشمال دولٌ ثم زالت . أما البدوي فلم يتغير وبقي على ما كان عليه منذ البدء ، واستمرّ مع شريكتيه الناقة والنخلة في الحياة الصحراوية حاكم الصحراء المطلق وواحداً من ثالوثها القديم . ولا يشارك هذا الثالوث

في امر الجزيرة سوى الرمال . وبفضل ما للبدوي من شدّة المراس والصبر على الشدائد استطاع أن يثبت حيث يكاد لا يقوى شيء على البقاء . وقد حالت نزعته الفردية بينه وبين صيرورته رجلاً ذا وعي قومي . وأسمى ما وصل اليه في إخلاصه للمصلحة العامة لم يتجاوز ما يتعلق بقبيلته من الامور . اما النظام واحترام الشرائع وطاعتها والخضوع للسلطة فليست من سجاياه .

وكانت بداية الديانة السامية في الواحات لا في المَهَامِه . ولقد قامت على انصاب وينابيع سبقت ما جاء بعدئذٍ من نوعها مثل الحجر الاسود وبئر زمزم في الاسلام وبيت إيل في العهد القديم من التوراة . أما الشعور الديني في قلب البدوي فسطحيّ . ولم يفت القرآن التصريحُ بذلك فقد جاء فيه قوله : « الاعرابُ أشدّ كُفراً ونِفَاقاً » (سورة التوبة) . ولا يزال الامر كذلك حتى يومنا هذا فليس يتعدّى ايمان البدوي بالنبي الاعترافَ اللفظي .

وتظهر في عقلية البدوي وبنيته معالم صحرائه القاحلة وحياة الضجر المملّة التي تخيم عليها . فجسمه عظم وعضل وعصب وطعامه مقتصرٌ على التمر ولحم الابل في حين أن شرابه الرئيسي لبن النوق . وهو يصطنع خمره من عصير التمر ويُطعم ابله نوى التمر مجروشاً . أما غاية آماله فأن يحصل على « الاسوَدَين » اي التمر والماء .

« الاسودان أبرءا عظامي الماءُ والتمرُ دوا أسقامي »

أما لباس البدوي فبسيط مثل قوته . وهو لا يتعدّى قميصاً طويلاً ونطاقاً يشدهُ على حَقْوَيه وعباءة يلتف بها وكوفية وعقالا

على رأسه . أما السراويل فيكاد البدوي لا يعرفها ، واما الاحذية فنادرة الوجود قليلة الاستعمال .

واهم حيوانات الجزيرة الابل والخيل . وقد يصعب على العقل أن يتصوّر الصحراء صالحة للعيش بدون الابل . فهي قِوام اهل البداوة ، ومطيّة تنقلهم ، ووسيلة معاملاتهم . فَمَهْر المرأة ، ودِيَةُ القتيل ، وربح المَيْسر ، وثروة الشيخ كل اولئك تُحسَب بعَدَد الابل . والابل هي رفيقة البدوي التي لا تفارقه وخِدْنُهُ ومُعيله . يشرب لبنها بدلا من الماء الذي يحرمه نفسه ويوفره لماشيته ، ويتلذّذ باطايب لحمها ، ويلبس جلودها ، ويصطنع خيامه من وبرها ، ويستوقد بَعْرَها ويتطيّب ببَوْلها ويتطبّب به فيدهن به وجهه وقايةً من الحشرات . وليس الجمل للبدوي سفينة الصحراء فحسب بل هو عطية من الله ، وهِبَةٌ من لدُنْهُ .

وفي يومنا هذا يتباهى البدو ويعتزّون بدعوة انفسهم « أهل الوبر » . ومما جاء في الحديث « أحبّ الحيّ من أهل الوبر والمَدَر » . وذكر (ألوا مُوزِل) الرحالة التشيكوسلوفاكي المشهور في كتابه عن قبيلة الرولا انه لا يكاد يوجد فرد من افرادها لم يشرب مرةً ماء من كرش الجمل . فعند الحاجة يُؤتى بالجمل وتُدْفَع عصا في حلقه حتى يتقيأ الماء ، أو يُنحر ويُستخلص الماء منه . وقد يصلح هذا الماء شراباً اذا لم ينقضِ على تناول الجمل له يوم او يومان .

ولما كانت بلاد العرب مركز تربية الابل الرئيسي في العالم فتجارة الابل أهمّ مواردها . ويدلك على مكانة الابل في حياة البدو ومعاملاتهم ان في اللغة العربية ، على ما يقال ، ما يقارب الف اسم

للابل بأنواعها المختلفة وأنسابها وحالاتها وأطوار نموّها . وهو عدد لا يضاهيه سوى عدد أسماء السيف . ويقول علماء الجيولوجيا إن موطن الجمل الاصلي إنما هو البلاد الاميركية ومنها تسرب في العصور السابقة للتاريخ الى آسيا الشرقية، فالوسطى ، فبلاد العرب. وأول ذكر للجمل في التاريخ يرقى الى القرن الحادي عشر قبل المسيح عندما غزا المديانيّون فلسطين وأدخلوه اليها ، على ما ورد في سفر القضاة (٦ : ٥) .

أما الخيل ، واصلها ايضاً اميركي ، فليست من ضروريات الحياة في الصحراء، ومن هنا لم يكن يملكها منهم غير ذوي اليسار. وعلى الرغم من شهرة الخيل في كتب العرب فان ظهورها في الجزيرة جاء متأخراً . فلقد جاءتها قبيل الميلاد عن طريق سورية التي كان ملوك الرعاة قد ادخلوا اليها الخيل في القرن الثامن عشر قبل المسيح . وتوفرت للخيل في الجزيرة الاسبابُ للاحتفاظ بدمها أصيلًا بعيداً عن الاختلاط . وقد اشتهرت الخيل العربية بجمالها وقوّتها على تحمل الشدائد ونباهتها وتعلقها بصاحبها وإخلاصها له . فالخيل العربية الاصيلة هي مثال لما يحسبه الغربيون افضلَ صفات الخيل . وقد ادخل العربُ الخيلَ الاصيلة الى الاندلس في القرن الثامن للميلاد ، ولا تزال خصائصها ظاهرة في الخيول الاندلسية والمغربية حتى يومنا هذا . حتى اذا كانت الحروب الصليبية امتزج دم الخيول الانكليزية بدم الخيول العربية الاصيلة .

واهم ما يُعجب العربي من الخيل سرعَتُها إذ بدونها لا يصلح غزو . وهي تُستَخْدَمُ ايضاً في السباق والقنص. واذا عزّ الماء في

مخيم احـــدى القبائل وضجّ الاطفال وعلا عويلهم من العطش لم يكترث رب البيت بهم بل اصرّ على تقديم الماء للخيل اولا ، فاذا بقي منه شيء دفعه الى الصِّبْية .

وليس الغزو ضرباً من ضروب اللصوصيـــة ، وان شابهها . ولكنه بحكم عوامل حياة البداوة الاقتصادية والاجتماعية وَضْعٌ من أوضاعها وركن من أركانها . ففي الصحراء ، حيث القتالُ غريزةٌ ملازمة لطبيعـــة الفرد ، يُحسب الغزو خليقاً بالرجال وسجيةً من سجايا الرجولة. ولم يقتصر ذلك على فريق دون آخر بل شمل العرب جميعاً من نصارى وغيرهم .

والغزو عند العرب ناحية من نواحي اللهو القومي . والعُرْف الشائع يقتضي ان لا تُسفك الدماء فيه إلا عندالضرورة الماسة . وقد يعمل الغزو على انقاص عدد النفوس التي يجب ان تُعال ، غير انه لا يزيد فى مجموع ما في البلاد من الاقوات . وكثيراً ما تلجأ بعض القبائل الضعيفة او الاقوام النازلة في الحدود الىابتياع حماية القبائل القوية بدفع إتاوة معيّنة ، فتعيش في ظلها آمنةً .

على ان الضيافـــة تلطّف من مساوىء الغزو . فمهما تمادى البدوي في السلب والنهب والعدوان فانه يظل كريماً جواداً اميناً على الجوار مِضيافاً . ولطالما تغنى شعراء الجاهلية بمحاسن الضيافة والقِرى وحسبوا هذه الظاهرة البدوية افضل سجايا الانسان ، لا يشاركها في ذلك سوى الحماسة والمروءة . فحاجة البدوي الماسة الى الماء والمرعى (وهما اهم دواعي الشقاق بين سكان البادية) تستفزه الى القتـــالِ في سبيل الاستيلاء عليهما ، فتضطرم نار الوغى بين

القبائل . غير ان عجز الانسان تجاه قوى الطبيعة القاسية التي تستولي على الصحراء يولد في نفسه الشعورَ بضرورة الضيافة فيحسبها واجباً مقدساً . واذا ابى البدوي ان يحسن ضيافة الغريب أو ردّه خائباً أو الحق به أذى بعد ان اضافه فانه بذلك لا يسيءُ الى العرف الشائع والى الشرف فحسب ، بل يسيء الى الله نفسه .

ويقوم نظام المجتمع البدوي على العشيرة . والعشيرة هي مجموعة أفرادِ مخيمٍ واحدٍ قِوامه بيوتٌ من الشعر تقطن كل عائلة واحداً منها . وتكوّن العشائر المتقاربة النسب قبيلةً واحدة . ويعتبر افراد العشيرة انفسهم من دم واحد ، ويخضعون لسلطة الشيخ وَحْدَه — وهو اكبر رجال العشيرة سناً . وقرابة الدم هذه اكثرها حقيقي وبعضها اصطناعي قِوامه ان يمتص الدخيل على القبيلة شيئاً من دم أحد افرادها . ولا شك في ان هذه العصبية هي العامل الاكبر في توحيد شعور الافراد في العشيرة .

ولا يملك الفرد إلا بيت الشّعر ومحتوياته . غير ان الماء والمرعى والارض التي تصلح للفلاحة هي ملك مشاع للقبيلة بأجمعها .

واذا قتل البدويُ آخرَ من عشيرته لا ينبري للدفاع عنه احدٌ . فاذا هرب اصبح طريداً خارجاً عن نطاق العشيرة . أما اذا قَتَلَ أحداً من عشيرة ثانية تحكّم الثأر بين العشيرتين حتى تستوفيَ الواحدة ثأرها من الاخرى بقتل احد افرادها .

فالدم في عُرف الصحراء لا يعوّض عنه إلا بالدم ، ولا جزاء لمُهرقهِ غير القتل . والتبعة الاولى تقع على عاتق الاقربين . وقد يتطاول الثأر حتى يستغرق اربعين سنة . وجديرٌ بالذكر هنا ان

الثأر كان سبباً هاماً في الحروب القَبَلية في الجاهلية المعروفة بايام العرب وهو يضاف الى العوامل الاقتصادية في ذلك . واكبر مصيبة يمكن ان تلمّ بالبدوي انما هي خسرانه عضويته القبلية وخروجه عن حظيرتها . إذ يصبح شريداً طريداً لا حامي له ولا مجير .

فالعصبية القبلية تتطلب ولاء مطلقاً لأفراد القبيلة كلها . وهذا الولاء هو روح الفردية في البدوي مكبّرةً بحيث تشمل سائر افراد العشيرة . فيشعر الفرد ان قبيلته حرة مطلقة وانها وحدة لا تتجزأ. ولا يرى مانعاً يردّها عن الاغارة على غيرها من القبائل وسلبها وقتل أفرادها . وقد استغلّ الاسلام هذا النظام القبلي في الفتوحات المتعددة . فقسم الجيش الى وحدات على اساس قَبَلي . واستوطنت بعض القبائل البلدان المغلوبة على أمرها على هذا الاساس نفسه ، واطلق المسلمون على حروبهم اسم «غزوات». أما الداخلون في الدّين من الشعوب المقهورة فسُمّوا « الموالي » . والمولى في الاصل هو من يلتحق باحدى القبائل عن رغبة في نفسه فيصبح أحد افرادها . وظلت هذه المميزات غير المستحبة – أي مميزات الفردية المتناهية والعصبية القبلية – ترافق الخُلق العربي حتى بعد الاسلام. فكانت من اهم عوامل الضعف والانحلال التي طرأت على الدول الاسلامية المختلفة .

ويمثل الشيخ قبيلتَهُ في جميع شؤونها ، ويثبّت زعامته باصالة رأيه في المجلس القبلي ، وبكرمه وشجاعته . أما في الشؤون القضائية والحربية وغيرها من الشؤون العامة فليس له سلطة مطلقة،

بل عليه ان ينظر فيها مع زعماء القبيلة الاخرين في المجلس القبلي . ويبقى الشيخ شيخاً ما دام حائزاً على رضى القبيلة ، وإلا فقد مركزه .

إنّ العربي إجمالا والبدوي خاصةً ديمقراطي بالطبع والنزعة . فهو يحسب نفسه مساوياً لشيخ القبيلة ، وهو ينظر الى الامور بعين المساواة . وقلما يستعمل كلمة « ملك » إلا اذا اشار الى الملوك الاجانب. غير انه من ناحية ثانية ارستقراطي يعد نفسه مثالا أعلى للخليقة ويعدّ الامة العربية أشرفَ خلق الله . وعنده ان الرجل المتمدّن دونه قيمةً وسعادة . وهو يفاخر بصفاء دمه وبشعره وفصاحته وسيفه وحصانه . وغاية فخرهِ أجدادهُ . ولطالما تعشّق إرجاعَ نسبه الى آدم .

أما المرأة البدوية، سواء أكانت اسلامية ام جاهلية ، فقد كان لها نصيب وافر من الحرية تحسدها عليه اختها المتحضرة . واذا كانت قد عاشت احياناً في بيت تعدّدت فيه الزوجات وكان الرجل فيه سيداً فانها حرّة في اختيار زوجها وفي فراقه إن أساءَ اليها . وإن لها فوق ذلك حق التملك الشخصي .

ومن مزايا البدو مقدرتهم على اقتباس ثقافة الآخرين وتمثيلها . فتلك القوى العقلية التي كانت كامنةً طيلةَ اجيال تنبّهت وأصبحت قوى متحركة فعالة عندما لاقت جواً ملائماً . وقد تسنى لها ذلك باحتكاكها بابناء الهلال الخصيب . فظهر حمورابي في بابل ، وموسى في سيناء ، وزنوبيا في تدمر ، وفيلبس العربي في رومة ، وهرون

الرشيد في بغداد . ونشأت المعـالم ، كتدمر والبتراء ، التي لا تزال آثارها تدهش العالم باجمعه . ومما لا شك فيه ان ازدهـــار الدولة الاسلامية في أوائل عهـــدها يرجع ببعض اسبابه الى تلك القوى الكامنة في البدو الذين هم ، كما قال عمر بن الخطاب ، « اصل العرب ومادة الاسلام » .

قبل فجر الاسلام

مع ان البحار تكتنف جزيرة العرب من جهاتها الثلاث في حين تكتنفها الرمال من الرابعة فانها لم تكن قطّ منقطعة عن العالم الخارجي أو بعيدةً عن اهتمامه . واول اشارة محقّقةٍ عن العرب وردت في رقيم لشلمناسر الاشوري الذي قاد سنة ٨٥٤ ق.م حملةً على ملك دمشق وحُلفائه . وكان بين هؤلاء الحلفاء شيخ عربيّ . ومما يدل على روح ذلك العصر وحوادثه قول شلمناسر «قرقر مدينة ملكه دمرتها وهدمتها وأحرقتها بالنار ١٢٠٠ عربة ١٢٠٠ فارس ٢٠,٠٠٠ جندي من هَدَدَ عَزَر أرام (دمشق) ١٠٠٠-٠٠٠٠ جمل لجُنْدُب العربي» . وجدير بالاعتبار هنا ان اول ذكر عربي في التاريخ المدوّن جاء مصحوباً بذكر الجمل . وكان موقع قرقر بجوار حماه في شمالي سورية .

لقد اطلقنا لفظة « عربي » فيما سبق على جميع سكان الجزيرة . أما الآن فيجب ان نميز بين عرب الشمال بما فيهم عرب نجد ، وبين عرب الجنوب . فكما ان الجزيرة منقسمة الى قسمين جغرافيين تتوسط الصحراء بينهما ، كذلك سكانها ينقسمون الى شماليين وجنوبيين . وينتسب عرب الشمال لجنس البحر المتوسط. اما عرب الجنوب فينتسبون للجنس « الالبي » المسمى ايضاً الارمني او الحثي او العبري . ومن مميزاته الفك العريض ، والانف الاقنى ، والخد المنبسط ، والشعر الكثيف. وقد سبق عربُ الجنوب عربَ الشمال في إنشاء حضارة خاصة ، إذ لم يظهر عرب الشمال على المسرح العالمي حتى بزوغ الاسلام في العصور الوسطى . ولا بد من هذا التمييز بين عرب الشمال وعرب الجنوب . فالاختلاف بينهما لم يَزُل على الرغم من محاولة الاسلام توحيدَ الامة العربية . وقد كان لهذا الاختلاف شأن كبير في إضعاف معنويات الدولة العربية .

وقد تأثرت الجزيرة بمصر وبابل مَهْدَي الحضارة الاولين لاعتراضها بينهما ، فلاصقت افريقيا عند شبه جزيرة سينا — موقع الطور المشهور — في الشمال . وانحدرت طريق من هنالك الى الجزيرة . أما الطريق الرئيسية فحاذت النيلَ ، ومن ثمّ انقطعت عند طيبة وانتهت الى البحر الاحمر . وفي ايام السلالة الفرعونية الثانية عشرة (حوالي ٢٠٠٠ ق.م .) وصلت قناةٌ اصطناعية فرعَ النيل الشرقي برأس البحر الأحمر . ومن ثم عفّى عليها الزمن حتى أعاد البطالسةُ بناءها ، واندثرت بعد زمن فجدّدها الخلفاء العرب . ودام استعمالها حتى اكتشاف الطريق البحرية للهند حول

رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧ .أما في الجنوب فيفصل الجزيرة عن افريقيا مضيق باب المندب ، وعرضه خمسة عشر ميلًا .

ولم يكن العرب قبل الاسلام اهلَ حرب وشدّة بل اهلَ تجارة وعمران . فحضارتهم البحرية في الجنوب كانت حلقة الوصل بين الهند وافريقيا . وفي الشمال ازدهرت لهم مدينتان عظيمتان كانتا تقومان على طريق القوافل وهما سَلْع (البتراء) وتَدْمر اللتان دُمّرتا فيما بعد ، ولا تزال خرائبهما الفخمة تجتذب السياح من اقطار الارض . وكانت سلع (البتراء) التي بلغت أوج عزها وثروتها تحت رعاية الرومان مدينةً منحوتة في الصخر الملوّن الأصم. أما تدمر وموقعها في الصحراء السورية بين امبراطوريتي الرومان والبارثيين الفرس المتنافستين فقد خلّفت وراءها قصةً مدهشة عن اميرتها زنوبيا ذاتِ الجمال والطموح التي اتخذت لنفسها لقب ملكة الشرق ، ووسعت ملكها على نفقة الامبراطورية الرومانية ، فضم مصر و قسما كبيراً من آسيا الصغرى . ولما تغلب الامبراطور اورليان على قوادها في معركةٍ قرب حمص سنة ٢٧٢م. غادرت تدمر وأمّت الصحراء على هجين هاربةً . غير انها أسرت وسيقت امام عربةِ قاهرها عند دخوله رومة ظافراً ، مُثقلةً بسلاسلَ ذهبيةٍ حسب عادات ذلك الزمن .

ومن الحوادث الأخرى ذات الشأن في تاريخ الجزيرة الباكر نزولُ القبائل العبرانية طوالَ اربعين سنة في سيناء والنفود في طريقهم من مصر الى فلسطين ، حوالي سنة ١٢٢٥ ق.م . ففي مديان – وهي القسم الجنوبي من سيناء والاراضي الواقعة شرقيّه – عاهد

الله بني اسرائيل. وهنالك تزوّج زعيم القبائل موسى من امرأة عربية كانت ابنة كاهن مدياني (خروج ٣ : ١ و ١٨ : ١٠ – ١٢). وقد كان هـذا الزواج من اهمّ حوادث التاريخ إذ كانت زوجُ موسى تعبد الهاً يدعى ياهُوَ، وهو الذي صار يعرف بيَهْوَه فيما بعـد. وكان ياهو الهاً للصحراء ساذَجاً وصارماً في الوقت نفسه. فمسكنه خيْمةٌ، وفرائضه بسيطـة لا تتعدّى التَقْدِمات الصحراوية والذبائح المحرقة. ولقّنت امرأة موسى زوجها هذا الطقس الديني. فعقِبَ ذلك ما عقبه من النتائج الدينية العالمية الهامة.

وتكثر الادلة في العهد القديم عـلى ان اصل العبرانيين من الصحراء. فيُظنّ ان «الملوك» المـذكورين في (أرمياء النبي) كانوا شيوخاً في شمال الجزيرة او الصحراء السورية. وشولميث التي خلّد جمالها نشيد الاناشيد المنسوب لسليمان كانت على الارجح عربية من قبيلة قيدار. وايوب الذي ابتدع ارقى شعرٍ في العالم السامي القديم لم يكن عبرانياً بل عربياً. ومن الممكن ان «المجوس من المشرق» الذين تبعوا النجم لاورشليم لم يكونوا مجوساً من فارس على ما هو متعارف بل بدواً من صحراء شمالي الجزيرة. ويمكننا متابعة هذه الصلات في العهد القديم الى حدّ بعيد، إذْ كان العبرانيون جيران العرب ومن أقرب الاقوام اليهم جنساً.

بيد ان ما يهمنا الآن فوق كل شيء هو ظهور الاسلام، دين الاستسلام لمشيئة الله وارادته. ففي أوائـل القرن السابع للمسيح اضمحلّت الحياة القومية التي كان قد قام بها عرب الجنوب وسادت الفوضى الوطنية. وعَبَد البدو القمر قبل الشمس كما يُنتظر مـن

قوم رعاة يقطنون بلاداً حارة ويستأنسون ببرودة الليـــل لرعاية قطعانهم ، في حين يستنكرون حرارة الشمس . والشمس لا تدخل في صفوف آلهتهم إلا بعد دخولهم في طور الزراعة وادراكهم فاعلية الشمس فيها . واخيراً بلغت عبـادة الاصنام في طول الجزيرة وعرضها درجةً أمست معها لا تفي بحاجات القوم الروحية. وكانت قد ظهرت آراء دينية توحيدية غامضة وتصلّبت في شكل طقوس دينية . واخذت بعض المؤثرات المسيحية تسجل مفعولها . ولكن الفكرة المسيحية لم تستهوِ خيـــال العرب قطّ . فتهيأت الأسباب ودنت الساعة لظهور زعيم ديني وقومي عظيم .

ويسمّي المسلمون العهدَ السابق لظهور النبي بالجاهلية . غير ان هذه التسمية لا تنطبق تماماً عـــلى الواقع اذا اخذنا بعين الاعتبار حضارة جنوب الجزيرة . على ان عرب الشمال لم يستنبطوا طريقة للكتابة حتى قبيل ايام النبي . فالجاهلية اذاً هي العصر الذي لم يكن فيه نبي أو كتاب منزل .

والعرب يفوقون شعوب الارض باجمعهم باستحسانهم التعبيرَ اللفظي والكتابي واعجابهم به وبأثارة الكلِم لنفوسهم . وقد لا تكون هناك لغةٌ تضاهي العربية في تأثيرها في نفوس متكلميها . ففي مجالس بغداد ودمشق والقاهرة اليوم يحسّ السامعون بانفعالات داخلية شديدة عندما يصغون الى قصيدة او خطبة بالعربية الفصحى وان لم يعقلوا الكثير منها . فالوزن والقافيـة والموسيقى تولّد في النفس شعوراً وتسحرها بما يسمونه « السحر الحلال » .

والعرب كسائر الساميين لم يستنبطوا فناً جميلًا خاصاً بهم ، بل

أطلقوا لطبيعتهم الفنية العِنان في مجرى واحد ، هو فن الكلام . فاذا مجّد اليوناني تماثيله وبنيانه مجّد العربي قصيدته والعبراني مزموره ، ووجدا فيهما طريقة أسمى للتعبير النفسي . وفي أمثال العرب « جمال المرء في فصاحة لسانه » وأثِر عنهم أنهم قالوا : « اشتهر اليونانيون بالحكمة ، واهل الصين بالصناعة ، والاعراب ببلاغة المنطق » . وقد عدّ عرب الجاهلية الفصاحةَ والرماية والفروسية مزايا الرجل الكامل الثلاث . والعربية بفضل تركيبها يَحْسُن فيها الايجاز ويكثر الاقتصاد على ذهن السامع . فاستغل الاسلام هذه الميزة اللغوية كما استغلّ ميول اهله النفسية فجاء القرآن معجزة في اسلوبه وتركيبه . ويعتقد المسلمون ان « الاعجاز » هو اسطع برهان على صحّة دينهم . واذاً فقد كان فوز الاسلام فوزَ لغة الى حدّ ما ، بل قل هو فوز كتاب .

ولم يتفوّق عرب الشمال في الجاهلية إلا في الشعر . وميلهم إليه كان ميزتهم الثقافية الوحيدة . وقد لعب شاعرهم ادواراً عديدة هامة في حياتهم الاجتماعية . فاذا اشتبك قومه في معركة كان لسانه فعالا كشجاعتهم . أما في السلم فقد تدعو خطبه النارية الى الاضطراب والانشقاق . وقد تثير قصيدته القبيلةَ كما يثير خطاب المهيّج الناسَ في الحملات السياسية والانتخابية في عالمنا اليوم . ولما كان الشاعر صحافي يومهِ فقد اغدق عليه الامراء هداياهم الثمينة كسباً لعطفهِ . فشعرهُ الذي حفظه الناس وتناقلتهُ الالسن كان اداةً فعالة للدعاوة ، وخير مكوّن للرأي العام ، وافضل ممثل له . وكان إغداق العطايا على الشاعر تحاشياً لهجوه يعرف عندهم « بقطع اللسان » .

ولم يكن الشاعر عرّافاً وهادياً وخطيباً وممثلاً للقبيلة فحسب ، بل كان عالمها ومؤرّخها ايضاً . وكان الشعرُ مقياسَ الذكاء عند البدو على حدّ قول احدهم : « مَنْ يفاخِرُني مَنْ ينافِرُني ببني عامر بن صَعْصَعةَ فرساناً وشعراء وعَدَداً وفَعالاً » . والقبيلة كانت تتفوّق على اختها بقوّتها الحربية وذكاء أفرادها وعددهم . وللشعر العربي فوق ظرافته ورشاقته في الجاهلية اهمية تاريخية أيضاً اذ يحتوي على الكثير من المعلومات لدرس العصر الذي نظم فيه . ويكاد يكون المرجع الوحيد لتعرّف الحياة الجاهلية في جميع الوانها وأطوارها . حقاً ان « الشعر ديوان العرب » .

ولم يكن للدين في نفس البدوي قبل فجر الاسلام ، كما يظهر من شعره ، غير أثر ضئيل . واذا كان قد مارس بعض الطقوس الدينية فقد فعل ذلك لا عن رغبة نفسية بل احتراماً للعرف والعادة. فانت لا تكاد تجد مثالا واحداً لتعبّد صادق او خشوع امام اله وثني . واعتقد البدو أن الصحراء ملأى بالجنّ . ولم تختلف الجن عن الآلهة في طبيعتها بل اختلفت عندهم في علاقتها بالانسان. فكانت علاقة الآلهة في الجملة ودية، أما علاقة الجن فمعادية. وما الجن عند التحقيق إلا تشخيصٌ لعوادي الصحراء القاسية وحيواناتها الضارية . وقد بقي الجن حتى بعد الاسلام، وازدادت عدداً اذ أنزِلت الآلهة الوثنية منزلة الجن .

وفي مدينة مكة من اعمال الحجاز الذي يقف حاجزاً بين هضاب نجد وبين الساحل المنخفض كان واحدٌ من الآلهة المتعدّدة يدعى « الله ». وهو اله قديم اعتبره اهل مكة الخالق الرزاق

والتجأوا اليه في أحرج مآزقهم . حتى اذا هتف رجلٌ منهم باسمه في كلام اصبح بعدُ امجد قول في العربية « لا إله إلا الله » دوّى صدى هُتافه في انحاء المعمور ، ودفع باهـــل الصحراء الى اطراف العالم الاوسع فاتحين غالبين .

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّه

يرجّح المؤرخون ان محمداً وُلد عام ٥٧١ م . وهو المعروف بعام الفيل . وكان قد توفي والده وهو جنين ، ليفقد بعدُ والدته قبل ان يتجاوز السادسة من عمره . ولقد دعته امه باسم قد يظل مجهولا . أما الاسم الذي عُرف بـــه في القرآن فهو محمد . وأشير اليه مرة واحدة فقط باسم أحمد . وقد أطلق عليـــه قومه لقب « الامين » فلزمه . و كثر تداول هذا الاسم « محمد » الى ان اصبح عدد الذكور الذين يعرفون به اليوم يفوق عدد كل من تسمّى باسم آخر . وينتسب محمد الى قبيلة قريش ، وكانت من أسمى قبائل الجزيرة مركزاً ، تتولى سدانة الكعبة [1] في مكة . وكانت الكعبة تضمّ بين جدرانها اصناماً كثيرة ، وحولها مناصب عديدة ، وهي مُتّجَهُ انظار عرب

(١) سِدانة الكعبة : خدمتها .

الحجاز في عباداتهم ، يأتيها الحجاج ليؤدوا فيها فرائضهم الدينية .

وعلى الرغم من ان محمداً كان من اولئك الانبياء الذين ظهروا في العصور المؤرّخة فاننا لا نعرف إلا اليسير عن حداثته . وليس لدينا كثير من المعلومات الموثوق بها عن كده بسبيل كسب عيشه ، وجهوده لتحسين شؤونه ، والآلام التي عاناها في إعداد نفسه للمهمة الكبرى التي كانت تنتظره .

ولم يبدأ الفصل الواضح من حيـــاة محمد حتى بلغ الخامسة والعشرين ، حين تزوج من خديجة وهي في الاربعين . وكانت خديجة ارملةً قرشيةً تاجرةً ذات شرف ومال تدير تجارتها مستقلّة وتستأجر الرجال . وكان ممن استأجرتهم الشابُ محمدٌ لمـــا توسمته فيه من النجابة . اما محمد فكان يحترمها ويثق بها ولم يفكر في الزواج من امرأة ثانية ما زالت خديجةُ ذاتُ الشخصية البارزة والصفات الممتازة في قيد الحياة .

وكفى الله محمداً في زواج خديجة الحاجةَ الى متاع الدنيا فاتسع له المجال لتغذية ميوله ، فاخذ يخلو بنفسه في غارٍ صغير خارج مكة ، يُمعن في التأمل والعبادة ويتلمّس اثناء ذلك الحقّ . وفيما هو نائم يوماً في الغـــار سمع صوتاً يأمره قائلًا : « إقرأ باسْم ربّك الذي خَلَقَ » الخ . (سورة العَلَق) فكان هذا اولَ عهده بالوحي . ومكث برهة اصابته فيها رعدة الخوف ، فأسرع الى بيتــه وهو في أشدّ حالات الاضطراب النفسي ، وسأل خديجة ان تزمّله ، فزملته وهو يرتعش . فجاءه الوحي ثانية « يَا أَيُّهَا المُدَّثِرُ . قُمْ فأَنْذِرْ » الخ (سورة المدثر) . واختلفت عليه الاصوات ، واشكلت بعد ذلك ،

وجاءت احياناً كأنها صلصلة الاجراس ، غير انها توحدت أخيراً ووضحت ، واذا به يتحقق ان هذا الصوت هو صوت الملاك جبريل .

وتُشبه رسالة النبي العربي محمدٍ رسالات الانبياء العبرانيين في العهد القديم . وتتلخّص دعوته في ان الله واحد ، لا اله إلا هو ، وانه مبدع الكون وخالق الوجود ، وانه على كل شيء قدير . وان هنالك يوم دين ، وانّ الناس يُجْزَون باعمالهم : فمن عمل صالحاً فله جنات النعيم ، ومن عمل طالحاً فله نار الجحيم .

أيقن محمد باختيار الله اياه رسولاً ليؤدي رسالة الحق، فوثق من نفسه ، واخذ يجول بين قومه مبشراً هادياً يدعو الى الحق وينهى عن الباطل . واخذ القوم يستخفون به ويستهزئون برسالته ، غير ان ذلك لم يكن ليفتّ في عضده، بل استمر يعظ الناس محذراً منذراً ، ويجدّ في تحقيق المهمة التي اختاره الله لها . فكان يصف ويشرح للناس ملاذ الجنة ونعيمها واهوال جهنم ونارها بلغة صريحة لا غموض فيها . وكثيراً ما هدّد سامعيه بيوم الدين المخيف ، وبرغم هذا فلم يؤمن برسالته إلا نفر قليل . وكان اول من اسلم زوجته خديجة ثم تلاها ابن عمه علي ، ونسيبه ابو بكر . اما الفئة الارستقراطية ذات النفوذ في قبيلة قريش فظلّت منكرة تقاومه بصلابة شديدة وتضيّق عليه بلا هوادة. ولما اخذ عدد المؤمنين يزداد تدريجياً ، وجلهم من العبيد والمستضعفين ، خاف القرشيون من اتساع نفوذه ومن خطر رسالته على مصالحهم التجاوية والاجتماعية . وثبت لهم ان السخرية التي حاربوه بها لم تكن فعالة كما أمّلوا فلجأوا

الى اضطهاده والتنكيل به وباتباعه . فكان من جراء ذلك أن نزحت احــدى عشرة اسرة مكيّة مؤمنـة الى بلاد الحبشة . وتبعتها في عام ٦١٥ ثمان وثلاثون اسرة اخرى . ووجـد هؤلاء المسلمون في جوار النجاشي النصراني امنـاً وهناءً . وابى هذا تسليمهم الى ظالميهم . وما كانت خسارة محمد لهؤلاء الاتباع في تلك الايام المظلمة وخلال هذه الفترة من الاضطهاد الشديد لتُضعف من عزيمته . فاستمر يبثّ دعوته ويدعو الناس الى عبادة اله واحد هو الاله الحق . وظلّ الوحي يجيئه والآيات تنزل عليـه . وودّ لو ان لقومه كتاباً كالذي في أيدي اليهود والنصارى ،ذلك الكتاب الذي أثار في نفسه الاعجاب .

ولم يمضِ زمن حتى اهتدى عمر بن الخطاب ، فوجد الاسلامُ فيه مَنَعَةً ، ولقد قُيّض لعمر ان يلعب دوراً هاماً في تأسيس الدولة الاسلامية الفتيّة كما سنرى بعدُ . وفي هذه الحقبة كان الاسراء والمعراج . وتفصيل ذلك انه أسري بمحمد ليلاً من مكة إلى بيت المقدس ، وهو البلد الذي يقدّسه اليهود والنصارى . ومن هناك استأنف محمد رحلته الى السماء السابعة على دابتهِ العجيبة « البُراق » . بذلـك أصبح بيت المقدس الحرمَ الثالث بعد مكة والمدينـة في نظر العالم الاسلامي . وقد اتخذت قصة الاسراء الواناً زاهية رائعة على مرور الاجيال . ولا تزال حَلَقات التصوّف في ايران وتركيـا تقيم لحديث الاسراء وزناً كبيراً . ويعتقد عالم اسباني ان الاسراء والمعراج مصدر « الكوميدية الالهية » التي وضعها الشاعر الايطالي الخالد دانتي . ومما يدل على تأثر المسلمين اليوم بذكرى الاسراء ما

حدث في آب من عام ١٩٢٩ في فلسطين من فتن بشأن حائط المبكى، عند اليهود ، في بيت المقدس ، وهو الذي يعدّه المسلمون الموضع الذي ربط عنده محمدٌ البراقَ في طريقه الى السماء . وبعد عامين من الاسراء جاءَ محمداً من يَثرِبَ ، مسقطِ رأس امه ، وفدٌ مؤلف من خمسةٍ وسبعين رجلًا ، فبايعوهُ ودعَوْه الى اتخــاذ يثربَ مسكناً . واذ كان عرب يثرب على اتصال بمواطنيهم اليهود الذين كانوا يترقبون ظهور المسيح فقد انتهَوْا الى ان يكونوا اكثر استعداداً لاستماع صاحب الرسالة من اهل مكة . فزاد هــذا في خوف قريش وامعانهم في اضطهاد المسلمين . فأوعز محمد الى مئتين من اتباعه ان ينسلّوا متفرقين الى المدينة بعيداً عن رقابة قريش . ولحقهم هو بنفسه فوصلها في ٢٤ ايلول عام ٦٢٢ . وهكذا كانت الهجرة التي لم تكن فراراً فجائياً بل خطة مدبرة من قبل عامين. واصبحت السنة التي هاجر فيها الرسول الى يثرب (ابتداء من ١٦ تموز) بدءَ التقويم الاسلامي القمري كما اقرّه الخليفة عمر بعد سبعةَ عشرَ عاماً من الهجرة .وعُرفت يثربُ من بعد ذلك بالمدينة ، أي مدينة النبي.

هدأت العاصفة الآن بعض الشيء . واطمأن محمد بتآخي المسلمين في المدينة . وبدأ دور جديد من ادوار حياته ، هو الدور السياسي الذي اخذ يُعنى فيه بمصالح المؤمنين من مهاجرين وأنصار . ولما وثق من استقرار الامور انتهز فرصة الاشهر الحُرُم وخرج على رأس فئة من اتباعه يعترض قافلة قُرَشيّة قادمة من الشام الى مكة . واحسّ زعيمُ القافلة بما بُيّت له ،فطلب نجدةً من مكة. ولكن هذه المعركة التي عُرفت بوقعة بدر اسفرت عن انتصار ثلاثمائة من المسلمين

على اكثر من الف من المكيين . وعلى الرغم من ان هـذه الموقعة كانت وقعة حربية بسيطة فقد جاءت حجر الزاوية في تأسيس سلطة محمد الزمنية . وفسّر الناس هذا النصر العظيم بانه معجزة تدل على تأييد الله للأيمان الجديد .

وتجلى في المسلمين في معركتهم الاولى روحُ النظام والشجاعة والازدراء بالموت ، وهي صفات لازمتهم في معاركهم الكبرى إبان عصر الفتوحات . ومع ان المكّيين اخـذوا بثأرهم في العام الثاني وجرحوا النبي ، فان انتصارهم لم يطل امرهُ ، اذ استردّ المسلمون حيويتهم وانتقلوا من دور الدفاع الى دور الهجوم . وبـدأ دينهم ينتشر ويمتدّ بسرعة ، وقد كان حتى ذلك الوقت عبارة عن دين ضعيف الجانب خاضع للسياسة المحلية . اما الآن فقد اصبح لا دين دولة فحسب بل الدولة بنفسها . ومنذ ذلك الحين صار الاسلام ولا يزال قوة حربية سياسية .

وشهر محمد حرباً على اليهود لممالأتهم اعداءه وتآمرهم عليه . فقتل منهم ستمائة رجـــل ينتسبون الى اهم القبائل اليهودية ، وأجـلى الباقـين منهم ، واسكن المهاجرين في مزارعهم . ولم تكـن هذه القبائل هي الوحيدةَ التي خاصمت الاسلام ، كما لم تكن آخر القبائل التي خيّرها النبي بين الاستسلام والموت .

وفي هذه الحقبة من حيـاة النبي في المدينة صار تنظيم الاسلام وحدةً عربية قوميـــة . فانقطعت صلة الاسلام بالديانتين اليهودية والنصرانية . وخُصّ يومُ الجمعة بالصلاة الاسبوعية . وأقيم الأذان مقامَ النواقيس والابواق. واصطنع رمضان شهراً للصوم. وتحوّلت

القبلة من بيت المقدس الى مكة . وأجيز الحجّ الى مكة وتقبيل الحجر الاسود ، وهما من فروض الدين المرعية في الجاهلية .

وفي عام ٦٢٨ حجّ محمد على رأس الف واربعمائة مؤمن الى مكة ، مسقط رأسه ، وأرغم قريشاً على توقيع معاهدة تستوي فيها حقوق المكيين والمسلمين . فانقطع بذلك النزاعُ الذي استفحل بينهُ وبين اهله القرشيين ، ولو الى حين . وفي خلال هذه الفترة من الزمن أسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وقد كانا في الجاهلية رجلين من قريش مشهورين ، ثم قُيض لهما فيما بعد ان يرفعا لواء الاسلام عالياً ويصبحا سيفيه الحادّين . وتم احتلال مكة احتلالا كاملًا في آخر كانون الثاني من عام ٦٣٠ (٨ هـ .) . فدخل محمد الكعبةَ فحطّم اصنامها التي قيل ان عددها كان يربو على ثلاثمئة وستين ونادى قائلًا : « جاءَ الحقُ وَزَهَقَ البَاطِلُ إنّ الباطِلَ كان زَهُوْقاً » . إلا ان محمداً حاسَنَ الاهلين وعاملهم معاملة ليّنة ، وعفا عن مقاوميه فاقام الدليل بذلك على سموّ نفسه . وقلما تجد في التاريخ مثالاً للعفو عند المقدرة يعادل هذا المثال .

وأقرّ محمد في هذه الحقبة الكعبةَ وما يحيط بها مسجداً حراماً لا يجوز للمشركين الاقتراب منه . ونزلت الآية التي ذهب المفسّرون الى ان الله قد حرّم فيها على غير المسلم الاقترابَ من الكعبة . وربما كان القصد من هذه الآية منع المشركين من المجيء الى الكعبة في موسم الحج . على ان قول المفسرين لا يزال مَرْعياً . ولا يزيد عدد النصارى الاوربيين الذين وُفّقوا الى زيارة الحرمين الشريفين ونَجَوْا بارواحهم على الخمسة عشر رجلًا . اولهم لودفيكو دي فارتيما

من اهالي بولونية في عام ١٥٠٣ وآخرهم ألدون روتر الانكليزي . اما الذي كتب امتع وصف لزيارته فكان بلا ريب السر رتشرد برتون ١٨٥٣ .

وعقد محمد في العام التاسع من الهجرة معاهدات حسن جوار مع صاحب العقبة النصراني في الشمال ، ومع قبائل اليهود المقيمة في واحات مَقْنا وأذْرُح والجَرْبى الى الجنوب . ودخلت جماعات اليهود والنصارى في حمى الاسلام ورعايته تدفع الجزية والخراج . وصارت هذه الجزية سابقة لها اثرها في تطورات السياسة الأسلامية فيما بعد .

وعُرف هذا العام التاسع من الهجرة (٦٣٠ – ٣١) بعام الوفود ، إذ فيه جاءت جماعات من كل حدب وصوب تعلن الطاعة والولاء للنبي الأمير من عُمان البعيدة ومن حضرموت واليمن . اما العشائر الكبيرة فاكتفت بارسال الوفود . ولقد اعتنق كثير من هذه القبائل الاسلام عن مصلحة شخصية اكثر مما اعتنقته عن اقتناع روحي . فاكتفى الاسلام منها بالشهادة اللسانية مع تأدية الزكاة . وهكذا اخذت الجزيرة العربية التي لم تحن عنقها قط في سابق الايام لزعامة رجل واحد ترضخ لسلطة محمد وتعلن الطاعة له . وشرعت عشائرها تُقبل على الانخراط في نظامه الجديد وتُقرّ شيئاً فشيئاً مُعتَقَداً اسمى وادباً ارفع .

وفي العام العاشر من الهجرة دخل محمد عاصمته الدينية مكة على رأس قافلة من الحجاج ظافراً . فكانت هذه آخر زيارات النبي لمكة فسمّيت حجة الوداع . ذلك بانه بعد ثلاثة اشهر من رجوع

النبي الى المدينة مرض وشكا صداعاً في الرأس شديداً تُوفي على أثره في الثامن من حزيران عام ٦٣٢ .

وفي العهد المدني نزلت سور القرآن الطويلة ، وكان فيها فضلاً عن الشرائع الدينية وفروض الصوم والصلاة قوانينُ اجتماعية سياسية تبحث مسائل الزواج والطلاق ومعاملة العبيد واسرى الحرب والاعداء. ولقد أوصى القرآن خيراً بالعبد واليتيم والمسكين والبائس والمظلوم . أولم يجدِ اللهُ الرسولَ يتيما مُعْدِماً فآواه ؟

وعاش محمد حتى في ايام عزّه ومجده حياة بسيطة عادية لا تكلّف فيها ولا تظاهر . كان طوالَ حياته شديد الزهد في المادة ، فسكن بيتاً من الطوب حقيراً لا يختلف عن البيوت القديمة التي نشاهدها اليوم في الجزيرة وسورية ، قِوامه بضع غرف وليس له إلا مدخل واحد من الصحن الذي تحيط به الغرف . وكثيراً ما شاهده الناس يرفو ثيابه البالية ويرقعها بنفسه . وكان يشاطر الناس حياتهم العامة ولا يردّ احداً عن مجلسهِ صغيراً كان ام كبيراً . ويقول احد المستشرقين الانكليز إن أعمال محمد اليومية صغيرة كانت ام كبيرة تركت أبعد الأثر في النفوس حتى أصبحت قدوة يقتدي بها الملايين الى يومنا الحاضر ، ولم يقم في الجنس البشري فردٌ عدّهُ قومه نموذجَ الانسان الكامل فقلدوا اعماله بالدقة التي قلّد بها اتباع محمد محمداً .

ولم يترك محمد إلا ثروة زهيدة عادت إلى بيت المال . ولقد تزوّج من نحو اثنتي عشرة امرأة منهن من تزوجها بدافع الحبّ ومنهن من كان زواجهُ منها لغرض سياسي أو اجتماعي . وكان ميلهُ

الى عائشة بنت ابي بكر اقوى من ميله الى باقي ازواجه. وقد ولدت له خديجة عدة بنين وبنات فمات البنون ولم يبقَ من البنات إلا فاطمة زوج علي . أما موتُ طفلهِ ابراهيمَ من مارية القبطية فقــد ترك قرحةً اليمة في نفسه .

ونشأت من الجماعة الدينية في المدينة من مهاجرين وانصار أمة الاسلام وبقي الدين أسّ وحدتها . وكانت هذه الجماعة حجر الزاوية في بناء دولة الاسلام الواسعة . وفي الواقع كانت هذه اولَ محاولة في تاريخ الجزيرة لتكوين امة قائمة عــلى رابطة الدين والنظم الاجتماعية لا عــلى أساس العصبية الدموية ، كما كانت الحال في الماضي . وتوطّدت العقيدة بأن الله منبع سلطة الدولة وان محمداً خليفتهُ على هـذه الارض وحاكمها الأسمى . وما دام الرسول في قيد الحياة فهو المنفّذ لأوامر الله والمرجع الأخير في شؤون الامـة المدنية . وعلى أساس هذه العقيدة تولى محمـد زمام السلطة الزمنية بالاضافة الى سلطته الروحية ، وشرع يمارس الحكم كما يمارسه رؤساء الدول في العالم . وعلى هذا المبدأ اصبح المسلمون اخواناً في الدين والعقيدة بقطع النظر عن نزعتهم القبليّة ، وكان إخلاصهم قبل هذا لزعماء قبائلهم . وقــد أكدت ذلك كله كلماتُ النبي في خطبته الممتازة في حجة الوداع : « ايها الناس اسمعوا قولي واعقلوه تعلمُنّ أن كل مسلم اخٌ للمسلم ، وان المسلمين إخوَة فلا يحلّ لامرىءٍ من اخيه إلا ما اعطاه عن طيب نفس منه . فلا تظلمُنّ أنفسكم » .

وهكذا قضى الاسلام دفعةً واحدة على رابطة العصبية القوية في الجزيرة واستعاض عنها برابطة جديدة هي رابطة الايمان . فقامت

الجماعة الاسلامية ولا كهنوتَ فيها أو زعامـــة دينية ذات رُتَب وابرشيات أو أديرة . واصبح المسجد فضلاً عن كونه بيت العبادة ملتقى المؤمنين ودار الندوة تُلقى فيـــه الخطب وتجري البحوث والمناقشات وساحـــة للتدريب العسكري . وصار الامام يقود المؤمنين في ساحات القتال كما يؤمّهم في الصلاة . وفُرض عـــلى المسلمين التآزر والاتحاد تجاه العالم باسره . اما العرب الذين لم يقبلوا الايمان الجديد فظلوا خارج الجامعة الروحيـــة . ونسخ الاسلام ما قَبْلَهُ . وفي آية واحـــدة حرّم القرآن الخمر والميسر وكانا ، بعد النساء ، اعزّ شيئين على قلب العربي . وكذلك شجَبَ الاسلام الغناء الذي كانت ترنو اليه نفوس أبناء الجزيرة العربية .

ومن المدينة امتدّ الحكم الاسلامي الى كافـــة اطراف الجزيرة ليشمل فيما بعد معظم اقطار آسيا الغربية وافريقيا الشمالية . فغدت جماعة المسلمين في المدينة مثالا مصغراً لما وصلت اليه الجماعة الاسلامية بعدُ . ولقد تسنى لمحمد في سحابة عمر غـــير طويل ان يهيّء الوسائل الفعالة في تكوين امة متراصّة من قبائل مختلفة متناحرة في بلاد لم تكن لذلك العهد الا تعبيراً جغرافياً ، وأن يقيم ديانة فاقت بانتشارها السريع إلى أبعـــد اقطار العالم كلتا الديانتين اليهودية والنصرانية . وفضلاً عن ذلك فقـــد وضع محمدٌ حجرَ الأساس لامبراطورية ضمّت بين أطرافها فُضلى مقاطعات العالم المتمدّن يومئذٍ . واليوم يدين جزء كبير من العالم بالاسلام وينادي بتعاليم هذا الرجل الأمي الذي كان الواسطة في إخراج كتاب لا يزال ثُمْنُ سكان المعمور يعتبره القولَ الفصل في العلم والحكمة والدين.

القرآن والإيمان

ليس غريباً ان ترى في ايامنا هـــذه مسلماً يلتقط ورقة من الارض فيودعها بتحفظ مكاناً في جدار خشية ان يكون في سطورها ذكرٌ لله أو آية من القرآن فتدوسها السابلة . والمسلم يعتبر القرآن كتاب الله فيوليه احتراماً عميقاً ويقدّسه . إنه كلمة الله التي املاها جبريل على محمد « لا يَمَسّهُ إلا المُطَهّرُونَ » (سورة الواقعة)

ومع ان في العالم اليوم من النصارى ما يقرب من ضعفَي عدد المسلمين فيمكن القول إن القرآن هو الكتاب الذي يقرأه الناس اكثر ما يقرأون ، لانه ليس كتاب دين فقط بل هو كتاب درس واطلاع يعتمد عليه كل مسلم ومسلمة في تعلّم اللغة العربية . وليس للقرآن ترجمةٌ رسمية الى لغة اجنبية إلا الترجمةَ التركية . ولكنه نُقل الى نحو اربعين لغة بدون تفويض . واول ترجمة للقرآن الى

لغة اجنبية كانت في اللغة اللاتينية ، قام بها في القرن الثاني عشر بطرس كلوني الملقب بالفنرابل . وقد رمى بهذه الترجمة الى دحض العقائد الاسلامية وتكذيب الرسول . أما اول ترجمة انكليزية فقد ظهرت عام ١٦٤٩ ، قام بها اسكندر روّس معتمداً على نسخة افرنسية ووسمها بهذا الاسم «قرآن محمد – وهي ترجمة انكليزية حديثة وضعت ارضاءً لرغائب من يريد الاطلاع على أباطيل الترك » .

ولستَ تجد في القرآن آياتٍ كثيرة قابلةً للالتباس في القراءة كما هي الحال في لغات التوراة الاصلية . ولقد كان المؤمنون في البداية يحفظون سُوَرهُ وآياته عن ظهر قلب ، حتى اذا ُخشي انقراضُ الحفاظ بسبب الحروب أشير بجمعها . ولقد تمّ جمع المصحف من قطع العُسُب (جمع عسيب وهو جريدة النخل) وألواح اللخاف (الحجارة البيضاء الرقيقة) ومن صدور الناس . فجيء بهذه القطع وقوبلت بعضها ببعض ثم أثبت النص القرآني الرسمي كاملًا . وكان ذلك في ايام عثمان بعد موت النبي بتسعة عشر عاماً . وما زالت هذه النسخة تعتبر النسخةَ القانونية فلا يجوز الحذف منها ولا الزيادة عليها . وقد راجت قبلها نسخ اخرى لم تعتبر رسمية فأتلفت .

ولقد أحصيت آيات القرآن فكانت ٦٫٢٣٦ آية وأحصيت كلماته فكانت ٧٧٫٩٣٤ كلمة ، وأحصيت كذلك حروفه فكانت ٣٢٣٫٦٢١ حرفاً . والقرآن قلب الدين الاسلامي والهادي الى الجنة ، وهو فضلًا عن ذلك موجز علمي وصكّ سياسي يضمّ بين طياته مجموعةَ قوانينَ وشرائعَ لتدبير شؤون مملكةٍ على هذه الارض .

ومما يلفت النظر أن لمعظم مـــا يحتويه القرآن من حوادثَ تاريخيةٍ امثلةً توازيها في التوراة . ومن رجال العهـد القديم الذي ورد ذكرهم في القرآن : آدم ونوح وابراهيم (ورد ذكره سبعين مرةً) واسماعيـــل ولوط ويوسف وموسى (ورد ذكره في ٣٤ سورةً) وطالوت (شاؤل) وداود وسليمان وايليا وايوب ويونس (يونان) . ولقد ورد ذكر قصة الخليقة وسقوط آدم خمسَ مرات . وورد ذكر قصة الطوفان ثماني مرات ، ومثلها قصة سدوم . والقرآن لا يذكر بتأكيد من رجال العهد الجديد سوى زكريا ويحيى (يوحنا المعمدان) وعيسى ومريم . اما الآيات التي وردت فيهـــا عبارات كهذه « والعَينُ بالعَينْ » والجمل في « سَمّ الخياطِ » و « أفمن أسسَ بُنْيانَهُ على جُرُفٍ هارٍ » و « كلّ نَفْس ذائِقَةُ الموت » فالظاهر انها من الامثال السامية القديمـــة والاقوال المشتركة بين العبرانيين والعرب فهي واردة أيضاً في العهدين القديم والجديد . اما العجائب التي ينسبها القرآن الى عيسى كالقول إنه « يُكلّمُ الناسَ في المهدِ » (آل عمران) وانــــه خَلَقَ « مِنَ الطين كهيئةِ الطير » (آل عمران) فهي من الخوارق التي جاء ذكرهـــا فقط في الاناجيل الابوغرافية (غير المعترف بها) كانجيل الطفولية .

والدين الاسلامي اقرب الى اليهودية القائمة على العهد القديم منهُ الى النصرانية والعهد الجديد . ومع ذلك فقربه من النصرانية كان شديداً بحيث حسبهُ الناس في اول عهده بِدْعةً نصرانيةً جديدة لا ديناً مستقلاً . ومن هؤلاء دانتي في روايته « الكوميدية الالهية » .

ومن ينظر في القرآن يجد ان ترتيب سورهِ جرى على أساس

الطول والقِصَر . فالسور المكيّة وهي نحو تسعين ترجع الى عهد الجهاد في حياة النبي . وهي تمتاز بانها قصيرةٌ موجزةٌ جامعةٌ ذاتُ اسلوب ناريّ ، طافحة باحساسات النبوّة . ومحورها الدلالة على وجدانية الله وصفاتهِ وواجبات الانسان الادبية والحساب الاخير . اما السور المدنية التي نزلت على محمد في عهد الظفر فهي اربع وعشرون وتبلغ نحو ثلث محتويات القرآن . وهي طويلة مفصّلة غنية بمادّتها التشريعية ، وفيها وردت العقائد الدينية واحكام الصلاة والصوم والحج والاشهر الحُرُم . وفيها ايضاً شرائع تحريم الخمر ولحم الخنزير والميسر وأحكام تنظيم المال والحرب وفروض الزكاة والجهاد وقوانينُ مدنيةٌ وجزائية تتعلّق بالقتل والثأر والسرقة والربا والزواج والطلاق والزنى والميراث واعتاق العبيد . اما أحكام الزواج التي يكثر الاستشهاد بها في الغرب فهي في الواقع تُحدّدُ عدد الزواجات وتقلله عما كان عليه . والنَقَدَة الغربيون يحسبون احكام الطلاق اشدّ الاحكام استنكاراً ، والشرائع التي تُعنى بمعاملة العبد واليتيم والغريب اكثرها رفقاً وبراً . ولقد علّم القرآن ان إعتاق العبد نافلةٌ يرضاها الله من الانسان كفّارةً عن ذنوبه .

والقرآن كتاب حي فعال له تأثير بليغ في النفوس وخصوصاً اذا تُلي مُرتلًا بلغته الاصلية . وبعض تأثيرهِ في النفس راجع الى ما هو عليه من حسن السبك وعذوبة السجع والبلاغة وموسيقى الالفاظ والاناقة . ومن العسير أو المستحيل ان يستطيع مترجم نقل هذه المميزات في اسلوب انشائي رائع الى لغة اجنبية . وليس

القرآن كتاباً ضخماً فطوله لا يزيد في الواقع على اربعة اخماس العهد الجديد باللغة العربية . أما تأثير القرآن الديني في الاسلام وسلطته الجازمة في الشؤون الروحية والادبية فناحية أخرى من نواحي عظمته . والمسلمون الذي يحسبون علم الدين والفقه والعلوم الاخرى وجوهاً متفرقة لموضوع واحد يجدون القرآن وافياً بحاجاتهم من كافة النواحي ومن هنا كان عندهم كتاباً مدرسياً يأخذ من مناهله كل طالب للعلم الحر . وما يزال القرآن في الأزهر ، وهو أعظم جامعة اسلامية في العالم ، اساساً لمنهاج الدراسة والتهذيب . وللقرآن فضل كبير على الادب في صيانة اللغة العربية ، إذ لولاه لأصبحت لهجاتها المتعددة لغات مستقلة كما جرى للغات الرومانسية التي كانت في اول عهدها لهجات من اللغة اللاتينية ، فبينما يلقى العراقي اليوم صعوبة في فهم لغة المراكشي العامية فانه لا يعاني جهداً في ادراك لغة مراكش المكتوبة لان اللغة العربية المكتوبة سواء كانت في العراق ام مراكش ام سورية والجزيرة ومصر ام في غيرها من الاقطار العربية الاخرى هي اللغة نفسها التي لها في القرآن انموذج ينسج عليه الكتاب . ولم يكن في اللغة العربية قبل محمد كتاب نثري على الاطلاق . ومن هنا كان القرآن في السابق ، ولا يزال الى يومنا هذا ، المثل الاعلى للاسلوب النثري الرشيق . وليس من شك في ان لغته موسيقية وبليغة ، ولكنها غير شعرية . والكتاب المحافظون يحذون حذوه ويحاولون تقليده ما استطاعوا الى ذلك سبيلًا .

ويميّز العلماء في اصول الدين الاسلامي بين الايمان والعبادات .

أما الايمان فهو الاعتقاد بالله وملائكتـــه وكتبه ورسلهِ واليوم الآخر . واول عقائد الايمـــان واهمها أنه لا اله إلا الله ، وانه هو المهيمن على كل شيء . والواقع ان نحو تسعين في المئة من اصول الدين الاسلامي تدور حول فكرة « الله ». فهو الاله الحق والحقيقة السامية ، الكائنُ منذ الازل والخالق العليم القدير ، الحيّ القيّوم . ولله من الاسماء الحسنى تسعة وتسعون وله مثل هــــذا العدد من الصفات . ولعل هذا هو السبب في ان سبحة المسلم تتألف من تسع وتسعين خرزةً . وتتغلّب صفات القوة والجلال في الله على صفات المحبة . وما الاسلام إلا دين الطاعــة والاستسلام لارادة الله . وربما كانت كلمـــة « أسلم » (سورة الصافّات) التي جاءت في قصة ابراهيم لما حاول ان يقدم ابنه قرباناً هي الاصلُ في تسمية هــــذا الدين بالاسلام . وأقوى ما في الاسلام ، عـــلى ما فيه من بساطة وايمان راسخ بسلطة الله العليا ، هو فكرة التوحيد الجازمة . ولهذا ترى اتباعهُ يتمتعون بقناعة واستسلام لا مثيل لهما بين اتباع الاديان الاخرى . وبسبب هذا يندر الانتحار بينهم .

والعقيدة الثانيـــة في الايمان هي ان محمداً رسولُ الله ونبيهُ ، ونذير قومه ، وخاتمة سلسلة طويلة من الانبياء ، ولهذا فهو اعظمهم وليس محمد إلا بشراً ، في علم الالهيات القرآني . والعجيبة الوحيدة التي جـــاءت عن يدهِ كانت إعجاز القرآن . إلا ان التقاليد والاساطير التي راجت بين العامة قلّدت الرسولَ هالةً من النور الالهي . والدين الاسلامي دينٌ عملي ليس فيـــه ما يصعب ادراكه ، ويكاد يكون خِلواً من التعقيد والالتباس . وليس فيـــه شيء مما

يقابل الاسرار الرمزية المقدسة ، او المراتب الكهنوتية، او فروض الرسامة والمسح والتكريس و « الخلافة الرسولية » .

والقرآن هو كلمة الله ، وآخر الكتب المنزلة . وهو « غير مخلوق » وكل اقتباس منه يُستهلّ بـ « قال تعالى » . وكل ما فيه من تركيب لفظي او تصويري نسخة طبق الاصل عن أمّ الكتاب – اي اللوح الازلي المحفوظ في السماء السابعة . وإذا كانت هناك معجزات فالقرآن اعظمها ، ولو ان الانس والجن اجتمعوا لما استطاعوا ان يأتوا بمثله .

ويضع الدين الاسلامي جبريل في مقدمة الملائكة فهو حاملُ الوحي ، والروحُ القُدُس ، والروح الامين .

والخطيئة ادبية او فرضية . والاثم الوحيد الذي لا يغفره الله هو خطيئة الشرك . « إنّ اللهَ لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ بهِ ويَغْفِرُ ما دُونَ ذلكَ » (سورة النساء) . واقبح ما كان يمقته محمد هو الزعم بان لله شركاء ، وهكذا نزلت السور المدنية وهي ملأى بتهديد المشركين ووعيدهم بيوم الدين . والراجح ان محمداً لم يشمل اهل الكتاب وهم النصارى واليهود في عداد المشركين ، مع ان بعض شارحي الآية الخامسة من سورة البينة يرون غير ذلك .

وأشد اقسام القرآن تأثيراً في النفس تلك التي تُعْنى عنايةً خاصة بموضوع حقيقة الآخرة . ففيها اشارات متتالية الى « يوم الدين » و « يوم البَعْث » و « اليوم » و « الساعة » و « الحاقة » . والآخرةُ التي يصورها القرآن بما فيها من عذاب ولذة جسديين تدل على الاعتقاد بالبعث الجسدي .

اما العبادات في الاسلام فتقوم على خمسة اركان . اولها الشهادة وتتلخّص في العبارة المؤثرة الفعالة « لا إله إلا الله محمد رسولُ الله » . وهذه اول عبارة تطرق أذن الطفل المولود في حضن الاسلام ، وهي آخر ما يقال على اللحد . والمسلم لا يسمع بين مرحلتي الولادة والموت عبارة تُكرّر اكثر من هذه . وهي تَرِدُ في دعوة المؤذن للصلاة فينادى بها مراراً كلّ يوم من على رؤوس المآذن . وقد اكتفى الاسلام ، على العموم ، بهذه الشهادة اللسانية ، فمن قبلها وردّدها اصبح - مبدئياً - مسلماً .

وثاني هذه الاركان الصلاةُ التي يفرض على المسلم الصادق ان يؤديها خمس مرات في اليوم ، مولياً وجههُ شطر مكة ، وذلك عند الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء . ونظرة شاملة الى العالم الاسلامي في ساعات صلواته تريك عدة حلقات من العابدين الواحدة ضمن الاخرى ، وكلها تتمركز حول نقطة واحدة هي الكعبة . وآخر هذه الحلقات تمتدّ من سيارا ليوني في الغرب الى كانتون في الشرق ، ومن توبولسك في الشمال الى رأس الرجاء الصالح في الجنوب .

والصلاة الفرضية كما يحددها الشرع يجب ان تؤدى باتجاهٍ نحو القِبلة ، وعلى طراز واحد من السجود والركوع . وعلى العابد ان يقوم بها وهو في حالة الطهارة ، وان يؤديها باللغة العربية مهما كانت لغته القومية . ولهذه الصلاة شكل ثابت متفق عليه ،وهي تقوم على الاكثار من ذكر الله باكثر مما تقوم على التوسّل والتضرّع . والفاتحة على بساطتها بليغة المعاني ، ويشبّهها بعضهم بالصلاة الربانية

عند النصارى. والمسلم يرددها نحو عشرين مرة في اليوم . فهي اكثر الصلوات المعروفة في الدنيا ترديداً . أما الصلاة التي يقوم بها العابد اختياراً اثناء الليل (التهجّد) فهي في نظر الله نافلةٌ تستحق التقدير المزدوج .

وصلاة الظهر من كل يوم جمعة هي الصلاة الوحيدة العمومية . ولزامٌ على كل ذكر بالغ القيامُ بها . وبعض الجوامع تُفرد قسما خاصاً منها للنساء . وفي صلاة الجمعة يدعو الامام للخليفة أو رأس الدولة . وليس من شكلٍ للصلاة العمومية يفوق صلاة الجمعة جلالاً وبساطةً وتنظيما . ومما يثير النفس إعجاباً ان ترى العابدين منتصبين في المسجد اثناء الصلاة في صفوف منتسقة يمتثلون لقيادة الامام بدقة وخشوع . ومما لا ريب فيه ان هذه الصلاة العمومية كانت اكبر عامل تأديبي في توحيد صفوف المسلمين من أبناء البادية ذوي النفوس الفخورة الابية المشبعة بروح الفردية . وقد غرست فيهم روح المساواة الاجتماعية والشعور الموحّد ورقت فيهم التآخي الديني الذي نشده محمدٌ رابطةً بين المؤمنين بدلا من رابطة العصبية الدموية . وهكذا اصبحت نُظُم الصلاة خطوةً اولى في التدريب العسكري .

وثالث هذه الاركان الزكاة . وقد كانت في الاصل عملًا اختيارياً القصدُ منه إسداء الخير والاحسان الى ذوي الحاجة . لكنها ما عتّمت ان انقلبت فرضاً على العقار بما فيه المال والقطيع والحبوب والاثمار والسِلَع . وقد عهدت الدولة الاسلامية الفتية جبايةَ الزكاة الى عمال في مختلف الولايات . وتولى بيتُ المال

ادارتها لسدّ نفقات الدولة ولمساعدة الفقراء وبناء الجوامع . والمبدأ الذي تقوم عليه الزكاة يقرب من مبدأ العُشر الذي كان عرب الجنوب يؤدّونهُ لآلهتهم قبل ان يُسمح لهم ببيع طيوبهم . ولقد اختلفت مقادير الزكاة على مرّ الايام ، ولكنها كانت على وجه التعديل اثنين ونصفاً في المئة . ولم يُستثنَ من هذا رواتبُ التقاعد في الجندية . ولما تضعضعت الدولة الاسلامية رجعت الزكاة الى مبدأها الاصلي القائم على الوجدان .

ورابع هذه الاركان صومُ رَمَضانَ . ومع ان صيامات التوبة فُرضت في القرآن عدةَ مرات فصومُ رمضانَ لم يأتِ ذكرهُ إلا مرةً واحدة . ويَتحتّمُ الامتناعُ فيه عن الطعام والشراب من الفجر حتى غروب الشمس . وقد عُرفت حوادثُ استَعْمَلَت فيها الحكوماتُ والجماعاتُ في البلاد الاسلامية العنفَ مع المسلم غيرِ الصائم . وليس لدينا دليل يُثبت ان عرب الجاهلية كانوا يمارسون الصوم . إلا ان هذه العادة كانت مَرْعِيةً بين اليهود والنصارى في اوائل عهدهم .

أما الحجّ فهو الركن الخامس والاخير ، ويُفرض بموجبه على كلّ مسلم ومسلمة زيارةُ البيت الحرام مرةً واحدة في العمر في وقت معين من السنة ، إذا استطاعا الى ذلك سبيلاً . وعلى الحاج ان يكون في حالة الطهارة المرموز اليها بلبس إزار ، وهو قطعة واحدة من قماش غير مَخِيْطٍ ،وان يُراعي (علاوةً على المحظورات المفروضة في صوم رمضان ، كعِيافِ الجماع) انظمةً خاصة تحرّم إهراق الدماء والصيد وقلع النباتات . والحج الى الاماكن المقدسة

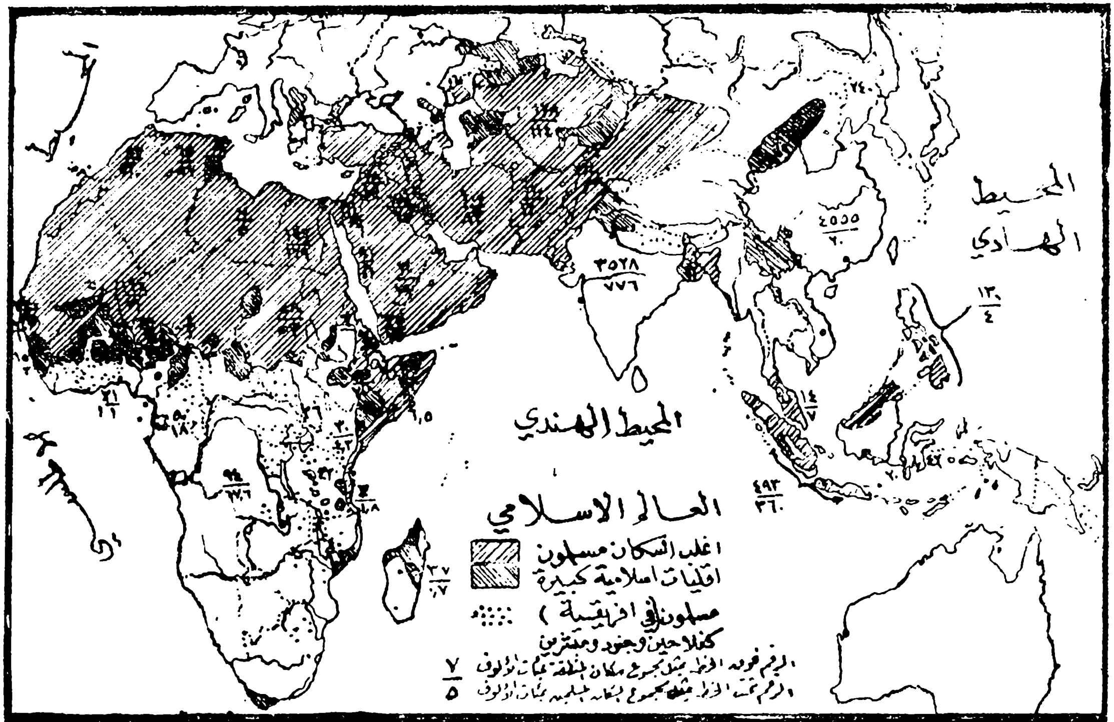
كان عادةً سامية ً قديمة ً ظاهرةً آثارُها في التوراة .

وجماعات الحجاج من السنغال وليبريا ونيجريا تزداد عـــدداً بمواصلة الرحلة وهي تجتاز اواسط افريقيا متّجهة ً شرقاً . وبعض الحجاج يسير مشياً على الاقدام وغيرهم يركب الابل . ومنهم من يعوّل على الاتجار في طريقه وغيرهم يعتمد الاستجداءَ . وكثير من الحجاج يموتون عـــلى قارعة الطريق فيُعَدّون شهداء . اما الذين ينجون بارواحهم فيبلغون في النهاية احـــدَ مرافيء البحر الاحمر الغربية ، ومنه يُنقلون بقوارب الى الشاطىء المقابل . على ان قوافل الحـــج الاربع الكبرى تجيء من اليمن والعراق وسورية ومصر • ولقد كانت كلّ من هذه البلدان فيما مضى ترسل كلّ عام على رأس قافلة حجيجها مَحْمِلًا يرمز الى مكانتها . والمحمِلُ يُغطى بنسيج من الحرير وافر الزينة والزخرف يُحمل على جمل يُقاد باليد دون ان يركبه احد.ولم يبقَ في الاعوام الاخيرة ما يشبه بزهوهِ وابّهتهِ المحاملَ القديمة إلا المحملُ المصري .

ولقد بلغ متوسط عدد الحجاج السنوي بعد الحرب العالميـــة الاولى ١٧٢،٠٠٠ حاجاً .وكان عددهم لعام ١٩٠٧ حسب الاحصاء التركي ٢٨٠،٠٠٠ حاجاً . وملقّة ترسل عادةً اكبر عدد من الحجاج في كل عام ويبلغ نحو ٣٠،٠٠٠حاجاً.ولقدظلّ الحج على كرّ العصور اكبرَ عامل موحّد في الاسلام ، واقوى رابطة بين مختلف طبقات المؤمنين . وهو الذي جعـل من كل مسلم قادر رحالةً ولو مرّةً في عمره . واجتماعات كهذه لها تأثير اجتماعي فعال بين جماعات المؤمنين الذين يأتون من اقطار المعمورة الاربعة . فالحج اتاح للزنوج والبربر

والصينيين والفرس والسوريين والـــتراك والعرب – الفقير منهم والغني والرفيع والوضيع – ان يجتمعوا ويتآخوا على اساس الايمان المشترك . والحق ان الاسلام قد وُفق اكثر من اديان العالم جميعاً الى القضاء على فوارق الجنس واللون والقومية وخاصةً بين أبنائه . ولا شك في ان الاجتماع في موسم الحـــج له الفضل الاكبر في تحقيق هذه الغاية . وعلاوةً على ذلك فقدوفّر الحج الفرصَ السانحة لنشر الدعاوة والافكار المذهبية بين جماعات من الناس قادمين من بلدان مختلفة لا تربطها بعضها ببعض وسائـــلُ الاتصال الحديثة ، وليس للصحافة فيها صوت فعال .

وهناك فرض آخر تعتبره الخوارج ، وهي احـــدى الفرق الاسلامية ، ركنا سادساً وهو الجهاد . واليه يعود الفضل في توسع الاسلام توسعاً لا مثيلَ له جعل منه دولةً عالميــة . ومن واجبات الخليفـــة الرئيسية ان يظلّ عاملاً في توسيع نطاق دار الاسلام الجغرافي على حساب دار الحرب . إلا ان فكرة الجهاد لم تلقَ في السنين المتأخرة تأييدَ العالم الاسلامي . ذلك بأن معظم المسلمين يخضعون اليوم لحكومات اجنبية كثيرة يصعب مقاومتها . ولقدكان الخليفةمحمدرشادآخر من وجهالىالعالم الاسلامينداء للجهاد وذلك في خريف سنة ١٩١٤ . غير انه أخفق في محاولته إخفاقاً تاماً .



المحيط الهادي
المحيط الهندي
العالم الاسلامي
اغلب السكان مسلمون
اقليات اسلامية كبيرة
مسلمون في افريقية (كفلاحين وجنود ومبشرين)

سير الإسلام

إن أهمّ حادثتين في اوائل العصور الوسطى كانتا مهاجرة الطوطون التي أسفرت عن انحلال الأمبراطوريّة الرومانيّة ثمّ الفتوحات العربية التي قضت على دولة الفرس وزعزعت أركان الامبراطوريّة البيزنطيّة . ولو تجرأ أحدهم على التنبّوء في اوائل القرن السابع المسيحي بظهور قوّة لم يسبق لها نظير تقوم في مجاهل الجزيرة العربيّة التي لم يكن لها قبلًا شأن تاريخي وتدفع بنفسها على الدّولتَين العالميّتين الوحيدتَين في ذلك العصر فتحلّ محلّ الواحدة – السّاسانيّة – وتجرّد الاخرى – البيزنطيّة – من أغنى ولاياتها، أقول لو تجرّأ احدٌ على مثل هذه النبوءة لعدّهُ الناس مجنوناً. ولقد حدث هذا بعينه . اذ بعد وفاة النّبي العربي تحوّلت الجزيرة من دار عاقر الى أخرى ولود ، فأنجبت أبطالاً قلّ أمثالهم في العالم . فحملات خالد بن الوليد وعمرو بن العاص في العراق والشام ومصر

تُعدّ من أروع الحملات وادقها تنفيذاً في تاريخ الحروب وتحاكي حملات نابوليون وهنيبال والأسكندر.

وقد ساعد العربَ في فتوحاتهم عواملُ عديدة. فالحروب المتواصلة بين البيزنطيين والساسانيّين لمدة أجيال فتّت في ساعد الفريقين وأضعفت قواهما. والضرائب الباهظة الناتجة عن هذه الحروب المفروضة على رعايا الدولتين، أخمدت من ولائهم. واستيطان بعض القبائل العربية الشامَ والعراق، والانشقاق في الكنيسة المسيحية، واضطهاد الكنيسة البيزنطية المنشقّين عنها — كل هذه مهّدت السبيلَ لتلك الفتوحات. وقد رحب سكان البلاد الساميّون في سورية وفلسطين والحاميّون في مصر بالعرب واعتبروهم أقرب نسباً اليهم من حكامهم الأغراب الطغاة. وفضلاً عن ذلك فالجزية التي فرضها الفاتحون كانت أقل من التي جباها سابقوهم، في حين سمح المسلمون للمغلوبين على أمرهم بممارسة دينهم بحرية اوسع وطمأنينة اكبر. وهكذا استيقظ الشرق السامي من سُباتهِ الطويل وامتلك روعه بعد رضوخه للغرب الاوربي مدة الف سنة. ولا غرو فقد كان العرب عنصراً غضاً ملتهباً بالحماسة ومتشرّباً روح الفتح والانتصار، ومستخفاً بالموت بدافع إيمانه الجديد.

ويرجع انتصار العرب العجيب ببعض أسبابهِ إلى استخدامهم فنوناً حربيّة تصلح لفلوات غربي آسيا وشمالي افريقيا، والى اعتمادهم على الخيالة والهجانة التي لم يُحْسن استخدامَها الرومانُ. وكان الجيش العربي ينقسم الى فرق خمس هي: المقدمة، والقلب، والميمنة، والميسرة، والساقة. وتحمي الخيالةُ الميمنةَ والميسرة. وكان هذا التقسيم قائماً

على اساس الوحدة القَبَلية . فكانت كل قبيلة تتخذ لواء لها ، وهو عبارة عن نسيج مرفوع على قناة يحملها أشجعهم . اما شعار النبي فكان العُقاب . وكان المشـــاة يستعملون القوس والنّشاب والمِقلاع واحياناً السيف والترس . وكانوا يحملون السيوف في اغماد يشدّونها الى الكتف اليمنى . اما الحربة التي جاءت من الحبشة فكان ظهورها متأخراً . وكان سلاح الفارس الرئيسي الرمح ، وهو مع القوس والنشاب قِوامُ السلاح القومي . اما عدة الدفاع فلم تتعدّ الترس الذي كان اخف من الترس البيزنطي .

وكان نظام القتال بسيطاً ساذجاً يتألف من الصفوف في ترتيب متراص . وكانت المعركة تبتدئ بمنازلة فردية للابطال الذين كانوا يتقدمون من مراكزهم في الفرق ويطلبون الخصم للبراز . وكان عطاء المحارب العربي يزيد على عطاء المحارب الفارسي او البيزنطي ، ناهيك انه كان ينال قسما من الغنيمة . ولم تكن الجندية خير مهنة في نظر الله واشرفها فحسب ، بل اوفرها دخلا ايضاً . والحق ان قوة الجيش العربي لم تقم على تفوق سلاحه وحسن تنظيمه ، بل على قوة معنوياته التي انبثق معظمها من الدين ، وعلى احتماله الصعوبات التي اعتادها في الصحراء ، وعلى سرعته بداعي استعماله الجملَ وسيلة للنقل .

وتكاد المراجع العربية تنظر الى الحركة الاسلامية كحركة دينية بحتة ، فهي لا تعرض لمسبباتها الاقتصادية . ومن جهة اخرى يزعم بعض الغربيين ان الفاتحين المسلمين عرضوا القرآن في يد والسيف في اخرى . غير ان الواقــع هو ان المسلمين عرضوا خِياراً ثالثــاً وخصوصاً لليهود والنصارى خارج الجزيرة ، وهو الجزية . وبهــذه

المناسبة نزلت الآية : « قَاتِلُوا الذينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الذينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ » (سورة التوبة) .

وليس من شك في ان الاسلام جاء بشعار جديد التفّت حوله أقوام لم تجتمع من قبل ، وان الدين كان اكبر عامل في خلق تلك الروح المتحفزة التي أبداها المسلمون . ولكن ذلك ليس كافياً وحده لتعليل الفتوحات . فكثرة الجيوش العربية كانت تتألف من البدو الذين خرجوا من ديارهم المجدبة الى الأمصار الخصبة في الشمال بدافع الحاجة الاقتصادية لا بدافع الغَيْرة على الدين . ولعل منهم من كان يحلم بالجنة ونعيمها .إنما الكثير منهم كان يحلم بالتمتع بخيرات حضارة الهلال الخصيب ونعمها على ما كانت الحال مع القبائل السامية الاخرى من قبلهم . فالتوسع الاسلامي اذاً كان آخر حلقة من حلقات الانسحاب التدريجي من الصحراء المجدبة الى الهلال الخصيب الملاصق ، أي آخر هجرة سامية كبرى .

أما مؤرخو الفتوحات الاسلامية ، وكلهم متأخرون ، فانهم نظروا اليها على ضوء ما عقبها من الحوادث ، وصوروها لنا وكأنها خطط أحكمَ وضعها الخلفاء الاولون ، وفي مقدمتهم ابو بكر وعمر . على ان التاريخ يكاد لا يرينا ابداً حوادث هامة أدرك بادئوها الطريق التي تتخذها ، والشأن الذي تؤول اليه . فالفتوحات الاسلامية اذاً لم تكن في بدء عهدها نتيجةً لخطة مرسومة ، بل

كانت عبارة عن غزوات مصدرها الروح المتحفزة للقتال – القتال الذي حرّم الاسلام ممارسته بين القبائل المسلمة المتآخية – وغايتها الاولى الغنيمة لا الفتح الدائم والاستعمار . بيد انه بتتابع الايام أفلتت هذه الحركة من يد اصحابها وازدادت قوة ونشاطاً بالظفر بعد الظفر والانتصار بعد الانتصار .وعندئذٍ بدأت الحملات المنظمة، وأصبح تأسيس الدولة العربية نتيجة محتّمة . وُقصارى القول إن هذه الدولة كانت نتيجة منطقية لمجرى الحوادث لا لخطة أو تدبير سابق .

والتعليل الديني للفتح الاسلامي يقابل تعليل تاريخ العبرانيين في العهد القديم وفلسفة التاريخ المسيحي في العصور الوسطى . وهو فضلًا عن ذلك يستند الى تفسير لغوي (فيلولوجي) خاطيء .فلفظة « إسلام » يمكن استعمالها لمعان مستقلة ثلاثة : أولها الدين وثانيها الدولة وثالثها الثقافة . فالاسلام ، كدين ، يختلف عن اليهودية والبوذية القديمة، ويتفق مع النصرانية في كونه ديناً تبشيرياً فعالاً . والاسلام ، كدولة ، (وقد عقب الاول) هو الذي فتح الأقاليم الشمالية . فالفتوحات إذاً تمت بفضل الدولة لا الدين . وخروج العرب من جزيرتهم ومفاجأتهم للعالم كأعضاء ثيوقراطية قومية كان في الدرجة الأولى فوزاً للعروبة ، إذ لم يدخل السواد الأعظم من أهل سورية والعراق وفارس في دين الاسلام حتى القرن الثاني والثالث للهجرة . وكان دخولهم في الأصل بدافع المصلحة كي لا يدفعوا الجزية وليصبحوا في عداد الطبقة الحاكمة . أما الاسلام ، كثقافة ، فقد تطوّر تدريجياً بعد الفتح على أساس حضارات

السّريان الآراميين والفرس واليونان التي سبقته . وهكذا لم يستعد الشرق الأدنى بالاسلام ملكه السياسي السابق فحسب ، بل استعاد ايضاً ثقافته السابقة الرفيعة .

وقبل ان يتدفق العرب من جزيرتهم ويحتلوا بلاداً أخرى كان لزاماً عليهم ان ينظروا في شؤون أنفسهم ، وان يجابهوا في الحال مشكلة ً معقدة هي مشكلة خلافة الرسول .

كان للرسول وهو في قيد الحياة وظائف عدّة . كان هو النبي والمشترع والامام والقاضي وأمير الجيش ورئيس الدولة المدني . ولكن محمداً مات فبرزت مشكلة الخلافة على الوظائف التي شغلها باستثناء الوظيفة الروحية التي لا يستطيع أحد ان يخلفه فيها ، بوصفه خاتمَ الرسل والنبيّين .

مات الرسول عن ابنة واحدة - فاطمة زوج علي -- دون ان يُعقِبَ ذكوراً . والمشيخة العربية حينئذٍ لم تكن وراثية بل شبه انتخابية على أساس الأقدمية في السنّ . ومن هنا جاز لنا ان نفترض انه ولو لم يحتسب النبيّ بنيه لبقيت مشكلة الخلافة دون حلّ . ثم أن النبيّ لم يعيّن خليفتهُ تعييناً واضحاً . فالخلافة اذاً اقدم مشكلة جابهها الاسلام ولا يزال يجابهها الى اليوم . ففي آذار سنة ١٩٢٤ خلع الأتراك الكماليون الخليفة عبد المجيد الثاني وألغوا الخلافة العثمانية . وكان ذلك بعد ستة عشر شهراً من تقويضهم للسلطنة . ومنذ ذلك اليوم انعقدت عدة مؤتمرات اسلامية في القاهرة ومكة للبحث في امر الخلافة ، ولكن دون جدوى . ولقد صدق الشهرستاني عندما قال « وأعظم خلاف بين الامة خلاف الامامة اذ ما سُلّ في

الاسلام على قاعدة دينية مثلُ ما سُلّ على الامامة في كل زمان » .

وعلى اثر وفاة النبي ظهرت احزاب متباينة كما يحدث في اي حالة يتداول الناس فيها شأناً خطيراً . فادعى المهاجرون المكيون انهم أولى الناس بالخلافة لانتسابهم الى قبيلة النبي ولكونهم اول من صدق بدعوته . ومن جهة اخرى ادعى الانصار المدنيون انه لولا حمايتهم النبيّ والاسلام الغض لهلك النبي وهلك الاسلام . غير ان الفريقين اتحدا فيما بعد وصارا يُعرفان بالصحابة . ثم جاء أصحاب النص والتعيين وحجتهم ان الله ورسوله ما كانا ليتركا أمر المسلمين الى رغائب المنتخبين وأهوائهم ، واذاً فلا بد انهما قد تدبرا امرهم وعيّنا من يخلف النبي ، وانّ علياً ، ابن عم النبي وزوج ابنته فاطمة ، واحد السابقين الى الايمان بدعوته ، هو الخليفة الشرعي ، وانه تعين كذلك بنص آلهي . وهكذا اعتقد هؤلاء بالحكم عن طريق التفويض الألهي لا عن طريق المبايعة والانتخاب . وكان هناك حزب آخر قوامه الامويون أشراف قريش الذين قبضوا على زمام السلطة والثروة في الجاهلية وقد جاؤوا معلنين اولويتهم بالخلافة ، رغم كونهم آخر من اعتنق الأسلام من هذه الاحزاب .

ثم ان اول هذه الاحزاب فاز بالخلافة ، فبايع زعماء القوم المجتمعون أبا بكر . وكان أبو بكر شيخاً تقياً ومن اول الذين صدقوا النبي وآمنوا بدعوته . وهو أبو عائشة ، احدى ازواج النبي. ثم تبع ابا بكر في الخلافة عمرُ وعثمان وعلي. وهؤلاء الاربعة هم الخلفاء الراشدون . وفي مدة خلافتهم كانت حياة النبي نبراساً وهاجاً يضيء سبيل اعمالهم ، ولا غرو ، فقد ربطتهم بالنبي أواصر

الصداقة والقربى .

ويقول المؤرخون العرب إن الجزيرة ، ما عدا الحجاز ، ارتدت عن الاسلام على أثر وفاة النبي . اما الواقع فهو ان المقاطعات التي أسلمت في حياة النبي وخضعت لسلطته لم تتجاوز على ما نعتقد ثلث الجزيرة . وذلك لصعوبة المواصلات ، ولعدم قيام الدعوة المنظمة ، ولقصر المدة الواقعة بين البعثة ووفاة النبيّ . والحجاز نفسه لم يسلم بأكمله حتى سنة أو سنتين قبل وفاة النبي. فحروبَ « الردة » التي قام بها ابو بكر اذاً لم يكن المقصود من اكثرهاأرجاع المرتدين الى حظيرة الاسلام – كما يزعم المؤرّخون – بل ادخال العرب غير المسلمين في حظيرته.وفي هذه الحروب اظهر خالد بن الوليد ما اظهر من براعة في القيادة وشجاعة في القتال . وبذلك توحدت الجزيرة تحت راية الاسلام وتأهبت للزحف على ما حولها . وكان لا بدّ لها أولاً من ان تفتح نفسها قبل محاولتها فتح البلاد الأخرى .

وجاء دور سورية اولاً ، وكانت اذ ذاك في يد البيزنطيين الذين ورثوها عن الرومان . وكان قد اغتصبها هؤلاء من خلفاء الاسكندر الذي اكتسحها قبل الفتح العربي بنحو ألف عام . وقد أدرك قوّاد البيزنطيين ان الغزاة من الجزيرة الذين بدأوا يعبرون الحدود ويتوغلون الى حدٍّ لم يعهدوه لم يكونوا غزاة عاديّين كالذين عهدوهم من قبل . وما لبثوا ان اكتشفوا عدوّهم فاذا فيه نشاط جديد واذا لديه سلاح جديد . وكان سلاحهم هذا سرعةَ حركتهم . فالجمل العربي جاء بمثابة عنصر جديد فعّال في الحرب.ولما جاء خالداً « سيفَ الله » الأمرُ بنجدة الجيوش العربية

التي كاد يتغلب عليها البيزنطيون امتطى مع لفيف من المحاربين المدرّبين الابلَ وراح يطوي الصحراء طياً من جنوب العراق الى ان ظهر بغتة بجوار دمشق العاصمة السورية . وقد حمل المحاربون ماءهم في القُرَب واحتاطوا لعطش الخيل بخزن الماء في بطون الرّواحل . فكانوا ينحرون هذه الرواحل ويقتاتون بلحومها ويرتوون وترتوي خيولهم بما حوت اجوافها من ماء . وبعد اسبوعين من مغادرة العراق وقف خالد أمام ابواب دمشق متقلداً زمام قيادة القوات العربية بأجمعها .

واذعنت دمشق بعد حصار طال ستة اشهر وهي التي كانت الروايات تعدّها أقدم مدينة في العالم ، والتي قُدّر لها ان تصبح فيما بعد عاصمة للدولة الأموية . أما البلدان الأخرى فسقطت أمام الفاتحين سقوط أوراق الخريف عند هبوب الريح .غير ان « هرقل » امبراطور الدولة البيزنطية بعث بجيش مؤلف من خمسين الف مقاتل ابتغاء صد المسلمين . فجابهم خالد بنصف ذلك العدد في وادي اليرموك ، احد روافد الاردن ، في ٢٠ آب سنة ٦٣٦ . وكان يوماً شديد الحرّ عصفت فيه الرياح فسفَتِ الغبارَ والرمال ضباباً كثيفاً أعمى عيون البيزنطيين . ويظهر ان القيادة العربية اختارت هذا اليوم بحذاقة فائقة اذ اعتاد العرب هذه الحوادث الجوية وعرفوا كيف يحتاطون لها في حين لم يعتدها البيزنطيون . فلما هجم أبناء الصحراء على البيزنطيين لم يُغنِ دفاعهم عنهم شيئاً على الرغم من صلوات قسسهم وتسابيحهم ووجود الصلبان في صفوفهم . فغدا انكسارهم مذبحة . ولم يقف حاجز في سبيل الجيوش العربية ،

فاستمرت في سيرها حتى بلغت جبال طورس ، وهي تخوم سورية الطبيعية في الشمال .

وقد أكسب هذا الفتح « اليسير » (على ما وصفه البلاذري) الدولةَ الاسلامية الفتية هيبة ووقاراً في أعين الناس ، وزادها اعتداداً بنفسها وبنصيبها في هذا العالم ، خاصة وقد نالت منطقة حربية هامة اغتصبتها من يد أشد دول ذلك العصر . فأصبحت سورية آنئذٍ مركزاً استطاع المسلمون الزحف منه الى ارمينية وشمالي العراق وبلاد الكُرج وأذربيجان ومهاجمة آسيا الصغرى عدة مرات في السنين التي تلت .

وحالف النصر المسلمين عندما توجهوا الى الفرس واصطنعوا الأساليب الحربية التي ذكرنا . ففي سنة ٦٣٧ وفي يوم اشتدت عواصفه واكفهرّ جوّه بالغبار كيوم موقعة اليرموك اشتبك العرب مع الفرس ، فمزقوا شملهم ، واستولى على الفرس الذعر فتشتتوا ، وأمست سهول العراق الخصبة غربي دجلة لقمةً سائغة للفاتحين . وتابع المسلمون تقدمهم بنشاط وعبروا دجلة عند احدى مخاضاته [1] على الرغم من ارتفاعه وطغيانه بسبب سيول الربيع ، دون ان تلحقهم اي خسارة في النفوس . ورحّب اهل العراق – كما رحّب أهل سورية – بالفاتحين لان الفريقين اعتبرا اسيادهما الغابرين غرباء ممقوتين ، ولأن الثقافتين اليونانية والفارسية اللتين فُرضتا عليهما لم تتأصلا في نفوسها . وفرّ كسرى مع جنوده الفرس من عاصمته

---

(١) جمع مَخاضة (بفتح الميم) : موضع الخوض في الماء .

المدائن دون دفاع . فدخل المسلمون اعظم عاصمة في غربي آسيا ظافرين . وبقتل كسرى بيد احد رعيته طمعاً في جواهر تاجه قضى اخر عاهل لإمبراطورية ازدهرت مدة اثني عشر قرناً . ولم تنهض تلك الامبراطورية ثانيـة إلا بعد ثمانية قرون من ذلك التاريخ .

ولاول مرة واجه ابناء الصحراء القاحلة نعيم الحضارة وبذخها . فمقابلة القصر الملكي ومجالسه الرحبة وقناطره البديعة ورياشه الفاخر باكواخ الطين في الجزيرة بهرت البدوي اول الامر وأدهشته . غير انه بدأ يألف هذا كله تدريجياً ، لتبدو منـــه في اثناء ذلك امور مضحكة . فظن الكافور ملحاً واستعمله للطبـــخ ، وسارع الى استبدال الفضة بالذهب لمعرفته بالاولى وجهله بالثاني . ولما لام بدوياً اصحابه لبيعه بنت احد الاعيان التي كانت نصيبه من الغنيمة بألف درهم ليس غير اجاب بانه لا علم له بعدد فوق العشر مئة .

حتى اذا تجاوز العرب العراق وتوغلوا في فارس جابهوا مقاومة متزايدة . ولم يستتبّ لهم الفتح إلا بعد عشر سنين تقريباً اذ كانت بلاد الفرس آرية لا سامية ، وكانت ذات سيادة وذات قوة حربية منظمة قاتلت الرومان طوال اربعة قرون . ولكنها ُغلبت اخيراً على امرها . وهكذا وجد العرب انفسهم على حدود الهند سنة ٦٤٣ .

وفيما كان هذا النصر يطّرد في الشرق كانت موجة الاسلام تمتد نحو الغرب . وتفصيل ذلك ان العرب في بدء عهد توسعهم نظروا الى مصر نظرة ملؤها الشهوة ، لموقعهـا الحربي الخطير ، ومتاخمتها لسورية والحجاز ، ولكونها ممراً لأفريقية الشمالية ، ولجودة تربتها التي جعلت منها اهراء للقسطنطينية ، ولأن عاصمتها الاسكندرية

كانت قاعدة للاسطول البيزنطي . حتى اذا كانت سنة ٦٣٩ نهض عمرو بن العاص بهذا العبء ، وفي نفسه الرغبة في مباراة خالد ، فاصطحب اربعة الاف فارس ، واتخذ الطريق من فلسطين الى مصر محاذياً الشاطيء ، وهي الطريق التي سلكها من قبلُ ابراهيمُ وقمبيز والاسكندر وانطيوخوس والعائلة المقدسة وفيما بعد نابليون وجمال باشا ، وهي الطريق العالمية الرئيسية في العصور القديمة .

وهنا أعاد العرب تمثيل رواياتهم بعينها : — تشتيتٌ فحصار ثم انتصار ترافقه صيحة « الله اكبر » . وفي هذه الاثناء كان حصن بابليون — وهو بأزاء جزيرة الروضة — قد سقط .

وتضخم جيشُ عمرو بالامداد اللاحقة به من الجزيرة فبلغ عشرين الف مقاتل . وأفاق عمرو يوماً وسرّح طرفه فرأى الاسكندرية ، عاصمة مصر واهم مرافئها ، محاطة بالاسوار المنيعة والابراج . فمن جهة ارتفع عمود السواري الذي حوى فيما مضى هيكل الاله سرابيس ومكتبة الاسكندرية العظمى ، ومن أخرى لاحت كاتدرائية مار مرقس الجميلة التي كانت فيما مضى الهيكل الموسوم بقيسارية والذي بدأت تشييده كليوبترة إكراماً ليوليوس قيصر واتم بناءه اوغسطس . وامتدت في الغرب المسلّتان المصنوعتان من غرانيت اسوان الاحمر والمنسوبتان لكليوبترة أيضاً (والواقع ان مشيدهما تحتميس الثالث ، حوالى ١٤٥٠ ق . م .) وهما اللتان تزين الواحدة منهما اليوم شاطيء التيمس في لندن والاخرى احدى الحدائق العامة في مدينة نيويورك . وفي جوف البحر على طرف اللسان تعالى الفنار الذي كان يعكس شعاع الشمس في النهار ويشع

بناره في الليل – وكان من عجائب الدنيا السبع .

وكانت الاسكندرية تفاخر بحامية تبلغ الخمسين الفاً يعضدها الاسطول البيزنطي وقاعدته في مينائها . اما العرب فكانوا دون البيزنطيين عدداً وعدة ، ولا مراكب لهم ولا مجانيق ولا معين يؤمن حاجتهم الى الطعام .

ولكن بعد سنة دخل على عمرَ في المدينة رسول يحمل رسالة البشرى ومؤداها : « اما بعد فاني فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير اني اصبت فيها اربعة آلاف منية باربعة آلاف حمام واربعين الف يهودي عليهم الجزية واربعمئة ملهى للملوك » . عندئذ ضيّف عمر رسول قائده بالخبز والتمر . وأقام صلاة شكر بسيطة موقّرة في مسجد النبي .

ثم ان الموقع الذي نصب عليه عمرو خيامه في هيليوبولس اصبح العاصمة الجديدة التي عرفت بالفسطاط والتي لا تزال قائمة وتعرف الآن « بمصر العتيقة » . وهنا شاد عمرو اول مسجد في مصر ، وهو مسجد بسيط رُمم عدة مرات ولا يزال قائماً .

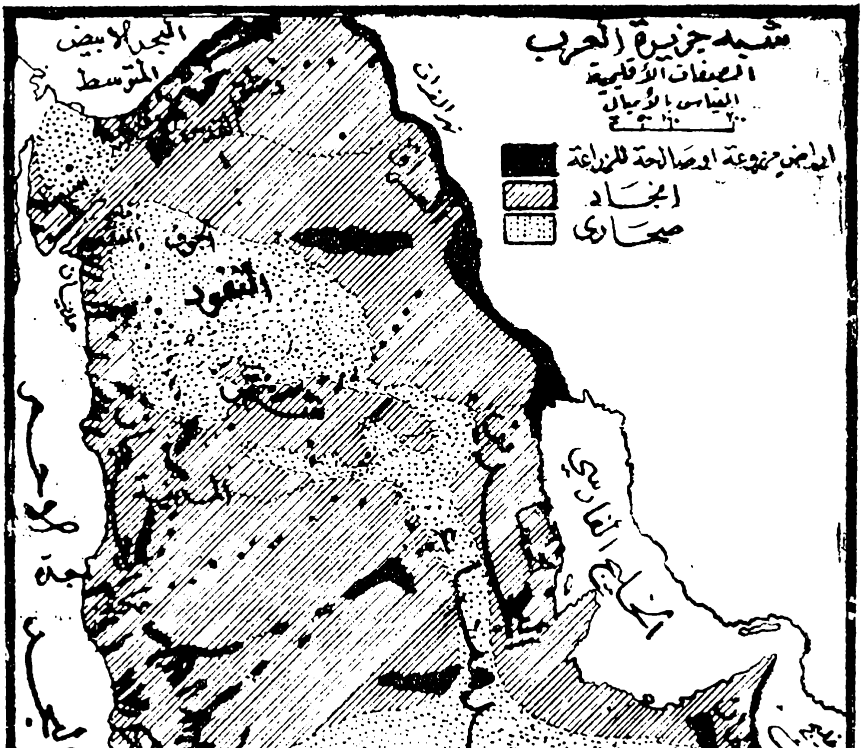
أما قصة احراق مكتبة الاسكندرية التي يتداولها الناس عن عمرو فمصدرها الخيال لا الحقيقة . وخلاصتها أن عمراً ابقى بأمر الخليفة أتاتين[1] حمامات الاسكندرية مشعلة طوال ستة اشهر بمجلدات مكتبتها . والواقع ان مكتبة البطالسة احرقها يوليوس قيصر سنة ٤٨ ق . م . وأن مكتبة اخرى نشأت من بعد يشار اليها باسم

---

(١) جمع اتون : وهو موقد نار الحمام .

« المكتبة الصغرى » دُمرت سنة ٣٨٩ م . على اثر امر اصدره الامبراطور الروماني ثيودوشيوس . واذن فلم يكن هنالك مكتبة تستحق الذكر عند الفتح العربي. ولم يروِ هذه القصة احد من المؤرخين في ذلك الزمن . واول من رواها هو عبد اللطيف البغدادي المتوفى سنة ٦٢٩ هـ . (١٢٣١ م .) ولا علم لنا بالسبب الذي حداه الى اختلاقها . غير ان بعض المؤرخين اللاحقين اقتبسوها عنه وتزيدوا فيها . ثم ان اكثر الكتب في ذلك الزمن كانت من الرّق الذي لا يحترق .

وبسقوط مصر اصبحت المناطق البيزنطية الواقعة في غربيها بلا حامٍ . فهبّ عمرو وفرسانه اليها مقتحمين ، رغبةً منه في اتقاء خطر قد يجيء منها . وسرعان ما اخذ عَلَم النبي يخفق في طرابلس بلاد البربر ليقدر له بعدُ ان يتجاوزها الى مدى أبعد .



شبه جزيرة العرب
اراضي مزروعة او صالحة للزراعة
انجاد
صحارى
البحر الابيض المتوسط
النفود
الخليج الفارسي
الربع الخالي
الاحقاف
مهره
عدن
خليج عدن
افريقيا

الخِلافَة

من الظواهر التي رددها التاريخ قصة شعب فتيّ خشن ساذج يتغلب على شعب قديم ذي حضارة عريقة ، ثم ما يلبث ان يفتتن ببهجة هذه الحضارة وينغمس في ملذاتها فتولّد فيه ليناً يؤول اخيراً الى انحطاطه . ونحن نجد هذه الظاهرة عينها في قصة العرب الخارجين من الجزيرة .

لما افتتح العرب الهلال الخصيب وفارس ومصر امتلكوا أقدم مراكز الحضارة في العالم . فاقتبسوا عنها العلوم والفنون الجميلة من مثل فن البناء والفلسفة والطب والرياضيات والآداب وفنّ الحكم اذ لم يكن لديهم شيء منها . وكانت قابليتهم للاقتباس شديدة . وكان حبهم للاستطلاع عاملاً دفع بقواهم العقلية الكامنة الى ان تنقلب قوى فعالة . وبمعونة اخوانهم من أبناء البلدان المفتوحة استطاعوا استثمار ذلك التراث الفكري والثقافي والتبحّر

فيه وتكييفه بما يلائم عقليتهم . ففي المدائن ودمشق وبيت المقدس والاسكندرية شاهدوا أعمال البنّاء والصانع والصائغ فأعجبوا بها ونسجوا على منوالها .

فلم تكن « الحضارة العربية » اذاً عربية في اصلها او تركيبها الأساسي او مزاياها القومية الرئيسية . إذ ان مساهمة العرب الأصليين الخالصة في هذه الحضارة لم تتعدّ علم اللغة وبعض النواحي الدينية . وكان الشاميون والفرس والمصريون وغيرهم من مسلمين ونصارى ويهود طيلة عصور الخلافة في مقدمة من رفع نبراس الثقافة والعلم عالياً . وكان شأنهم في ذلك شأن اليونان من قبلهم عندما خضعوا للرومان سياسياً وأخضعهم هؤلاء عقلياً وروحياً . واذاً فالحضارة العربية الاسلامية في اساسها آرامية – يونانية وفارسية ارتقت وتطورت تحت لواء الخلافة وعبّرت عن نفسها بواسطة اللسان العربي . ولقد جاءت باعتبار آخر تكملة منطقية للحضارة السامية القديمة العريقة في الهلال الخصيب التي أبدعها البابليون والاشوريون والفينيقيون والاراميون والعبرانيون .

وتتجلى لنا حقيقة الرجال الذين انجبتهم الجزيرة العربية في اسلامها حين نحاول درس حياة ابي بكر الذي تولى امور المسلمين من سنة ٦٣٢ الى ٦٣٤ وحياة عمر الذي تولى خلافتهم من ٦٣٤ – ٦٤٤ . عاش ابو بكر ، قاهر المرتدين وموحّد الجزيرة تحت راية الاسلام ، حياة ساذجة بسيطة ملؤها الوقار . وفي ستة الاشهر الاولى من خلافته القصيرة كان يغدو كل يوم من السُنح ، حيث قطنَ وزوجه حَبيبة في بيت وضيع ، الى عاصمته المدينة . ولم يكن

يتقاضى راتباً لانه لم يكن للدولة اذ ذاك دخل يستحق الذكر . وكان يدير جميع شؤون الدولة في صحن المسجد النبوي .

أما عمر ، الخليفة الثاني ، فكان رجلاً جلداً نشيطاً ومثالاً حياً للبساطة والاقتصاد . ومن صفاته انه كان طُوالاً أصلع شديد الأدمة . وقد أعال نفسه في ابان عهد خلافته بالمتاجرة . وكانت حياته – شأن حياة اي شيخ بدوي – بعيدة عن الأبهة وحب التظاهر . وتجعل الروايات الاسلامية اسمه ارفع اسم في اوائل الاسلام بعد النبي . وقد مجّد عمرَ الكتّاب المسلمون لتقواه وعدله وتواضعه ووقاره ، وحسبوا هذه المناقب التي يجدر بكل خليفة ان يتحلى بها مشخّصة فيه. وقالوا لم يكن لعمر الا قميص خَلَق و إزار قطري مرقوع برقعة من أدم . وكان ينام على فراش من سَعَف النخل . ولم يهمه من شؤون هذه الحياة الدنيا سوى الدفاع عن شعائر الدين واقامة العدل واعلاء شأن الاسلام وتأمين مصالح العرب . والآداب العربية طافحة بقصص تجلّ اخلاق عمر الصارمة . ومما يروى انه جلد ابنه حدّاً على الشرب والخلاعة فمات تحت حده . ويروى ايضاً ان بدوياً لقي عمر فقال له : « يا أمير المؤمنين انطلق معي فأعدِني [1] على فلان فانه قد ظلمني . فرفع عمر الدّرة (السوط) فخفق بها رأسه وقال لا تدعون امير المؤمنين وهو مُعرض لكم [2] حتى اذا شُغل في امر من امور المسلمين أتيتموه : أعدِني أعدِني ! » فانصرف الرجل ، وهو يتذمر ، ثم قال عمر « عليّ بالرجل » . فالقى اليه

(١) اعدى فلاناً على فلان : قام بنصره وقوّاه .

(٢) اعرضَ لك الخيرُ : أمكنك .

المِخْفقة (الدرّة) وقال « امتثلْ »[1] . فقال « لا والله ». فانصرف الخليفة حتى دخل منزله فصلى ركعتين وقال يناجي نفسه : « يا ابن الخطاب كنت وضيعاً فرفعك الله ، وكنت ضالاً فهداك الله ، وكنت ذليلاً فاعزك الله ، ثم حملك على رقاب الناس فجاءك رجل يستعديك فضربته . ماذا تقول لربك غداً اذا اتيته ؟ ! »

وقُتل عمر في أوج حياته وهو يصلي في القوم بطعنة خنجر مسموم سددها اليه ابو لؤلؤة ، وهو غلام فارسي . وخلفه عثمان (٦٤٤ — ٦٥٦) فجرت في ولايته فتوح ايران واذربيجان وبعض ارمينية . وكان عثمان شيخاً وقوراً طيب الارومة إلا انه عجز عن التحكم في اطماع ذوي قرباه . وضاق الناس بذلك ، وحرضهم على الفتنة ثلاثة من رجالات قريش كان كل منهم يمني نفسه بمنصب الخلافة وهم علي وطلحة والزُبير. وبدأت الثورة في الكوفة اصلاها أنصار علي ، ثم اشتد سعيرها في مصر فأقبل من المصريين زهاء خمسمائة ثائر الى المدينة يريدون عثمان . فتسوّر بعضهم عليه فوجدوه — وهو ابن ثمانين — عند امرأته نائلة يقرأ المصحف . واقتحم البغاة الدار يتقدمهم محمد ابن ابي بكر فطعن عثمان بنصل عريض في جبينه . ومن ثَم قتله احدهم فكان اول خليفة فتكت به ايدٍ مسلمة وذلك في ١٧ حزيران سنة ٦٥٦ .

ولما قتل عثمان بويع لعلي فأطاعته البلدان الاسلامية كلها يومئذ . وعلي هو ابن عم الرسول وزوج فاطمة، احب بناته اليه، ووالد الحسن

---

(١) امتثلَ من القائل : اقتصّ منه .

والحسين ، وهو ثاني من آمن بمحمد او ثالثهم ، تحلى بطيب النفس والتقوى والبسالة .

واول مشكلة جابهت علياً كانت التخلص من منافسَيه طلحة والزبير – زعيمي الحزب المكيّ وجمهرة من الاتبــــاع في الحجاز والعراق الذين لم يعترفوا بولايتـــه . وانضمت عائشة ام المؤمنين وزوج النبي المفضلة الى مقاوميه فما كان من علي إلا ان انطلق لقمع الفتنة فضرب على ايدي موقديهـا بجوار البصرة في ٩ كانون الاول سنة ٦٥٦ . وتعرف هذه المعركة بوقعة الجمل لان عائشة التي التف الثوار حولها كانت تمتطي جملاً . وفي هـذه الوقعة صُرع خصما علي (طلحـة والزبير) ووقعت عائشة اسيرة في يده .

استتب الامر لعلي في الظاهر فجعل الكوفة عاصمة له . غير ان معاوية ابن ابي سفيان امير الشام لم يبايعه وطفق يناوئه . ولم تنطو هذه الخصومة على عداء شخصي فقط بل تجاوزته الى التطـاحن بين بيتين من قريش ، والى تناظرٍ بين الكوفة ودمشق ، او قـل بين العراق والشام ، وتسابقهما الى التصدر في الشؤون الاسلامية .

التقى الجيشان بِصفين على ضفة الفرات الغربية : عليّ على اهل العراق وهم خمسون الف مقاتل ، ومعاوية على اهل الشام . فجرت مناوشات لم تكن حاسمة اذ لم يكن لأي الفريقين رغبـة شديدة في القتال باديء الامر . حتى اذا اشتد القتال وكاد اتباع عليّ يتغلبون رفع اتباع معاوية المصاحف على الرماح علامةَ النزول عند حكم الله لا عند حكم السيوف . فاوقف القتال وأجري التحكيم . وعلى أثر ذاك ناب ابو موسى الاشعري عن علي وناب عمرو بن العـــاص عن

معاوية يرافق كلاً منهما اربعمئة شاهد في مؤتمر بأذرح في جنوبي فلسطين على طريق الحج والقوافل . على ان حقيقة ما دار في هذا المؤتمر التاريخي يصعب استجلاؤها . وفي المصادر المختلفة روايات شتى . والرواية التقليدية تقول باتفاق الحكمين على خلع الزعيمين وجعل الامر شورى بين المسلمين ليختاروا لأنفسهم من شاؤوا . فتقدم ابو موسى فخلع علياً ومعاوية معاً . أما عمرو فخدع زميله وثبّت معاوية بعد ان خلع علياً . غير ان النقاد المحدثين يقولون ان كلاً من الحكمين خلع صاحبه وبهذا خسر عليّ مقامه باعتبار انه الخليفة المعترف به ، ولم يخسر معاوية شيئاً .

ثم ان فريقاً من اتباع علي ذهبوا الى انه ارتكب خطأ فادحاً في قبوله مبدأ التحكيم ، وخرجوا عليه فسُموا بالخوارج ، ليصبحوا اشد اعدائه نقمة عليه . وكان عددهم يبلغ اربعة الاف ، فضربهم علي على ضفة النّهروان عام ٦٥٩ ضربة كادت تكون القاضية . ولا يزال الى يومنا هذا بقايا من الخوارج يسمون بالأباضية في شمالي افريقيا وعُمان .

وكان احد هؤلاء الخوارج هو الذي قتل علياً في اواخر كانون الثاني سنة ٦٦١ وهو خارج من داره في الكوفة للصلاة . وبذلك اصبح للخليفة الرابع عند الشيعة اتباعِهِ ، مقام « وليّ الله » وهو مقام رفيع لا يسمو عليه إلا مقام نبي الله ورسوله .

وهنا يجب ان نحترس من خطأ وقع فيه الكثيرون وهو ان الخلافة وظيفة دينية . والواقع ان مقابلتها برئاسة الامبراطورية الرومانية المقدسة ورئاسة الكنيسة الكاثوليكية اتضلنا سواءَ

السبيل .فالخليفة في الدرجة الاولى امير للمؤمنين عليه تدبير جيوش الاسلام . لهذا ارتكز منصبه على اساس حربي . وهو في الوقت نفسه إمام له حق التقدم في الصلاة والقاء الخطبة . ولكن هذا الحق شائع يجوز لاقل المسلمين قدراً ممارسته . فالخلافة اذاً اقتصرت على الناحية السياسية ولم تتناول الناحية الروحيـــة لان صفة النبي الروحية جاءت عن طريق الرسالة وانتهت زعامته الدينية بموته ، وما كان لاحد ان يخلفه فيها وهو خاتَمُ النبيين . اما صلة الخليفة بالدين فلم تخرج عن حد الغَيْرة عليه .فهو حامي الدين بالمعنى المألوف عند ملوك اوربا السالفين ، يُفرض عليه قمع اهـــل الزيغ والالحاد ومحاربة البدع ، وخوض غمار الجهاد توسيعاً لدار الاسلام .وبسبيل تحقيق هذا كله استخدم الخليفة سلاحه الدنيوي .

اما الفكرة التي تداولها أبناء الغرب من ان الخليفة اشبه بالبابا ومن ان له سلطة دينية على جميع المسلمين في العـــالم فلم تظهر حتى أواخر القرن الثامن عشر . وقد استغل هـذه الفكرة الداهيةُ عبد الحميد لتقوية هيبته في أعين الدول الاوربيـة التي سيطرت يومئذ على معظم البلدان الاسلاميـــة في آسيا وافريقيا . ثم إنه في أواخر القرن الماضي ظهرت حركة غامضة اتخذت الجامعة الاسلامية اسماً لها ، وحاولت توحيد القوى وتوجيه الهمم في مجرى واحد لمقاومة الدول الغربية . فاتجهت الأنظار نحو تركيا بصفتها مركز الخلافة . وبحكم الطبع ابدت هذه الحركة صفة الخلافـــة الدينية الشاملة .

وبقتل علي استتب الأمر لمعاوية . وكان معاوية داهية بني أمية.

وفي خلافته اتجه مبدأ سيادة الدولة اتجاهاً جديداً إذ اصبحت الخلافة سلالية ترتكز على مبدأ وراثي لا على مبدأ شبه انتخابي (المبايعة) كما كانت من قبل . ولقد تعاقبت ثلاث خلافات سلالية عظيمة في المدة التي يتناولها هذا الكتاب ، أولها الأموية وقد ابتدأت سنة ٦٦١ بخلافة معاوية في الشام ، وثانيها العباسية في بغداد من سنة ٧٥٠ الى ١٢٥٨ ، وثالثها الفاطمية – وعاصمتها في اكثر هذه المدة القاهرة – من سنة ٩٠٩ الى ١١٧١ ، وهي السلالة الوحيدة الهامة التي ادعت أنها تتحدر من علي . وكانت هنالك سلالة اخرى ازدهرت في الاندلس وهي فرع من الخلافة الأموية وعاصمتها قرطبة . ودامت من سنة ٩٢٩ الى ١٠٣١ . وليس من شك في ان مبدأ التسلسل والوراثة هذا قد ساعد في خلق جوّ سياسي مستقر ، غير انك قلما تجد مدة طويلة في تاريخ الاسلام لم تعكر جوها الحروب الداخلية . كما انك تجد أزمنة كان فيها الخليفة حاكماً بالاسم لا يمارس سلطته حتى في عاصمته .

وفي بدء حكم معاوية قامت حركة اخرى كان لها شأن كبير في الأجيال التي تلت ، اعني اعلان اهل العراق الحسنَ بن علي الخليفة الشرعي . ولعملهم هذا أساس منطقي لان الحسن كان أكبر أبناء عليّ وفاطمة ابنة النبي الوحيدة الباقية بعد وفاته . ولكن الحسن الذي كان يميل الى الترف والبذخ لا إلى الحكم والادارة لم يكن رجل الموقف . فانزوى عن الخلافة مكتفياً بهبة سنوية منحه إياها معاوية . وتوفي الحسن في الخامسة والأربعين . والراجح انه مات مسموماً . أما الشيعة فتعزو مقتله الى معاوية ، وتجعل الحسن

شهيداً لا بل سيد الشهداء اجمعين .

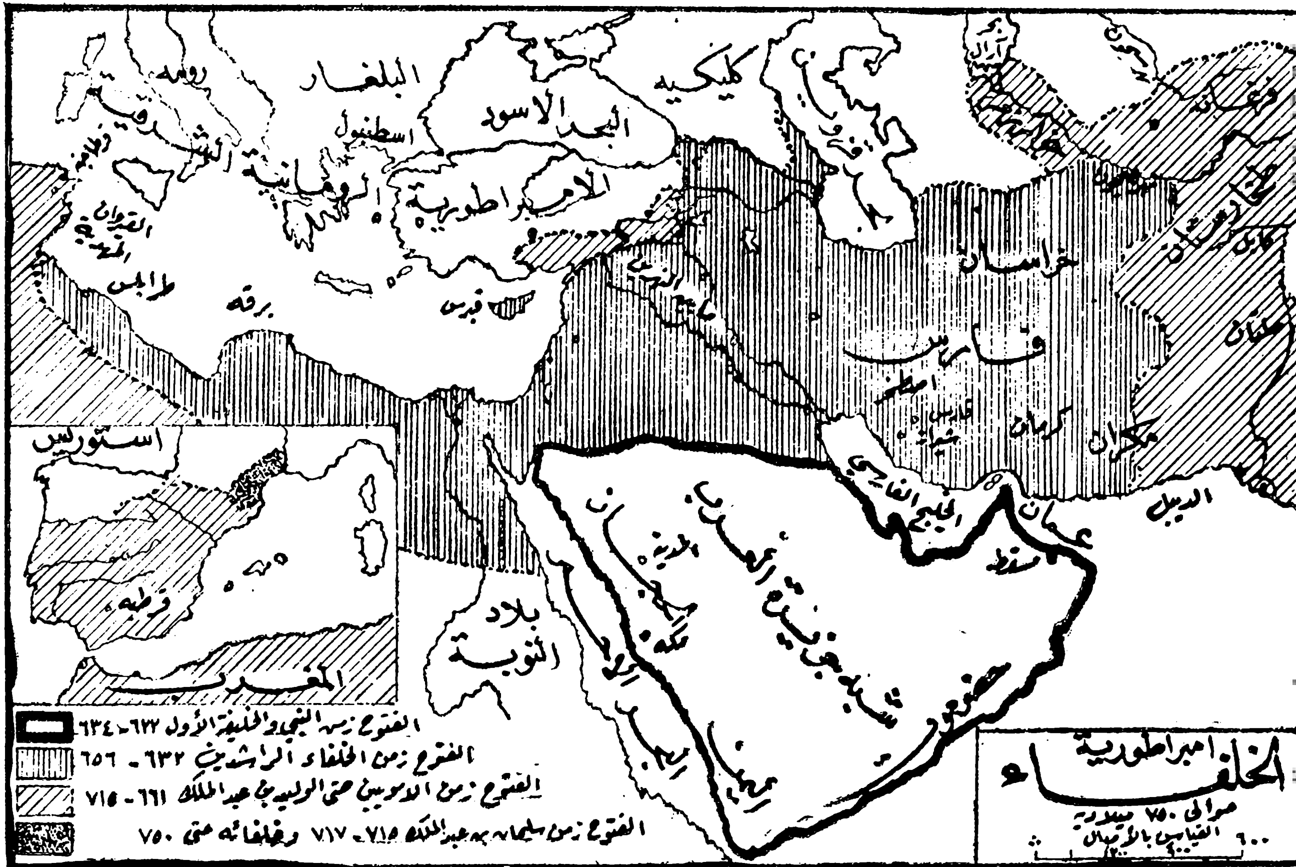
وكان أخوه الحسين الذي آثر العزلة ايضاً ينزل المدينة طيلة خلافة معاوية . حتى اذا دعي الى البيعة ليزيد بن معاوية سنة ٦٨٠ أبى اباءً شديداً . واتصل به اهل الكوفة الذين كانوا بايعوه من بعد علي والحسن ، وتابعوا الرسائل اليه حتى حملوه على القبول ، فخرج متوجهاً الى الكوفة ومعه جماعة فيهم نساؤه ومن والاه . فارسل عامل الأمويين على العراق جيشاً مؤلفاً من اربعة آلاف مقاتل عليهم عمر بن سعد . فوافى الحسينَ في كربلاء ، وذلك في العاشر من محرّم سنة ٦١ هـ . (١٠ تشرين الأول سنة ٦٨٠) وكان الحسين قد نزلها مع جماعته وعددهم مئتان . وآثر الحسين القتال على الاستسلام فأحاط به رجال الامويين من كل ناحية وقاتلوه حتى فني أصحابه . ثم قتل سِبط الرسول قتلة شنعاء . واحتزّ رأسه فحُمل مع اهله الى يزيد بدمشق، فأمر بردّ الرأس الى اخت الحسين وابنه فدفن مع الجسد في كربلاء . والعالم الشيعي يخلد ذكرى الحسين بما يقيمه له كل سنة في العاشوراء (عاشر محرّم) من مظاهر الندب والحداد مراعياً في ذلك مقامه من الرسول وبطولته وآلامه وصبره .

وكان معاوية ذا مقدرة عظيمة في الادارة ، فخلق من الفوضى السائدة مجتمعاً إسلامياً منظماً . ونظّم اول جيش مدرّب عرفه الاسلام ، وأسس أول ديوان للتسجيل في الدولة الاسلامية ، وسعى لانشاء مصلحة للبريد عمت فيمابعد جميع اجزاء الدولةوربطتها بعضها ببعض .

اما في الحنكة السياسية فلم يجارِ معاويةَ احـــدٌ من الخلفاء . ويذهب مؤرخو سيرته من العرب الى ان حِلمه كان اسمى مناقبه . فلم يكن يستعمل الشدة إلا متى رأى استعمالها محتما ، اما في غير ذلك فكان يحاول استرضاء مقاوميه بالوسائل السلمية . وكان ابداً سيد الموقف . فجرّد عدوه من عدائه ، وأخجل مقاومـه بلطفه ولينه . وكان بطيء الغضب ، عذب المزاج ، ضابطاً لثورات النفس . ومن اقواله الدالة على تصرّفه : « لا اضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا اضع سوطي حيث يكفيني لساني . ولو ان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت ... اذا مدوها خليتها واذا خلّوهـا مددتها » . وهاك كتاباً قيل إنه بعث به الى الحسن بن علي عنـــد نزوله عن الخلافة له : « اما بعد فأنت اولى بهذا الامر وأحق به لقرابتك . ولو علمت انك اضبط له وأحوَط على حريم هذه الامة وأكيَد لبايعتك ، فسل ما شئت . » وفي داخل الكتاب صحيفة بيضاء مختوم عـــلى اسفلها أن اكتُب ما شئت من اموال وعقار . فكانت النتيجة ما ذكرنا سابقاً .

وقاتل معاوية البيزنطيين وكذلك فعل الخلفـاء الذين عقبوه . وحاول مرتين اخضاع القسطنطينية نفسها . وفي خلال إمارته على الشام في ايام عثمان تعرض اسطول الاسلام لقوة بيزنطية البحرية ، وتغلب عليها في اول معركة بحرية عظيمة في تاريخ الاسلام (ذات الصواري) . وهي معركة دموية وقعت قرب شاطيء (ليسيا) في آسيا الصغرى . اما القسطنطينية فـــلم تسقط ، وبقيت في يد البيزنطيين حتى ايام الاتراك . وعجز العرب عن ان يثبّتوا اقدامهم

في آسيا الصغرى او ان يعبروا مضيق الدردنيـــل . لذلك وجهوا جهودهم الى التوسع شرقاً وغرباً حيث كانت المقاومة عـلى اقلها . وهكذا استأنف الاسلام في أواخر ايام معاوية مسيره الى الامام والى العلاء .


امبراطورية
الخلفاء
حوالي ٧٥٠ ميلادية
القياس بالأميال
٦٠٠
الفتوح زمن النبي والخليفة الأول ٦٢٢-٦٣٤
الفتوح زمن الخلفاء الراشدين ٦٣٢ - ٦٥٦
الفتوح زمن الأمويين حتى الوليد بن عبد الملك ٦٦١ - ٧١٥
الفتوح زمن سليمان بن عبد الملك ٧١٥-٧١٧ وخلفائه حتى ٧٥٠
البلغار
روما
البحر الأسود
كليكيه
اسطنبول
الإمبراطورية الرومانية الشرقية
القيروان
برقه
قبرص
خراسان
فارس
اصطخر
كرمان
مكران
الخليج الفارسي
عمان
مسقط
الديبل
شبه جزيرة العرب
المدينة
مكه
حضرموت
بلاد النوبة
استوريس
قرطبه
المغرب

فتح الأندلس

انتهى الدور الاول من الفتوحات الاسلامية باستيلاء المسلمين على سورية والعراق وفارس ومصر . وتلاه اضطرابات داخلية لم يطل امرها .

وبدأ الدور الثاني من الفتوحات بحملة شديدة اتجهت شرقاً ، فعبرت نهر جيحون ، الحد الفاصل في عرف التقاليد بين ايران وطوران ، اي بين الشعوب الناطقة بالفارسية والشعوب الناطقة بالتركية . وتابعت تقدمها الى بلاد المغول الخارجية . وسقطت في ايدي المسلمين بخارى وشاش وسمرقند وهي المدن التي كان لها شأن كبير في تاريخ الاسلام اللاحق . وتوطدت سلطة الاسلام في آسيا المتوسطة الى درجة اضطرت الصينيين ان يخلدوا الى السكينة . ومن هذه الحملة توجهت فرقة الى الجنوب فاجتازت البلاد المعروفة اليوم

ببلوخستان . وفي عام ٧١٢ استولت على السند وأسفل وادي الاندس وارض الدلتا منه (سندو) . واتسع مدى الفتوحات الى مُلتان في جنوب البنجاب وهي مزار بوذي شهير . واعتنقت المقاطعات الهندية على الحدود الاسلام ، ولا تزال عليه حتى اليوم . وبذلك احتك الاسلام بثقافة جديدة هي الثقافة البوذية .

واصطدمت الموجة العربية في الجبهة الشمالية الوسطى مرة اخرى بالقسطنطينية . فجرى الحصار المشهور الذي دام من آب ٧١٦ الى ايلول ٧١٧ والذي حالت فيه سلسلة حديدية متينة دون مرور الاسطول العربي الى القرن الذهبي .

على ان أروع الحملات الاسلامية وأوسعها مدى هي التي اتجهت غرباً . وكان العرب قد اخترقوا افريقيا الشمالية الى قرطاجنة القديمة . وقاد هذه الحملة موسى بن نصير وهو من مواليد الشام ، وقد كان من ابرز قواد الاسلام. وتوغل المسلمون في بلاد البربر ، والبربر ينتمون الى الفرع الحامي من الجنس الابيض. والراجح انهم والساميون من اصل واحد . وكان معظم هؤلاء البربر الذين قطنوا السواحل قد اعتنقوا النصرانية قبل الفتح الاسلامي . وفي هذه الربوع نشأ القديسون ترتليانوس وقبريانوس واوغسطينوس وغيرهم من آباء الكنيسة الأول . اما في داخل البلاد فلم تؤثر الحضارة الرومانية او البيزنطية في الشعوب الاصلية تأثيراً محسوساً لانها كانت اجنبية وغريبة عن عقلية اهالي افريقيا الشمالية من البدو وشبه البدو .

والظاهر ان الاسلام كان له تأثير خاص في الشعوب التي في مستوى البربر الثقافي . فما اسرع ما استطاع العرب الساميون

توثيق عرى الاتصال بأبناء عمهم الحاميين . وكما ان الاسلام في اواسط آسيا عرّب الأقوام لغة وديناً كذلك فعل الا ن في الاقوام البربرية . وهكذا اغتنى دم المسلمين الفاتحين بامتزاجه بدماء جديدة . وتسنى للغة العربية مجال واسع للانتشار . وتوطدت قدم الاسلام واخذت تتدرج في معارج الرقي نحو السلطة العالمية الشاملة .

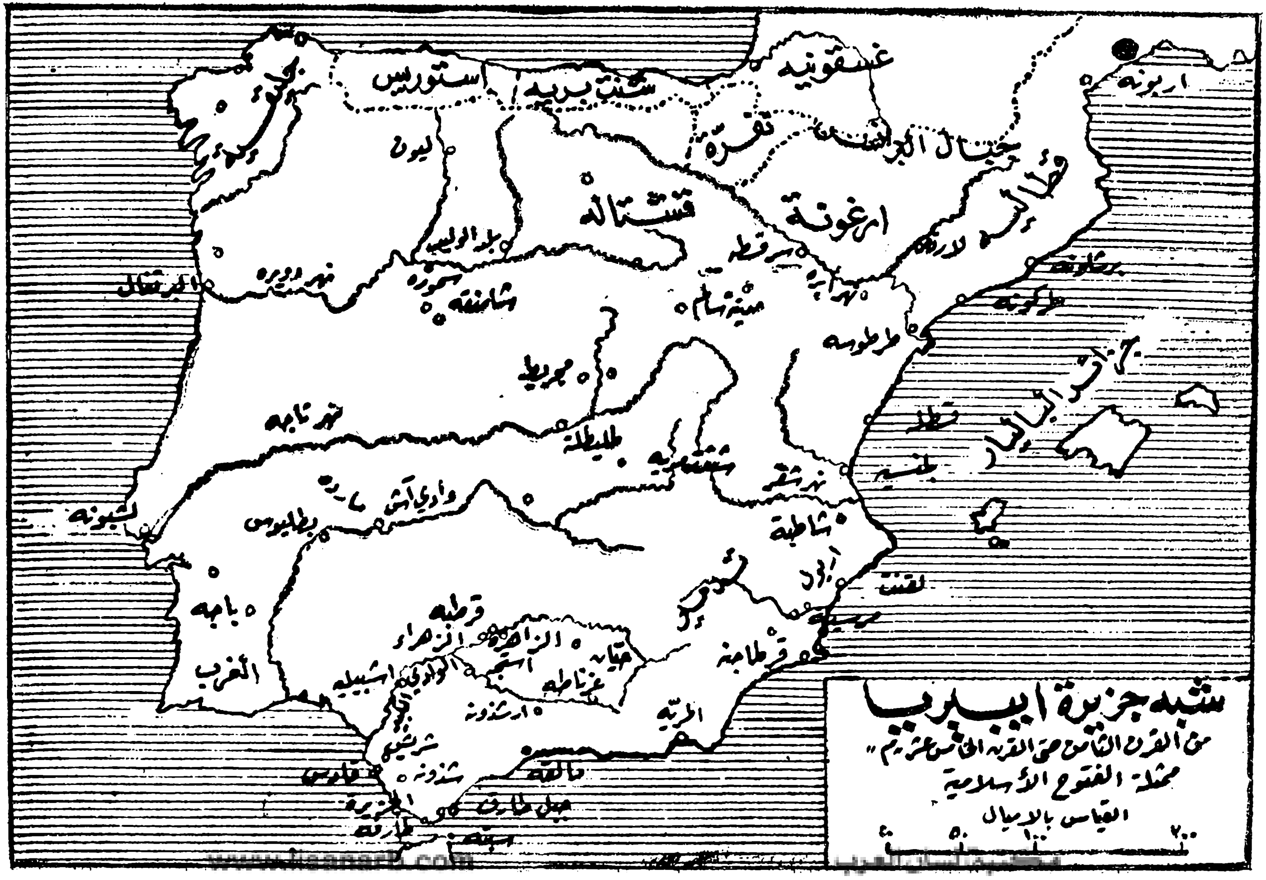
وليس في تاريخ القرون الوسطى الحربي ما يماثل الحملة العربية على بلاد الاسبان من حيث الجرأة وسرعة الانجاز والنجاح التام . ولقد بدأت هذه الحملة في شهر تموز من عام ٧١١ بنزول فرقة الاستطلاع التي قادها « طريف » والمؤلفة من اربعمئة من المشاة ومئة من الفرسان – كلهم بربر من جنود موسى عامل بني أمية في افريقيا – الى شبه جزيرة صغيرة سُميّت طريفة باسم قائد الفرقة . وهي اقصى نقطة جنوبية من القارة الاوربية .

واستطاع موسى الذي كان قد تولى الامارة على افريقيا منذ سنة ٦٩٩ ان يجلي البيزنطيين عن الأراضي الواقعة غربي قرطاجنة . ثم تدرج بفتوحاته الى الاوقيانوس الاطلنطي توطئة لشن الغارة على اوربا . وشجعه على ذلك ما كان من نجاح الغزوة الاولى وما عرفه من التضعضع والاضطراب السياسي بين اعضاء الاسرة القوطية الغربية الحاكمة . والحق ان اكبر دافع له كان الغنيمة لا الفتح . فأوفد في عام ٧١١ الى الاندلس مولىً له بربرياً كان قد اعتقه يدعى طارق بن زياد على رأس سبعة آلاف رجل اكثرهم من البربر . فنزل بهم طارق الجبل الذي خلّد اسمه فعُرف منذ ذاك الحين بجبل طارق . وجاز الغزاة المضيق الى الاندلس ، وعرضه ثلاثة عشر

ميلًا ، في مراكب قدّمها لهم أليان حاكم سبته على ما جاء في الروايات .

ووصلت طارقاً الأمداد فالتقى في ١٠ تموز عام ٧١١ على رأس اثني عشر الف رجل بجيش لذريق عند مصب وادي بكّة (نهر سلادو) . وكان لذريق قد خلع سلفه ابن غيطشة واغتصب عرشه. فاشتبك الجيشان فدارت الدائرة على القوط ، وكان عددهم نحواً من خمسة وعشرين الفاً ، فانكسروا انكساراً تاماً وتشتتوا . اما ما حدث للذريق فلا يزال سراً غامضاً . ويكتفي مؤرخو الاسبان والعرب بالقول إنه اختفى .

بعد هذا الفوز الحاسم هان توغل المسلمين في اسبانيا ، فلم يلقوا مقاومة شديدة إلا في المدن التي كان يحميها فرسان القوط . واتجه طارق وسواد جيشه الى عاصمة الاسبان طليطلة عن طريق أستجة فاحتلها . وقد ساعده على ذلك خيانة بعض اهلها من اليهود . وانفذ طارق بعض الفصائل الى المدن المجاورة لكنه أعرض عمداً عن إشبيلية في الجنوب لمناعة حصونها. واحتلت فرقة من الجيش جذونة دون اي مقاومة . واحتلت فرقة ثانية إلبيرة وهي قرب البقعة القائمة فيها غرناطة اليوم . وهاجمت فرقة ثالثة من الفرسان قرطبة فحاصرتها مدة شهرين . ويقال ان الذي مهد لفتح هذه المدينة التي صارت فيما بعد عاصمة المسلمين راعٍ خائن دلهم على ثغرة في سورها . أما أشد معارك هذه الحملة فوقعت عند استجة ، وكان الظفر فيها للمسلمين . وهكذا اصبح طارق الذي جاء الاندلس في ربيع عام ٧١١ على رأس غزوة بسيطة سيدَ نصف اسبانيا في آخر فصل



شبه جزيرة ايبريا
من القرن الثامن حتى القرن الخامس عشر
مجالات الفتوح الاسلامية
القياس بالاميال
٠ ٥٠ ١٠٠ ٢٠٠

الصيف من هذه السنة . وبذلك قضى على مملكة باسرها .

وحسد موسى مولاه طارقاً لما أصابه من ظفر عظيم لم يكن يتوقعه . فاسرع في حزيران من عام ٧١٢ الى الاندلس على رأس عشرة آلاف من العرب والسوريين العرب متوجهاً الى المدن والحصون التي لم يدخلها طارق كمدينة شذونة وقرمونة . أما إشبيلية اكبر مدن الاندلس وأرقى مراكزها الفكرية (وقد كانت عاصمة الرومان قبل تغلّب القوط على البلاد) فقد ظلت محاصرة حتى آخر حزيران من عام ٧١٣ ، وكانت اشد مقاومة جابهها موسى في حملاته عند مدينة ماردة . فحاصرها مدة ، ثم احتلها بهجمة عنيفة في اول حزيران من عام ٧١٣ .

وكان اجتماع موسى بطارق في طُلَيطُلة او بالقرب منها . ويروى ان موسى هنا وبخ طارقاً وضربه بالسياط ، وقيده بالسلاسل لخروجه على أوامر سيده بتقدمه السريع في اوائل حملته . على ان الفتح لم يقف عند هذا الحد. فسار موسى تواً الى سَرَقُسْطة في الشمال فافتتحها . وغزت جنوده مرتفعات اراغون وليون وأستورية وجِلّيقِية . وفي خريف هذه السنة استدعى الخليفة الوليد موسى عامله في افريقيا ووجه اليه التهمة نفسها التي كان موسى اتهم بها طارقاً – وهي تهمة الاستقلال بالامر دون مراجعة السلطة العليا .

وغادر موسى الاندلس مستخلفاً عليها ابنه الثاني عبد العزيز . وسار متباطئاً حتى قدم الشام يصحبه طارق وضباط الجيش واربعمئة امير قوطي على رؤوسهم التيجان وعلى أوساطهم مناطق ذهبية ،

يتبعهم عدد غفير من الغلمان والسبي ، حاملين مقـــادير عظيمة من الكنوز والغنائم . ويلذ كثيراً لمؤرخي العرب الاسراف في وصف هذا الموكب الفخم الذي سار من اسبانيا عبر افريقيـا الشمالية من الغرب الى الشرق حتى بلغ اخيراً العـــاصمة الشامية . وهو وصف يُذكّر بمواكب الظفر التي سار على رأسها قواد الرومان القدمـاء . وكانت اخبار الموكب قد سبقته الى دمشق فتلقى موسى عندوصوله طبرية في فلسطين اوامر من سليمان ولي عهد الخلافة يُشعره فيها بوجوب تأخير دخوله العاصمة اذ انه أراد ان يصادف وصول هذا الموكب ارتقاءه كرسي الخلافة بعد اخيه الوليد العليل فيزداد رونقاً .

ودخـــل موسى دمشق في شباط عام ٧١٥ يصحبه الأمراء القوطيون بملابسهم الرسمية وعليهم الحلى والجواهر . والظاهر ان الوليد رحّب بهم في احتفال مهيب في بهو الجامع الفخم . وكان ذلك أبهى استقبال في تاريخ الفتوحات الاسلامية إذ شاهد المسلمون لأول مرة مئات من ابناء أسرة اوربية مالكة والوفـــاً من سبي الاوربيين يقدمون الطاعة لأمير المؤمنين .

وكان في التحف النفيسة التي قدمها موسى للخليفة المائدة العجيبة التي نسبت الخرافات صنعها للجن في خدمة الملك سليمان ، وزعمت ان الرومان نقلوا هذه التحفة الفنية الفريدة من بيت المقدس الى عاصمتهم ، ليأخذها القوط منهم فيما بعد ، فكان كل واحد من ملوكهم ينافس سلفه في ترصيعها بالحجارة الكريمة . وقد حُفظت هذه المائدة في كاتدرائية طليطلة . ولعل طارقاً غنمها يوم هرب بها اسقف العاصمة . حتى إذا التقى موسى بطارق في طليطلة ضربـــه

بالسياط واغتصبها منه . ويحكى ان طارقاً كان قد أخفى احدى قوائمها . فلما كان هو وموسى في حضرة الخليفة أبرز هذه القائمة كدليل على انه هو الذي غنم المائدة فصدقه الوليد وأعظمَ جائزته .

وحلّ بموسى ما حلّ بكثير غيره من قواد العرب البارزين . فقد اذلّه الخليفة سليمان ، وعاقبه بالوقوف يوماً كاملاً في حرارة الشمس حتى وقع مغشياً عليه ، وصادر امواله وجرده من كل سلطة . وآخر عهد لنا بموسى فاتح افريقيا واسبانيا مستعطياً في قرية نائية بالحجاز وهو طاعن في السن .

أصبحت اسبانيا الآن ولاية من ولايات الخلافة ، فاطلق عليها العرب اسم الاندلس تحريفاً لاسم الولاية الجنوبية التي كان قد احتلها الفندال من قبائل الطوطون الجرمانية . ولم يُبق موسى لخلفه الا مقاطعات صغيرة في الشمال والشرق يفتحها وبعض الثورات يقمعها . وتم فتح هذه البلاد كلها وضمها الى ملك العرب في خلال سبع سنين . وهي من اكبر اقطار اوربا في العصور الوسطى واجملها . وقد قيّض لهؤلاء الفاتحين ان يحكموها قروناً .

اما أسباب هذا الظفر الذي قد لا يكون له مثيل في التاريخ فيمكن استجلاؤها من هذه الحوادث التي سردناها بايجاز . وأولها ان الفرق القومي بين القوط الغربيين الذين دخلوا اسبانيا في اوائل القرن الخامس ، وهم من برابرة الطوطون ، وبين اهل البلاد الاسبان الرومانيين كان لا يزال ظاهراً . وقد جاهد هؤلاء القوط زمناً طويلاً قبل ان استولوا على البلاد من الاقوام الجرمانية التي سبقتهم كالسويفي والفندال . وحكم ملوك القوط البلاد حكماً

مطلقاً عاتياً ، وظلوا محافظين على المذهب الآري في المسيحية حتى عام ٥٨٧ حين قبل احدهم واسمه ركارد الكثكلة مذهبَ اهل البلاد الذين كانوا يمقتون حكم القوط ويحسبون مذهبهم بدعة . أما طبقة العبيد والأقنان وهي تشمل قسماً كبيراً من السكان فلم تكن راضية عن نصيبها . فلا عجب ان ساعد هؤلاء المستعبَدون الفاتحين ومهدوا لهم سبل الفتح . وكذلك نقم اليهود على حكم القوط لما اصابهم من الاضطهاد على ايدي ملوك القوط الذين حاولوا تنصيرهم قسراً . وكان احدهم قد اصدر في عام ٦١٢ امراً يقضي على اليهود بأن يختاروا بين المعمودية وبين التعرض للنفي ومصادرة الأموال . وهذا ما حدا بالمسلمين الى ان يتركوا بعض المدن التي فتحوها في عهدة اليهود ويتقدموا لمواصلة الفتح في اسبانيا .

ولا بد ان نذكر ان الخلاف السياسي الذي كان استفحل امره بين الاسرة المالكة وبين طبقة النبلاء من القوط انفسهم ، والنزاع الداخلي في البلاد زعزعا اركان الدولة . ففي أواخر القرن السادس انتهى هؤلاء النبلاء الى ان يكونوا اصحاب السيادة في مقاطعاتهم . ووافق الفتح الاسلامي قيامَ احدهم واغتصابه العرش من أخيلا بن غيطشة . ولكن اقرباء أخيلا خانوه . فاعتز أخيلا (الملك المخلوع) بقدوم العرب . وظن لأول وهلة أنهم آتون لنجدته . لكنه قنع بعد ان احتل المسلمون طليطلة العاصمة باسترجاع أملاكه في هذه المدينة ، وعاش فيها محفوفاً بما أراده من مظاهر الابهة . وتقلد عمه الاسقف أوبّاس منصب رئيس ابرشية العاصمة . أما الدور الذي لعبه اليان حاكم سبتة الذي قيل إنه امد

الجيش العربي بالمراكب التي اجتازوا بها المضيق فقد بولغ فيه كثيراً .

وازال سقوط سَرَقُسْطَة احد الحواجز الاخيرة بين اسبانيا وفرنسا ، ولكن بقي امام العرب حاجز منيع هو جبال البرانس . على ان موسى لم يقطع هذه الجبال، على الرغم من ان بعض مؤرخي العرب ينسب اليه هذا العمل الباهر ابتغاءَ اجتياز بلاد الفرنجة الى الشرق عن طريق القسطنطينية الى دار الخلافة في دمشق . ولا يستغرب ان يكون شيء من هذه الاحلام قد جال في مخيلات هؤلاء الفاتحين لان معرفتهم بجغرافية اوربا كانت قاصرة . والواقع ان اول من قطع سلسلة جبال البرانس هو ثالث خلفاء موسى على الاندلس الحرّ بن عبد الرحمن الثقفي. وذلك في عام ٧١٧ او ٧١٨.

ومما اغرى الحُرّ بهذه المغامرة كنوز الأديرة والكنائس في فرنسا . وشجعه عليها اضطرابات داخلية بين قواد البلاط المروفيني ودوقات اكوتانيا . فجرد حملات تابعها من بعده خلفه السمح بن مالك الخولاني .وفي عام ٧٢٠ استولى السمح على سَبتمانيا التي كانت تابعة لمملكة القوط المنقرضة . ثم احتل أربونة التي جعلها العرب بعدئذ حصناً منيعاً يشتمل على دار لصناعة المعدات الحربية ومستودع للاسلحة والمؤونة . ولكن محاولته في السنة التالية بسبيل اكتساح تولوز كرسي دوق اكوتانيا باءت بالفشل لما لاقاه المسلمون من صلابة عود المدافعين . وهنا استُشهِد السمح . وبهذا الفشل تم اول انتصار لأمير جرماني على جيش عربي. وجاءت غارات العرب اللاحقة فيما وراء جبال البرانس غير موفقة .

وقاد عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، خلفُ السمح في اسبانيا، آخر حملة واشدها خطورة . فتقدم قاطعاً سلسلة جبال البرانس الغربية في مستهل ربيع ٧٣٢ . فقهر دوق اكوتانيا على ضفتي نهر غارون ، ثم هاجم بوردو بعنف شديد واضرم النار في كنائسها . وبعد ان أحرق الباسيليكا القائمة خارج أسوار بواتيه، زحف شمالاً حتى جوار مدينة تور . وقد كانت تور أشبه بعاصمة دينية لسكان بلاد الغال لكونها مرقد القديس مار تنيوس الذي تنسب اليه التقاليد تنصير الغاليين . ولا ريب ان الذي جذب الغزاة اليها ما حواه مزارها من التقدمات النذرية الفاخرة .

وهنا بين تور وبواتيه التقى عبد الرحمن بشارل محافظ البلاط المروفيني الذي لُقب فيما بعد بمارتل (اي المطرقة) والذي استنجد به دوق اكوتانيا . وكان شارل رجلاً شجاعاً جريئاً اخضع اعداء كثيرين واضطر دوق اكوتانيا الذي كانت له صفة الاستقلال بادارة مقاطعته إلى ان يعلن الطاعة الاسمية للفرنجة الشماليين . ومع ان شارل - وهو ابن غير شرعي لبيبين الهرستالي - لم يكن ملكاً فانه تصرّف تصرُفَ الملوك .

وقف الجيشان – الجيش العربي بقيادة عبد الرحمن والجيش الفرنجي تحت امرة شارل ، واكثر افراده (اي جيش الفرنجة) من المشاة اللابسين جلود الذئاب وقد تدلت ذوائبهم المتلبدة على اكتافهم– احدهما في وجه الآخر مدة سبعة ايام يرقبون فيها التحام المعركة . وطال أمد المناوشات حتى كان يوم سبت من تشرين الاول عام ٧٣٢ . فبدأ القائد العربي الهجوم . أما جند الفرنجة

– حسب وصف مؤرخ غربي – فقد ألفوا من انفسهم في وطيس المعركة شكلًا هندسياً مربعـاً مجوفاً ووقفوا متراصين كتفاً الى كتف ، وصمدوا أمام ضربات العدو كركام من جليد لا تزعزعه العواصف . وترامت فرسان العرب الخفيفة العدة على هذا الجمع المتراص فلم تنل منه أرباً . وصمد الفرنجة في مراكزهم يجندلون كل مهاجم دنا منهم . وقد كان ممن سقط في هذه الملحمة عبد الرحمن نفسه . واسدل الظلام حجاباً على الجمعين ستر أحدهما عن الآخر . وما طلع فجر اليوم التالي حتى خيل لشارل ان السكينة المخيمة على معسكر العدو انما هي خدعة . فبعث الجواسيس يستطلعون حقيقة الامر فثبت لهم ان العرب انسحبوا تحت جنح الظلام بعد أن أخلوا مضاربهم . وبذلك تم النصر لشارل .

وقد زوّقت اساطير الغربيين يوم بواتيه أو تور ، وأسرفت في المبالغة باهميته التاريخية ، وعدّه المسيحيون آخر حاقة في سلسلة الفتوحات التي ابتدأت منذ قرن في البلاد العربية . ويقول المؤرخ الانكليزي « غبون » وتابعوه من المؤرخين انه لو انتصر العرب في ذلك اليوم لكنت ترى المساجد لا الكنائس في باريس ولندن ، ولسمعت تفسير القرآن لا الكتاب المقدس في جامعة اكسفورد وغيرها من معاهد العلم في الغرب . وبعض المؤرخين المحدثين يعدّ معركة تور هذه احدى معارك التاريخ الفاصلة .

والواقع ان هذه المعركة لم تفصل شيئاً . فالموجة المؤلفة من العرب والبربر كانت قد استنفدت كثيراً من قوتها فوصلت الى حدّ طبيعي من التوقف اذ بعدت عن جبل طارق ، نقطة بدايتها ،

نحو الف ميل . وكان قد دب الخلاف الداخلي بين العنصرين اللذين تكوّن منهما جيش عبد الرحمن (اعني العرب والبربر) وبدت طلائع الضعف في معنوياته . ولم يكن للعرب انفسهم شعور يوحدهم او هدف يجمعهم . والواقع انه وان كُبح جماح العرب عند هذه المرحلة فقد واصلوا غاراتهم في جهات أخرى .

ففي عام ٧٣٤ مثلاً احتلوا افنيون ، وبعد مضي تسع سنين أغاروا على ليون، ولم تفلت أربونة المعقل العسكري من قبضتهم حتى عام ٧٥٩ . فالانكسار بالقرب من تور اذاً لم يكن سبب توقف العرب الرئيسي ، لكنه جاء بمثابة حد اقصى لما بلغته الجيوش الاسلامية من الظفر .

وامتدت الامبراطورية الاموية بعد وفاة النبي بمئة عام من حدود الصين الى غالية . واصبحت دمشق ـ البلد الذي تقول الرواية إن محمداً أحجم عن دخوله لأنه اراد أن يرى الجنة مرة واحدة ـ عاصمة هذه الامبراطورية المترامية الاطراف . وفي وسط هذه المدينة قام قصر الامويين متألقاً يطل على السهول الخصبة الممتدة الى الجنوب الغربي حتى الجبل الشيخ المكلل بالثلوج . وكان بانيه معاوية مؤسس السلالة الاموية ، فاقامه بجانب الجامع الاموي الذي زينه الوليد وجعله آية هندسية لا تزال تجذب اليها عشاق الفن الجميل . وفي ردهة الاستقبال كان مقعد العرش المربع تغطيه المساند المزركشة الفاخرة ويجلس عليه الخليفة في الجلسات الرسمية بثيابه الفضفاضة متربعاً . وكان يقف عن يمينه العصبة من اقربائه مصطفين حسب الاقدمية في السن ، وعلى شماله ذوو الارحام منهم ، وخلفه بطانته والشعراء

والملتمسون . أما المجالس ذات الصفة الرسمية الممتازة فكانت تعقد في الجامع الاموي العظيم . وهو لا يزال حتى يومنا هـذا من افخم المعابد في العالم وأبدعها . ولعل الخليفة استقبل موسى وطارقاً مع اسراهم و كنوزهم في مجلس كهذا . ففي هذه الحقبة الاموية بلغت العروبة أعلى قمم مجدها،وانتهى الاسلام الى آخر مرحلة من مراحل تقدمه وسيره .

بدء الحياة الثقافية والاجتماعية

ننتهي الآن في بحثنا هذا الى الناحيـــة الرئيسية في التاريخ الاسلامي ، وننتقل من سرد احـداث المعارك والفتوح الى ما هو اكـــثر خطورة ، أعني التقدم الفكري والتطور الثقافي في الامبراطورية الاسلامية نفسها وما رافقهما من نهضة ادبيـة في العلم والطب والفن وهندسة البناء . في هـذا الطور كانت فتوح العربي عن طريق العقل لا عن طريق السيف ، وذلك بالاستعانة بذخائر الآداب والعلوم اليونانية والسريانية والفارسية والهندية منقولةً الى العربية .

ومن الحقائق الرائعة أن طبيعة الحياة اليوم في دمشق وعادات سكانها لا تختلف كثيراً عما كانت عليه مذ كانت عاصمة الامويين . في ذلك العهد كان في دمشق وغيرها من المدن الكبرى أحياء خاصة

يسكنها العرب محافظين فيها على الانتساب القَبَلِي ، واليوم لا تزال هذه الاحياء في دمشق وحمص وحلب مستقلة عن سواها .

وكان سكان الامبراطورية ينقسمون الى اربع طبقات اجتماعية ، وكانت الطبقة العليا تتألف من الفئة المسلمة الحاكمة ، وعلى رأسها اسرة الخليفة والارستقراطيون من العرب الفاتحين . ولا يُعرف بالتدقيق عدد هذه الطبقة ولكنها بلغت في حمص والشام عدداً يتراوح ما بين العشرين والخمسة والاربعين الفاً .

وكانت الطبقة الثانية تتألف من الموالي اي المحدَثين في الاسلام ممن قبلوا رسالة محمد طوعاً أو كرهاً . وكان لهذه الطبقة حقوق في الجنسية الاسلامية بالاسم لا بالفعل وذلك لأن الأثرة (الشوفانية) العربية كانت قوية الى حد لم تستطع معه هذه الحقوق النظرية ان تتحقق في الواقع ، إذ لم يكن الاعتراف بها إلا ظاهرياً . ولا شك في ان مالكي الاراضي أجبروا على دفع الخراج طوال معظم العهد الاموي سواء أكانوا من المؤمنين ام من غير المؤمنين . ومما لا ريب فيه أيضاً أن أكبر العوامل التي سببت التناقص في دخل الدولة كان كثرة عدد الداخلين في الاسلام ، لان الجزية تسقط في الاسلام .

وادرك الموالي انهم كانوا في احط المراتب الاجتماعية في البيئة الاسلامية ، فاستنكروا هذا الوضع ولم يقنعوا به بحال ، وهذا يوضح السبب الذي حملهم على تأييد حركات الشيعة في العراق والخوارج في فارس وغير ذلك من الحوادث التي أثارت نزاعاً مستديماً في الاسلام وأسالت دماء غزيرة . إلا ان بعضهم برهنوا عن

تشبث بالدين الجديد اكثر من اصحابه وتحمسوا له الى درجة من التعصب جعلتهم يضطهدون غير المسلمين . وكان اليهود والنصارى الذي اعتنقوا الأسلام من اشد المسلمين الأول صلابة في عدم التسامح .

ولما كان معظم هؤلاء الموالي أبناء ثقافة عريقة في القدم فليس عجيباً ان يكونوا اول من أقبل في البيئة الاسلامية على الدروس العلمية والفنون الجميلة . وما كادوا يظهرون على اخوانهم المسلمين العرب في مجال الثقافة حتى اخذوا يطمحون الى الزعامة السياسية . ولقد تزاوجوا بالعنصر الفاتح فاختلط بهم الدم العربي حتى ضاع بين خليط العناصر .

وكانت الطبقة الثالثة تتألف من ابناء المذاهب التي تدين بالديانات المنزلة المعروفين باهل الذمة ، وهم النصارى واليهود والصابئة الذين كانوا قد دخلوا في عهد الاسلام . وليس من شك في ان اعتراف المسلمين بكيان هذه الطبقة ، بعد ان اشترطوا عليها التجرد من السلاح وتأدية الجزية مقابل الحماية الاسلامية ، كان من أعظم الأحداث السياسية التي جاء بها الاسلام . وإنما يرجع ذلك، اكثر ما يرجع ، الى ما كان يكنه محمد من الاحترام للتوراة، في حين يرجع بعضه الى العلاقات الودية مع رؤساء بعض القبائل المسيحية العربية .

وقد تمتع اهل الذمة في هذا الوضع بقسط وافر من الحرية لقاء تأديتهم الجزية والخراج. فكانوا يرجعون في قضاياهم المدنية والجزائية الى رؤسائهم الروحيين ، إلا اذا كانت القضية تمس مسلماً . لقد

كان القانون الاسلامي أقدس من ان يطبّق على اهل الذمة. والواقع ان شيئاً من هذا النظام ظل معمولاً به حتى آخر العهد العثماني وفي زمن الانتداب في سورية وفلسطين.

أما الطبقة الرابعة فهي طبقة العبيد، وكانت في اسفل دركات الهيئة الاجتماعية. لقد احتفظ الأسلام بنظام العبيد، وهو نظام ساميّ قديم اقرّته التوراة. على ان الاسلام حسّن حالة العبد بعض الشيء. ومع ان الشرع الاسلامي منع استرقاق المسلم فهو لم يعِدِ الدخيل بالعتق اذا أسلم. وكان معظم العبيد في فجر الأسلام من اسرى الحرب وفيهم النساء والأحداث الذين لم يُفتدوا والذين شُروا بالمال أو أخذوا في الغزو. وما عتّمت تجارة العبيد ان اصبحت تجارة نشيطة رابحة في جميع البلدان الاسلامية. وكان الرقيق أجناساً شتى فمنه الزنجي من افريقيا الشرقية والوسطى، والاصفر من تركستان الصينية، والابيض من الشرق الادنى أو من اوربا الشرقية أو الجنوبية. وكانت اثمانهم مختلفة أيضاً فقد بلغ ثمن العبد الاسباني نحو الف دينار، في حين ان العبد التركي لم يزد ثمنه على ستمئة دينار. ولقد نصّت الشريعة الأسلامية على ان مولود الأمَة عبدٌ سواء أكان الوالد عبداً أم حراً إلا اذا كان الوالد هو سيد الأمَة واعترف بأبوّته. أما اولاد العبد من زوجة حرة فأحرار.

ويمكننا الاستدلال على عدد العبيد الذين طما سيلهم على الامبراطورية الاسلامية بداعي الفتوحات من الروايات التالية، وهي بلا ريب مبالغ فيها: فقد ذكروا ان موسى بن نصير رجع

بثلاثمئة الف اسير من شمالي افريقيا ، فأهدى خمسهم الى الخليفة ، وانه اخذ من بنات الاسر القوطية النبيلة في اسبانيا ثلاثين الف عذراء . كما ذكروا ان عدد اسرى قائد واحد فقط من قواد المسلمين في تركستان بلغ مئة الف .

وكان الزواج الشرعي محظوراً على السيد وامته. اما التسري فكان مباحاً . والاولاد الذين يولدون في حالة التسري هذه يتبعون الوالد ، فهم احرار . غير ان رتبة الام وهي سرّية ترتفع الى مرتبة « ام ولد » فلا يجوز بيعها او اهداؤها . ومتى مات السيد أعتِقَت . وقد لعبت تجارة الرقيق دوراً هاماً في اختلاط العرب بمختلف العناصر الاعجمية لينتج عن ذلك اندماج تام بينهم وبين شعوب غريبة متعددة .

لاحظنا ان الغزاة من عرب الصحراء دخلوا الامصار التي فتحوها خالي الوفاض من كل تقليد علمي أو تراث ثقافي . ولقد حال قرب عهد الامويين من عصر الجاهلية وحروبهم الكثيرة وعدم استقرار الاحوال الاجتماعية والاقتصادية في العالم الاسلامي دون التقدم الفكري في بدء عهدهم . غير ان بذور الفكر الناشيء عن الثقافات السابقة من يونانية وسريانية وفارسية كانت قد زُرعت في تربة العهد الاموي . فما جاءت الدولة العباسية حتى نمت هذه البذور لتصبح اشجاراً باسقة ذات اثمار يانعة . فالعصر الاموي إذاً كان على الجملة عصر استعداد وحضانة .

وبدخول الفرس والسّريان والاقباط والبربر وسواهم حظيرةَ الاسلام وتزواجهم بالعرب زال ذلك الحاجز المنيع الذي وضعه

الاولون بين العرب والاعاجم فلم يعد لقومية المسلم اهميـة .

ومهما كانت قومية المسلم أصلاً فقد صار يُعدّ الآن عربياً. اصبح كل من اعتنق الدين الاسلامي وتكلم اللغة العربية عربياً بقطع النظر عن قوميته الأصلية . وهذا الحدث كان من اشد الامور خطورة في تاريخ المدنية الاسلاميـــة . فنحن اذا ذكرنا « الطب العربي » أو « الفلسفة العربية » أو « الرياضيات العربية » فلسنا نقصد بذلك ان هذه العلوم بكليتها كانت من نتاج العقل العربي ، أو ان الذين وضعوها ورقّوها هم من أبناء الجزيرة بل نعني مجموعة تلك العلوم التي وضعها في اللغة العربية رجال نشأ جلّهم في عصور الخلافة وهم فرس ومصريون وعرب من نصارى ويهود ومسلمين ، وقد استمدّ بعضهم معلوماته من مصادر يونانيـة والبعض الآخر من مصادر آرامية أو هندية فارسية أو غيرها .

وبدأت دراسات اللغة العربية وفيها الصرف والنحو في البصرة على تخوم فارس ، وكان الباعث الأول على ذلك حاجة الداخلين في الاسلام الى تعلّمها . غـير ان هؤلاء أنفسهم قاموا فيما بعد بقسط وافر من هذه الدرسات . وكانت الرغبـة الاولى الملحّة هي تلقين الموالي اللغـــةالعربية كي يفقهوا القرآن ويشغلوا المناصب الادارية ويخاطبوا الفاتحين بلغتهم . وتنص الروايات على ان واضع قواعد النحو العربية هو ابو الاسود الدؤَلي (توفي عام ٦٨٨) . ولقد زعم ابن خلّكان ان الخليفة وضع للدؤلي هـــذا الاساس وهو ان « الـكلام كله ثلاثة أضرب إسم وفعل وحرف » . ثم دفعـــه اليه وقال له « تمم على هذا » فأتمّ موفّقاً . على ان النحو العربي ينمّ عن

نشوء طويل لم يقم به جيل بل أجيال . وقد اصطبغ في خلال نشوئه بالوان المنطق اليوناني .

وأفضت دراسة القرآن وضرورة شرحه الى ظهور علمي فقه اللغة (الفيلولوجيا) ومفرداتها والى ظهور علم الحديث وهو ابرز العلوم الاسلامية. والحديث بالمعنى الاصطلاحي عملٌ أو قول منسوب الى النبي أو أحد الصحابة . وقد كان القرآن والحديث الأساس الذي بُني عليه علم أصول الدين وعلم الفقه . والشريعة الاسلامية أشدّ علاقة بالدين واصوله من علم الحقوق المعروف عند ارباب القانون اليوم . ولا شك في ان الشرائع الرومانية اثّرت مباشرة ، وبواسطة التلمود وغيره ، في التشريع الاموي . بيد ان مدى هذا التأثير لم يتحقق بعد .

ولقد شهد هذا العصر نشأة العلوم العربية التي جاء معظمها عن طريق الترجمة . وكان اقدم ما أخرِج للناس رسالة في الطب نقلها الى العربية رجل يهودي عن كتاب يوناني ألفه كاهن مسيحي في الاسكندرية . واعتنى العرب في بدء نهضتهم الادبية بعلم الكيمياء كما فعلوا بعلم الطب فأبدعوا فيهما . وكان لهم فضل كبير في هذه العلوم التي اتسع مداها على تعاقب الايام .

وازدهر فن الشعر في البلاط الاموي في دمشق. وكذلك ازدهر فن الموسيقى على الرغم من مقاومة المحافظين الذين اعتبروا في الموسيقى والغناء بمنزلة الخمر والميسر اللذين حرمها القرآن . ولا شك في أن الرقي الفكري في عهد الامويين بلغ ابعد غاياته في صناعة الشعر . أما عصر الفتوحات السابق فقد كان مجدباً اذ لم يظهر فيه

شاعر واحد في العرب وهم امة الشعراء . ومـا ان تسلم الامويون زمام الحـكم حتى استعادت آلهة الخمر والغناء والشعر منزلتها السابقة فظهر لأول مرة شاعر الحب في العربية عمر ابن ابي ربيعـــة المتوفى حوالى ٧١٩ ، وهو قرشي أمه يمنية جعـــل التعرض بحديث الحب للفتيات الجميلات القاصدات الحج دأبَه وديدنه ، وتودد الى سُكينة ابنة الحسين المشهورة بجمالها وادبها .

أما أعظم براعة فنية أظهرها المسلمون فكانت في الهندسة المعمارية ولا سيما بناء المساجد . فالمعماريون المسلمون وبعض من استُخدِموا في هذه السبيل احدثوا في فن البناء نسقاً جديداً بسيطاً رائعـاً قام على اساس من نماذج قديمة ولكنه تفرّد بميزة خاصة وهي اظهار روح الدين الجديد . ولنا ان نعتبر المسجد خلاصة لتاريخ امتداد الثقـافة الاسلامية سواء أكان ذلك ضمن الاسلام وعناصره المختلفة ام خارج الاسلام فيما يتعلق بالامم الاخرى . فالمسجد خير مثال يمكننا ان نتخذه دليلاً على العلاقات الثقافية بين المسلمين وجيرانهم .

ولقد اصبح المسجد النبوي البسيط في المدينة على الجملة نموذجاً لمعابد القرن الاسلامي الأول. وكان اول أمره عبـارة عن بهوٍ بلا سقف بنيت جدرانه باللّبِن . ثم مد النبي سقف البيوت المجـــاورة فظلل بها البهو المكشوف اتقاءً لأشعة الشمس المحرقة . وكـانت عَمَدُهُ من الجذوع وسقفه من الجريد عليه الطين . وكان الرسول بادىء الأمر يخطب الناسَ غير مستند الى شيء ، ليخطب بعـدُ الى جذع قائم في هذا المسجد يعتمد عليه اذا طال قيامه . ثم بدا له ان يتخذ منبراً فاتخذه من الطّرْفاء (الأثل) ذا درجات ثلاث عـلى

نحو ما عرف من المنابر في الكنائس النصرانية في الشام . وكان كل ما اشتمل عليه المسجد الجامع الاول فناء وسقفاً يقي المصلين ومنبراً يرقاه الخطيب .

ولما تقدم العرب يفتحون الأمصار القريب منها والبعيد من أنحاء آسيا الغربية وافريقيا الشمالية صارت الى ايديهم بنايات لاتحصى منها الباقي والعافي ، تمثّل رقياً فنياً رفيعاً . والأهم من ذلك انه اصبح في حوزتهم معارف فنية حية ورثها ابناء الامم المغلوبة عن العصور الخالية. وما لبثت هذه الاوضاع الفنية التي حوّرتها حاجات الجماعات الاسلامية الدينية ان اصبحت تُعرف على مرور الايام بالفن العربي .

وانتهى بيت المقدس الى ان يكون منذ بدء عهد الاسلام بلداً مقدساً في نظر المسلمين بأجمعهم . ويرجع ذلك الى منزلة بيت المقدس في التوراة ولأنه كان القِبلة الأولى في الاسلام والموضع الذي وطأه محمد قبل صعوده الى السماء ليلةَ الاسراء . وفيه تقوم اليوم قبة الصخرة التي بنيت عام ٦٩١ في بقعة تُعدّ اكثر بقاع الأرض قداسةً ساهم في احترامها اليهود والوثنيون والنصارى والمسلمون وعدّها التقليدُ الموضعَ الذي اراد ابرهيم ان يقدم اسحق ابنه فيه ذبيحةً لله .وتختلف هندسة قبة الصخرة هذه عن الأساليب القديمة فقد أدخِلت في بنائها الفسيفساء وسواها من اسباب الزخرفة . ولقد أسرِف في صنع القبة كيما تفوق قبة كنيسة القيامة أناقة وفناً ، فكانت النتيجة أثراً هندسياً رائعاً قلما تجد ما يضاهيه في اقطار العالم .

أما الجامع الاموي في دمشق فأكبر دليل على ما وصلت اليه المدنية العربية من تطور . ففي سنة ٧٠٥ اخذ الوليد بن عبد الملك « باسيليكا » دمشق المسيحية المكرّسة للقديس يوحنا ، وكانت في الاصل هيكلاً لجوبيتر، فابتنى هنالك المسجد العظيم المعروف بالجامع الاموي . ومن العسير ان نتبين ما بقي في هذا الجامع من اصل البناء المسيحي . إلا ان المئذنتين الجنوبيتين تقومان على ابراج كنيسة قديمة هي من ابراج « الباسيليكا » . أما المئذنة الشمالية التي كانت تُستخدَم برجاً للاستطلاع فمن الثابت ان بانيها الوليد . ولقد اصبحت بعد نموذجاً لسواها من المآذن في سورية وشمالي افريقيا واسبانيا . وهي اقدم المآذن الاسلامية الصرفة الباقية . واستخدم الخليفة في بناء هذا الجامع الصناع الفرس والهنود والمعماريين الوطنيين ، ولعلّ بعضهم كان من الروم الذين أوفدهم امبراطور القسطنطينية . وتفيد اوراق البَرْدِيّ المكتشفة حديثاً ان بعض مواد البناء استُقدمت من الديار المصرية ، وكذلك بعض حُذّاق العمال .

ومما تقدّم وما يلي يتبيّن ان العرب لم ينالوا قصب السَّبْق في ميدان الحروب فقط بل في ميدان العلوم والفنون ايضاً .

بغداد في اوج مجدها

ما كان انهماك العرب في التافه من حضارة زمانهم ليقلّ عن انهماكهم في علومها وفنونها ولا سيما بعد ان أخذ أبناء الجواري يتسنّمون عرش الخلافة. وكان اول هؤلاء يزيد بن الوليد (٧٤٤) وأمّه أمّ ولد، وكذلك كان الخليفتان اللذان تبعاه — وهما آخر السلالة — من أمّي ولد. ففي هذا الزمن نشأ نظام الخصيان الذي لولاه لما قام نظام الحريم. وبازدياد الثروة وكثرة العبيد ازداد انغماس القوم في الترف. فلم تستطع السلالة المالكة المفاخرة بصفاء دمها العربي. وما ذلك إلا دليل واضح على الانحطاط الاخلاقي الذي كان متفشياً في المجتمع عامة.

ومما زاد في ضعف السلالة الاموية وانحلالها اتساع شقة الخلاف بين قبائل عرب الشمال وبين قبائل عرب الجنوب. والحق ان

هذا الاختلاف كان قائماً قبل الأسلام ولكنه بلغ الآن أقصاه ، فهو يثير أشدّ النفور والخصام . فعلى ضفّتي الاندَس وشواطيء صِقِلِّية وتخوم الصحراء الافريقية ظهرت تلك الضغائن الكامنة من أمد بعيد وتبلورت في شكل حزبين سياسيين هما قَيْس ويَمَن . واستمرّ هذا النزاع إلى العصور الحديثة اذ نشبت معارك بين الفريقين في لبنان وفلسطين حتى القرن الثامن عشر .

وهنالك عامل آخر زاد السلالة الاموية وَهَناً وهو عدم وجود نظام ثابت صريح يجري بموجبه التعاقب في الخلافة . ولقد أدرك معاوية خطورة هذا الأمر فأوصى بالخلافة من بعدِه لابنه يزيد ، فأدخل بعمله هذا مبدأ جديداً حكيما يرتكز على الوراثة . لكن مبدأ الاقدمية في السنّ الذي جرى عليه العرب كان ابداً يناقض ميل الخليفة الى جعل الخلافة في ذريته . وعلى كلّ حال فقد بقيت المبايعة معمولاً بها ، ولكن في الظاهر فقط .

وفي سنة ٧٤٧ قام العباسيون بثورة على ابناء عمِّهم الامويين . والعباسيون هم أبناء العباس عم الرسول . فنجحوا في حركتهم وكادوا يُبيدون البيت الاموي . ويُروى ان قائدهم عبد الله بن العباس دعا ثمانين رجلًا من الامويين للطعام في ابي فُطْرُس — على نهر العوجاء قرب يافا — فأمر قومهُ ان يضربوا رؤوسهم حتى أتوا عليهم ، ثم امر فطُرحت عليهم البسط وجلس عليها ودعا بالطعام فأكل ، وهو يسمع أنينهم . ولُقِّب الخليفة العباسي الاول بالسفاح فلزمهُ هذا اللقب . وعمد العباسيون الى استعمال العنف في تنفيذ خططهم . ولأول مرة في تاريخ الأسلام صار النّطع الى

جانب كرسي الخليفة واتُخِذ منه ومن قوة الجلاد أداة لتوطيد صولة العرش . وخضع لحكم العباسيين القسم الشرقي من العالم الاسلامي ، أما شمالي افريقيا والأندلس فلم يخضعا قط . ودام ملكهم خمسة قرون تعاقب فيها سبعة وثلاثون خليفة حتى قُضي على الأخير منهم سنة ١٢٥٨ على يد المُغُول . وفي ايامهم ارتقت الحضارة العربية فبلغت عصرها الذهبي .

وفي سنة ٧٦٢ باشر المنصور الخليفة العباسي الثاني بناء بغداد عاصمته الجديدة على ضفة دجلة الغربية وهو موقع قامت فيه قريةٌ ساسانية باسم بغداد ، ومعناه « هبة من الله » . وفي وادي دجلة والفرات ازدهرت بعض حواضر العالم القديم . قال المنصور : « هذا موضع معسكر صالح . هذه دجلة ... يأتينا فيها كل ما في البحر ، وتأتينا الميرة من الجزيرة وارمينية وما حول ذلك ، وهذا الفرات يجيء فيه كل شيء من الشام والرقة وما حول ذلك . » ، وكان اختيار المنصور لهذا الموضع حكيما حقاً . واستغرق بناء المدينة اربع سنوات استُخدم في اثنائها مئة الف من المهندسين والصناع والفعلة . وما لبثت ان اصبحت مدينة عظيمة .

وجعل المنصور مدينته مدورة فسميت بالمدينة المدورة . وبنى سوراً مؤلفاً من حائطين من اللـَّبِن ، واحتفر خندقاً عميقاً وأقام سوراً ثالثاً داخلياً علوه تسعون قدماً يحيط باواسط المدينة . وجعل للمدينة ابواباً اربعة تمرّ فيها طرق اربع تبتدىء من وسط المدينة وتترامى الى اطراف الامبراطورية الاربعة وكأنها شعاعٌ ينبثق من دولاب . فكانت المدينة عبارة عن دوائر ذات مركز واحد قام في

قلبها قصر الخليفة المسمى بباب الذهب أو القبة الخضراء ، والى جانبه المسجد الجامع . اما قبة مجلس القصر الخضراء التي غلب اسمها على القصر باجمعه فارتفعت مئة وثلاثين قدماً . ولقد جاء في رواية متأخرة ان صنماً بهيئة فارس يحمل رمحاً كان في اعلى هذه القبة ليشير في الأوقات الحرجة الى الجهة التي قد يجيء منها العدو . ولكن فساد هذه الخرافة لم يفت ياقوت الحموي فقال ان الصنم لا محالة يتوجه الى جهة ما في كل حين مما يدل على وجود عدو يطل على المدينة في كل وقت : « أما الملة الاسلامية فانها تجلّ عن هذه الخرافات » .

وقُرْب مركز الخلافة الجديد من فارس حدا بها على ان تتجه نحو الشرق . فخضع الاسلام العربي للمؤثرات الفارسية ، وأصبحت الخلافة أشبه بحكومات الاستبداد الفارسية منها بمشيخة عربية . فتسرب الى الحياة العربية من فارس شيء كثير كالألقاب والخمر والزوجات والسراري والأغاني والأفكار . على ان هذه ليّنت خشونة الحياة العربية ومهدت السبيل لبزوغ عهد ممتاز بالعلوم والاستنباط الفكري. إلا ان مسحة العروبة احتفظت بأمرين هامين وهما الاسلام دين الدولة ، والعربية لغة الدواوين الرسمية .

وفي مستهل القرن التاسع ظهر عاهلان بارزان في الشؤون العالمية ، هما شرلمان في الغرب وهرون الرشيد في الشرق . وليس من شك في ان هرون كان اقوى من زميله ، وفي انه كان يمثل ثقافة ارفع من ثقافة الغرب . وقد تبادل العاهلان علاقات ودية اساسها المصلحة ، فابتغى شرلمان صداقة هرون كي يعينه على خصمه امبراطور بزنطية ، وودّ هرون مساعدة شرلمان على منافسيه واعدائه

الأمويين في الاندلس الذين كانوا قد شادوا دولة منيعة الجانب تتمتع بالرخاء . ولهذا تبادل الاثنان – على قول المؤرخين الغربيين – السفراء والهدايا . ويروي مؤرخ افرنجي عرف شرلمان معرفة شخصية ان سفراء الملك العظيم في الغرب رجعوا من الشرق يحملون الهدايا الثمينة من « ملك فارس هرون » وبينها منسوجات وأفاويه وفيل واحد وساعة دقيقة التركيب تقيس الوقت بواسطة الماء . أما خبر الأرغن الذي يقال ان هرون أهداه الى شرلمان فهو ككثير من الاخبار الجذابة في التاريخ وليد الخيال ولا يستند الى الحقيقة . وقد نفى البحث العلمي ايضاً القصة التي تقول بان هرون اعطى شرلمان مفاتيح كنيسة القيامة . والغريب في امر تبادل السفراء والهدايا هذا الذي جرى ما بين سنتي ٧٩٧ و ٨٠٦ ان المؤرخين المسلمين لا يشيرون اليه البتة ، على الرغم من انهم أشاروا الى مبادلات ديبلوماسية أخرى .

وفي ايام هرون الرشيد هذا (٧٨٦ – ٨٠٩) اصبحت بغداد مركزاً للغنى الباذخ والأهمية العالمية ، ولم يكن قد مضى بعدُ على تأسيسها نصف قرن ، فوقفت وحدها تضاهي بزنطية . وكان مجدها متناسباً مع تقدم الامبراطورية التي كانت هي عاصمتها حتى قيل « لم يكن لبغداد في الدنيا نظير » .

وكان القصر الملكي وما يتبعه من ملحقات للحريم والخصيان والخدم يبلغ ثلث المدينة المدورة . وأعظم ما فيه المجلس المفروش بالطنافس والمجهّز بالسجُف والمساند بحيث لم يكن في الشرق أبدع منه . وكانت زُبيدة ، زوج هرون وابنة عمه ، تشاركه في تلك الهالة من المجد التي أكسبتها اياها الاجيال المتتالية . فلم تتسامح في

ان ترى على مائدتها أوعية غير مصنوعة من الذهب أو الفضة وغير مرصّعة بالجواهر . ويقال انها أنفقت في حجّة لهـا ثلاثة ملايين ديناراً منها نفقة إسالة الماء خمسة وعشرين ميلاً الى الحرم بمكة .

وكانت لزُبيدة مزاحمة هي عُلَيّة الفتانة ، اختُ هرون لأبيه من أمّ ولد . وكان بها عيب في جبينها فاتخذت العصائب المكللة بالجواهر لتستر بها جبينها فأحدثت شيئاً لم يكن،فيما ابتدعته النساء، أحسنُ منه . فأخذته النساء عنها .

وبلغ بذخ البـلاط وعظمته اقصى درجاتهما في الاحتفالات الرسمية كتنصيب الخليفة والاعراس والحـج والاحتفاء بالسفراء الاجانب . وقد أنفق في زواج الخليفة المأمون عـلى بُورانَ ابنة وزيره سنة ٨٢٥ مقاديرُ هائلةٌ من المال . فحفظ لنا الادب العربي قصة هذا الزواج الذي « لم يُعهد له مثيلٌ في عصر من الاعصار » . قيل : ولما جلس العروسان وقـد بُسط لهما فرش كان الحصير منها منسوجاً بالذهب ومكللاً بالدرّ والياقوت نُثرت على بُوران الف دُرّة كانت في صينية ذهب وأوقدت شموع العنبر في كل واحـدة مئتا رطل فانقلبت بنورهـا الظلمة ضياء . وانتهى أمر ذلك الفرح العظيم بان نُثر على الهاشميين والقواد والكتّاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع باسماء ضياع وأسماء جوارٍ وغير ذلك . فكانت البندقة اذا وقعت في يد رجل فتحها وقرأ مـا فيها ومضى ليتسلم مضمونهـا سواء أكانت ضيعة أم فرساً أم جارية أم مملوكا . وفي سنة ٩١٧ استقبل الخليفة المقتدر في قصره رسل الامبراطور الشاب قسطنطين السابع استقبالا فخما . والظاهر أن القصد من زيارتهم

كان تبادل الاسرى وافتداءهم . ولقد مشى في موكب الاستقبال يومئذ مئة وستون الف فارس وراجل ، وسبعة آلاف خصي منهم البيض والسود ، وسبعمئة حاجب ونحو مئة أسد . وكان ما عُلّق من الستور في قصر الخليفة ثمانية وثلاثين الف ستر منها اثنا عشر الفاً وخمسمئة من الستور المذهبة .وبلغ ما حواه من البُسُط اثنتين وعشرين الف قطعة . وقد أصاب الرسل من الاعجاب والروعة الشيءُ الكثير ، ولما نظروا الى دار الحاجب ودار الوزير حسبوهما مجلس الخليفة فقيل لهم ان هذه دار الوزير وتلك دار الحاجب . ولكن دهشتهم كانت على اشدّها عندما دخلوا دار الشجرة وفيها شجرة من الفضة والذهب وزنها خمسمئة الف درهم وعلى كل غصن عصافير وطيور من كل نوع مذهبةومفضضة تتحرّك كما تحرّك الريح ورق الشجر فتصفر الطيور وتهدر . ثم أخرجوا الى بستان فيه نخل طول كل نخلة خمسة أذرع قد لُبّست جميعها ساجاً منقوشاً وهي مثقلة بغرائب التمر .

وكان هرون مثالا أسمى للملوكية في الأسلام . وسخاؤه كسخاء الخلفاء الذين تبعوه مباشرة جَذَبَ الى العاصمة الشعراء واهل الذكاء والفكاهة وارباب الموسيقى والغناء والرقص وغيرهم من ارباب الملاهي كمربي الكلاب والديوك التي كانوا يعرضونها تقتتل أمام النّظّارة . ولقد وصف الشاعر المجوني ابو نواس ، وهو نديم الرشيد ورفيقهُ في كثير من جولاته الليلية ، حياة البلاط خلال هذا العصر الزاهي، في أعذب الشعر ، وصفحات « الاغاني » للاصفهاني طافحة بالقصص التي تمثل هذه الحياة بألوان برّاقة لا

يصعب استخلاص الحقيقة من تلافيفها . قيل ان الخليفة الامين بن هرون غنّاه ابراهيم بن المهدي عمّه ، وهو مغنٍّ شهير ، صوتاً في شعر لابي نواس فأمر له بثلاثمئة الف دينار . فقال ابراهيم : « يا أمير المؤمنين قد أجزتني الى هذه الغاية بعشرين الف الف درهم هل هي إلا خراج بعض الكُوَر ؟ » وكان للأمين عدّة حرّاقات خاصة في دجلة على صورة الأسد والفيل والعُقاب. ولقد أنفق في عمل واحدة منها ثلاثة ملايين درهم . وفي « الاغاني » أيضاً نطالع وصف مشهد من مشاهد الرقص الغنائي الرائع فاذا دارُ الخليفةِ الأمين مملوءة بالوصائف يغنّين على الطبول والسرنابات والأمين واقف في وسطهن يركض في دارة الملهى ، والجواري والمخنّثون من حوله يزمّرون ويضربون .وذكر المسعودي ان ابراهيم بنالمهدياستزار أخاه الرشيد فلما وُضعت البوارد على المائدة رأىالرشيد السمك فاستصغر القطع فقال ابراهيم « هذه ألسنة السمك » وأردف الخادم قائلًا: « يا أمير المؤمنين فيها اكثر من مئة وخمسين لساناً » . فاستحلفهُ الرشيد عن مبلغ ثمن السمك فأخبرهُ انه أكثر من الف درهم . وانا اذا جرّدنا صورة حياة البلاط ببغداد عما البستهُ أياها القرائح الشرقية من الاطناب والمبالغة لرأينا فيها بعد ذلك التجريد ما يملأ النفس عجباً بل دهشة .

وامتدّ مرسى بغداد اميالاً وحوى مئات السفُن ومن بينها السفن الحربية ومراكب اللهو والسفن الصينية والاطواف وهي قِرَبٌ يُنفخ فيها ويُشدّ بعضها الى بعض كهيئة السطح وتشابه الأطواف المعروفة في عصرنا هذا السائرة بين الموصل وبغداد ،

وكان يردُ الى أسواق المدينة الخَزَفُ والحرير والمسك من الصين ، والطيوب والمعادن والأصباغ من الهند وارخبيل مَلَقّة ، والياقوت واللازَوَرْد والمنسوجات والأرِقّاء من أراضي الترك في آسيا الوسطى ، والعسل والشمع والفراء والعبيد البيض من اسوج ونروج وروسيا ، والعاج والتبر والعبيد السود من شرق أفريقيا . وقد أفرِدت لبضائع الصين سوق خاصة بها . وكانت الامصار ترسل محصولاتها سواء بحراً ام براً في القوافل : فيردُ الارزّ والحبوب والكتان من مصر ، والزجاج والادوات المعدنية والفواكه من الشام ، والقماش الحريري والمقصّب واللؤلؤ والاسلحة من جزيرة العرب ، والحرير والعطر والبقل من فارس .

وقد قام التجار العرب بتصدير المنسوجات والجواهر والمرايا المعدنية والخَرَز الزجاجي والطيوب وغير ذلك من بغداد ومراكز التصدير الأخرى الى أنحاء الشرق الأقصى واوربا وافريقيا . وتشهد النقود المسكوكة التي وُجدت طائفة كبيرة منها في روسيا وفنلندا واسوج والمانيا على اتساع نطاق تجارة المسلمين في مشارق الارض ومغاربها سواء في هذه الحقبة ام في الحقَب المتأخرة من تاريخهم . وليست حكايات السندباد البحري التي هي من أمتع قصص « الف ليلة وليلة » الاّ اخباراً ذات اساس واقعي لسفرات قام بها اهل التجارة من المسلمين . ولقد لعب التجار دوراً هاماً في حياة بغداد . فكان لكل تجارة او صناعة سوق خاص بها كما هو الحال اليوم . ولم يكن يغيّر من اطراد الحياة في السوق الاّ مرور مواكب الأعراس او المحتفلين بختان .

وبدأ اصحاب المِهَن من أطباء ومحامين ومعلمين وكتّاب وغيرهم يشغلون مراكز هامة في المجتمع. وقد أبقى لنا ابن خلّكان صورة مصغّرة لاعمال احد هؤلاء اليومية وهو الطبيب السرياني حُنين بن اسحق عميد المترجمين من اليونانية. فنحن نراه في كل يوم، بعد فراغه من ركوب الخيل، يدخل الحمّام فيَصُبّ عليه الماء ثم ثم يخرج فيلتفّ في قطيفة ويشرب قدح شراب ويأكل كعكة ويتكيء حتى ينشف عرقه، وينام. ثم يقوم ويتبخّر ويُقدّم له طعامه، وهو فرّوج كبير مسمّن ورغيف وزنه مئتا درهم فيحسو المرق ويأكل من الفرّوج والخبز وينام، فاذا انتبه شرب اربعة أرطال شراباً عتيقاً، فاذا اشتهى الفاكهة الرطبة أكل التفاح الشامي والسفرجل.

واشتهرت هذه الحقبة في القصص التاريخية والخيالية لأسباب منها بذخ الحياة فيها وزهوها. ولكن السبب الأهم انه ظهرت فيها اعظم يقظة فكرية في الاسلام او قل احدى الحركات الفكرية والثقافية العظيمة في العالم بأسره. وترجع هذه اليقظة في معظم اسبابها إلى مؤثرات خارجية بعضها هنديّ أو فارسيّ أو سرياني واكثرها يوناني. وهي يقظة تعاظمت فيها حركة النقل الى العربية من الفارسية والسنسكريتية والسريانية واليونانية لان العربي المسلم لم يكن لديه الشيء الوفير من العلم والفلسفة والأدب. ولكنه كان يمتاز بذكاء طبيعي، وبقوى عقلية دفينة، وبرغبة في الاطلاع على الجديد. فأصبح بعد وقت قصير وريث حضارة الشعوب العريقة في القِدَم التي تغلّب عليها او احتكّ بها. فلما

جاء الشامَ استمدّ منها حضارتها الآرامية الـــتي كانت قد تأثرت بمدنيّة اليونان . أما في العراق فاستمد حضارتها الآرامية التي كانت قد تأثرت بمدنية الفرس . ولم يمضِ على تأسيس بغداد ثلاثــة ارباع قرن حتى اصبح في حوزة العرب فيها اهم كتب ارسطو الفلسفية ، ونخبة من كتب الشروح لاهـــل الفلسفة الافلاطونية الجديدة ، ومعظم كتب جالينوس الطبية ، وطائفة من الكتب العلميــة من فارسية وهندية . ففي عشرات السنين تسنّى للعرب الوقوف عــلى آثار علمية فلسفية كان اليونان قد انفقوا القرون في انشائها . ولا شك في ان الاسلام خسر الكثير من طابعهِ الاصلي باستمدادهِ هذا من الحضارتين الفارسية واليونانية إذ كان طابعهُ صحراوياً عليـــه مسحة العصبية العربية ، فصار الآن يشغل مركزاً هاماً في ثقافـة العصور الوسطى التي ربطت جنوبي اوربا بالشرق الادنى . وهـذه الثقافة تغذّت من مجرى واحد ترجع اصوله الى مصر القديمة وبابل وفينيقية واليهودية . وعرّج هذا المجرى على بلاد اليونان فرجـع منها الى الشرق الادنى بشكل الحضارة اليونانية . وسوف نرى فيما بعد كيف اتجه هذا المجرى الثقافيّ صوب اوربا عن طريق العرب في اسبانيا وصقِلّية حتى ادى الى عصر النهضة الاوربية الحديثة .

وكانت الهند من اقدم مصادر الفكر وخصوصاً في الحكمة والأدب والرياضيات . فحوالي سنة ٧٧٣ قدِم رحّالة هندي بغدادَ ومعه رسالة في الفلك . فأمر الخليفة بترجمتها فترجمها الفَزاري إلى العربية . أما عناية العرب بالنجوم فترجع الى عهود البادية . ولكن الاهتمام العلمي بها لم يظهر حتى هـــذا الزمن . ولقد ولّد الأسلام

حافزاً جديداً لدرس علم الفلك وهو الرغبة في تعيين جهة القِبلة بالضبط . ثم جاء الخوارزمي المشهور (المتوفى عام ٨٥٠) فوضع جداوله الفلكية المعروفة استناداً إلى كتاب الفَزاري فجمع ما بلغهُ اليونان والهنود في هذا العلم ووحّدهُ وزاد عليه اموراً جديدة. ويعود فضل إدخال الأرقام إلى العالم الاسلامي الى ذلك الرحّالة الهندي نفسه . فانه حمل معه رسالة في الرياضيات حوَت تلك الارقام التي تُعرف في اوربا بالعربية ، وفي البلاد العربية بالهندية . وعقب ذلك أمدّ الهنود علمَ الرياضيات العربي في القرن التاسع بقانون الكسور العشرية .

أما التراث الفكري اليوناني فكان بلا شك أثمن ما حواه الهلال الخصيب عند الفتح العربي . فجاءت الثقافة اليونانية اشدّ العوامل الاجنبية تأثيراً في الحياة العربية . وقد بلغ هذا التأثير أوَجهُ في ايام المأمون وذلك لما كان لهذا الخليفة من النزعات الفكرية الحرة . ولما كان يعتقد كالمعتزلة بوجوب الاتفاق بين الكتب المنزلة وبين أحكام العقل انصرف الى فلسفة اليونان رغبة منه في الاطّلاع فيها على ما يؤيد آراءه . وفي سنة ٨٣٠ أنشأ بيت الحكمة في بغداد وهو عبارة عن خزانة كتب ودار علم ومكتب ترجمة . فكان هذا المعهد ، من وجوه عدّة ، أعظمَ المعاهد الثقافية التي نشأت بعد المتحف الاسكندري الذي ظهر في النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد . وقبل تأسيس بيت الحكمة كان بعض النصارى واليهود والمستحدثين من معتنقي الاسلام قد قاموا بتراجم متفرقة من تلقاء انفسهم . أما الآن ، في ايام المأمون وخلفائه، فتمركزت

الترجمة في هذا المعهد الجديد . ولقد دام عصر الترجمة هذا ما يقرب من قرن ابتداءً من سنة ٧٥٠ . ولما كانت الاراميّة (السريانية) لغة معظم المترجمين فقد نُقل كثير من الكتب اليونانية اليها اولاً قبل صوغها في العربية .

بيدَ ان الناقلين الى العربية لم يتعرّضوا للأدب اليوناني . ولم يكن هنالك من تماسّ بين العقلية العربية وبين درامة اليونان أو شعرهم أو تاريخهم . فبقيت السيادة في هذه الميادين للمؤثرات الفارسية. على ان نقطة البدء في خوض غمار التراث الفكري كانت الفلسفة اليونانية التي وضعها افلاطون وأرسطو وتوسع فيها رجال الفلسفة الافلاطونية الجديدة .

وكان شيخ المترجمين حُنين بن اسحق (٨٠٩ – ٨٧٣) وهو أحد أعاظم العلماء وأنبل بني عصره خُلقاً . وكان عِبادياً، والعِباد هم قوم من النساطرة أقاموا بظاهر الحِيْرة . وفي حداثته خدم الطبيب يوحنا بن ماسَوَيه بصفة صيدلي . وغضب عليه يوحنا يوماً فقال له « ما لأهل الحيرة والطب؟ عليك ببيع الفلوس في الطريق !» فخرج حُنَين باكياً وعزم على درس اللغة اليونانية . ومن الترجمات التي تُعزى الى حُنين ترجمة كُتب لجالينوس وأبقراط ودَيقوريدس فضلاً عن كتاب السياسة (الجمهورية) لأفلاطون والمَقُولات والطبيعيات والخُلقيات لارسطو . وتُعَدّ اهمّ مجهوداته ترجمتهُ لجميع مؤلفات جالينوس العلمية تقريباً الى اللغة السريانية فالعربية. وقد فُقدت لجالينوس كُتب سبعة في علم التشريح في أصلها اليوناني إلا انها لحسن الحظّ محفوظة في اللغة العربية . أما ترجمة

حُنين للعهد القديم من الترجمة اليونانية السبعينية فقد فُقِدت .

ومما يَشهد لحُنين بالبراعة في الترجمة ما رُوي من انه هو ومن معه من النَّقَلة كانوا يُرزَقون حوالي خمسمئة دينار في الشهر ، وان المأمون كان يعطيه من الذهب زِنَةَ ما ينقلهُ من الكتُب . على انه لم يبلغ ذروة مجدهِ كناقل بل كطبيب لما عيّنه الخليفة المتوكّل طبيبه الخاص . ثم ان المتوكل حبسه في بعض القلاع سنة كاملة لانه امتنع عن وصف دواء للخليفة يقتل به عدواً . ثم أحضرهُ وأعاد عليه القول وأحضر سيفاً ونطعاً فقال حُنين «قد قلت لأمير المؤمنين ما فيه الكفاية » . قال الخليفة « فاني اقتلك » . قال « لي ربّ يأخذ لي حقي غداً في الموقف الاعظم » . فتبسم المتوكل وقال له « طِبْ نفساً فاننا اردنا امتحانك » . ثم سأله « ما الذي منعك من الاجابة مع ما رأيتهُ من صدق الامر منا ؟ » . فأجابه حُنين «شيئان هما الدين والصناعة . اما الدين فانه يأمرنا باصطناع الجميل مع أعدائنا فكيف ظنك بالاصدقاء . وأما الصناعة فانها موضوعة لنفع أبناء الجنس ومقصورة على معالجتهم ، ومع هذا فقد جُعل في رقاب الاطباء عهدٌ مؤكّد بأيمان مُغلّظة ان لا يُعطوا دواءً قتالاً لاحد» ويقول مؤرّخ افرنسي حديث ان حُنَيناً كان أعظم شخصية في القرن التاسع .

ولم يكد عصر الترجمة ينصرم حتى كانت مؤلفات أرسطو الموجودة ، وكثير منها منسوب اليه خطأ ، قد اصبحت في متناول القارىء العربي . كلّ هذا واوربا لا علم لها بالأفكار والعلوم اليونانية . وبينا كان الرشيد والمأمون يتبحران في الفلسفة اليونانية والفارسية

كان أمثالهما في الغرب كشرلمان ونبلائه يحاولون اتقان الكتابة البسيطة . ولم تلبث مؤلفات ارسطو في علم البيان والمنطق وعلم الشعر وكتاب الايساغوجي لبُرْفِيروس ان تسنّمت مركزاً عالياً الى جانب الصرف والنحو كمتون للعلوم الانسانية في الاسلام ، ولا تزال تحافظ على مقامها هذا حتى اليوم . واعتنق المسلمون عقيدة المدرسة الافلاطونية الجديدة القائلة بأن تعاليم أرسطو وافلاطون هي واحدة أساساً . وتجلّت مؤثرات الافلاطونية الجديدة في الصوفية الى حدّ كبير . وتطرّقت الفلسفة الارسطية والافلاطونية الى الآداب اللاتينية عن طريق مؤلفات ابن سينا وابن رُشد فأنارت عقول فلاسفة المسيحيين في العصور الوسطى كما سنرى .

وتبعَ دور الترجمة الطويل هذا بما كان فيه من انتاج دورٌ آخر هو دور الابتكار والابتداع ، وسنتطرّق اليه في فصل آخر من هذا الكتاب . فلم يأتِ القرن العاشر حتى تحوّلت اللغة العربية ، تلك اللغة التي استعملتها الجاهلية اداةً للشعر فقط وعرفها المسلمون بعد محمد في الاصل لغة للوحي والدين ، نقول تحوّلت الى لغة جديدة عجيبة دقيقة البنيان سهلة المنال تُطاوع رغبة المرء في التعبير عن الفكر العلمي والافصاح عن الآراء الفلسفية ذات التعقيد . وفي الوقت نفسهِ أصبحت لغة السياسية والتخاطب الادبي من آسيا الوسطى الى شمالي افريقيا فالأندلس . ومنذ ذلك الحين واهل العراق وسورية ولبنان وفلسطين ومصر وتونس والجزائر ومراكش يُفصحون عن أسمى أفكارهم باللسان العربي .

مَنَاحِي حَيَاةِ العَامّة

قصر مؤرّخو العرب اهتمامهم على مشاكل دار الخلافة ، وعلى قيام السلالات الملكية وسقوطها وما اتصل بذلك من حوادث دموية معقّدة ، وعلى القوّاد والوزراء ورجال السياسة يومئذٍ وما اصابوا من انتصارات وما اصابهم من نكبات . لهذا لم يتركوا لنا صورة جليّة عن حياة العامة الاجتماعية والاقتصادية . غير انه يمكننا ان نستخلص صورة تعيننا على الأِلمام بهذه الحياة من وجهتيها الاجتماعيـة والاقتصادية من فقرات وَرَدت عرضاً مبعثرة في كُتُبهم ومن بعض مصادر أدبية وخصوصاً من درس الحيـاة العادية اليوم في الشرق الاسلامي الذي لم يتغير كثيراً عما كان عليهِ في الماضي .

تمتّعت المرأة في القرن التاسع بقسط وافر من الحرية يعادل

قسط المرأة التي سبقتها . ولكن في آخر القرن العاشر اصبحت أحكام الحجاب وعزل المرأة التام عن الرِجال معمولاً بها دونما هوادة . ولم تكن نسوة الطبقة العليا في اوائل العصر العبّاسي الوحيدات اللواتي كان لهنّ شأن وتأثير بليغ في سياسة الدولة بل كانت الفتيات العاديات يخرجن الى الحرب ويتولّين قيادة الجيوش وينظمن الشعر ويناظرن الرجال في الحِرَف الأدبية ، وطالما اتحفن المجالس بالنِكات والموسيقى والغناء .

وفي حقبة الانحطاط كثر التسرّي والانغماس في الملذّات وسقط مستوى الآداب الجنسية . فانحطّت منزلة المرأة الى أسفل الدركات التي نجد وصفها في « الف ليلة وليلة » وصارت تُعتبر مثال المكر والدّسيسة ومستودع الأفكار الرديئة والميول السّافلة .

واعتُبِرَ الزواج في الاسلام بوجه العموم واجباً محتماً فمن أهمله استحق اللّوم . وعُدّ الاولاد ولا سيما الذكور منهم هبةً من الله تعالى . أما الزوجة فاقتصر واجبها على خدمة بعلها والعناية بصغارها وتدبير شؤون منزلها . وما بقي عندها من فراغ فللغزل والحياكة.

ويظهر ان المثل العُليا للجمال النسائي عند العرب الأقدمين ، كما يُستدل على ذلك من تعابير الغزل والتشبيب الواردة في منظومات شعرائهم ، لم تتغير كثيراً . وقد أفرد النّوَيري جانباً ضافياً من من مؤلّفه « نهاية الأرب في فنون الأدب » للأقوال المعروفة في جمال أعضاء المرأة . فقدُود الغواني تُستحَبّ فيها قامة الخيزران . ومحيّاها افضلهُ ما كان كالبدر استدارةً . وشعرها اجودهُ ما حاكى الليل سواداً . واللّون أحبّهُ البياض مع حمرة في الخدّين ، وخال

كحبّة عنبر في صحن مرمر . وقد عشقوا في المقلتين السواد الشديد دون اثر الكحل . والكبيرة منها شبّهوها بعيون المهى ، والجفن شبّهوا به ناعساً سقيماً ، والمبسم صغيراً ترتبت الأسنان فيه كعقد اللؤلوء في مرجانه ، والنهدين كرمانتين ، والخصرين مرتبطين بردفين ثقيلين . والأصابع ارادوها مستدقّة الأطراف مصبوغة بالحنّاء .

وكان الديوان أهمّ قطع الأثاث في هذا الزمن وهو كناية عن أريكة للجلوس تمتدّ بحذاء ثلاثة جوانب من الغرفة . وكانت المقاعد المرتفعة على شكل الكراسي قد اتخذت في الدولة السابقة ، إلا ان المساند الملقاة على « طرّاحات » مربّعة موضوعة على الأرض يجلس عليها المرء القرفصاء مرتاحاً لا تزال رائجةً الى يومنا هذا . وكانت ارض الغرفة تغطّى بالطنافس المنسوجة باليد . وكان الطعام يُقدّم في أطباق نحاس واسعة مدوّرة على موائد واطئة امام الدّواوين او على الأرض مقابل الوسائد . وفي منازل الأغنياء كانت الأطباق تصنع من الفضّة ، والأخونة من الخشب المغشّى بالابنوس واللؤلوء او الصدف على طراز المصنوع اليوم في دمشق . هذا هو الشعب العربي نفسه الذي كان سابقاً في شظف العيش وخشونته يفاخر بأكل العلهز (وبر الابل مطبوخاً بالدم) والذي حسب أبناؤه الأرزّ لأول وهلة سمّاً وظنوا المرّقق من الخبز رقاعاً للكتابة . هذا الشعب تهيأت له الآن اسباب الحضارة فهذّبت شهوته للطعام المريء وجعلته يستطيب لذائذ المدنيّة فصار يأكل من طعام الفرس السّكباج (وهو مرق يعمل من اللحم والخلّ) والفالوذَج

(وهو حلواء)، واصبح دجاجه يُعلف الجوزَ المقشّر واللوز ويُسقى الحليب. وصارت منازله في الصيف تُبرّد بالثلج ومُرَطِّباته قِوامها الماء يُذاب فيه السكّر ويُعطّر بماء البنفسج والموز والورد او بعصير التوت. أما القهوة فلم ينتشر استعمالها حتى القرن الخامس عشر، وكذلك التبغ فلم يُعرَف قبل اكتشاف العالم الجديد. ونجد في «كتاب المَوَشّى» للوشّاء من ادباء القرن العاشر وصفاً للرجل الظريف الأديب في ذلك العصر. فالظريف كان يتحلى بالأدب الجمّ والمروءة والكياسة، يترفّع عن المزاح، ويعاشر اهل الصّلاح، يكره الكذب ويفضّل الصدق، ويفي بالمواعيد، ويكتم السرّ، ويرتدي الثياب النظيفة التي لا رُقَع فيها. وهو اذا جلس على المائدة جعل لُقَمَه صغيرة، فلا يُكثر من الضحك والكلام، ولا يُسرع في مضغ الطعام، ولا يلعق أصابعه، وهو يتجنب الثوم والبصل، ويتحاشى استعمال مسواك الأسنان في الخلاء والحمّام والمحافل العامة وعلى قارعة الطريق.

ولقد أسرف الناس في الشراب سرّاً وعلناً. ويُستدَلّ من قصص الدعابة والمجون في «الاغاني» و«الف ليلة وليلة» وسواهما من كُتُب الادب والشعر ومن الخمريّات التي نظمها الشاعر أبو نواس ان تحريم الخمر الذي شدّد عليه الأسلام لم يُلاقِ نجاحاً اكثر مما لاقى قانون تحريم المسكرات في الولايات المتحدة. فقد شرب الخمرَ الخلفاء والوزراء والامراء والقضاة غيرَ مبالين بتحريمه في الدين. وكان احبّ الخمور عند القوم المصنوع من عصير التمر.

وكان لمعاقرة بنت الحان حلقات تُسمى «مجالس الشرب» يأنس

اليها القوم . فكان المضيف وضيوفه يُعطّرون لحِاهم بالمسك أو ماء الورد ويرتدون أثواباً خاصة للمنادمة زاهية الالوان، وارجاء الغرفة تتضوّع فيها رائحة العنبر والندّ المشتعل . وكانت أكثر المغنيات اللواتي يحضرن هــذه المجالس من السبايا الخليعات كما تشهد بذلك القصص الكثيرة . فكنّ اكبر بليّة على اخلاق فتيان ذلك العصر. وتوصلت عامة الشعب الى الخمر في الاديرة ، وفي حانات خاصة كان يديرها على الغالب يهود . وكانت تجارة الخمر على الجمـلة في أيدي النصارى واليهود .

« النظافة من الايمان » حديث نبوي لا يزال شائعاً على الالسن في البلدان الاسلامية . ولم يكن في الجزيرة العربية حمامات فيما نعلم قبل محمد الذي قيل عنه انه استنكرها ولم يسمح لاحد بدخولها إلا للنظافة وعلى شرط ان يكون متّزراً. أما في هذا العصر الذي نلمّ به فقد كثرت الحمامات العمومية وراج ارتيادها ليس للوضوء فقط بل للهو والترف أيضاً . وأجيز للنساء دخولها في ايام معيّنة . وقد فاخرت بغداد في اوائل القرن العاشر بسبعة وعشرين الفاً من هذه الحمامات العمومية ، وكانت في زمن آخر ستين الفاً . وهــذان الرقمان وسواهما من الارقام التي نجدها في المصادر العربيـة لا رَيب مبالغ فيها . أما الرحالة المغربي ابن بطّوطة الذي زار بغداد سنة ١٣٢٧ فانه شاهد في الجانب الغربي من المدينة ثلاث عشرة محلة ، كل محلة فيها حمامان او ثلاثة من أبدع الحمامات مجهزةً بالماء الحار والبارد .

وكانت الحمامات يومئذٍ مثلها اليوم تحتوي خلواتٍ كثيرة مرصوفة بالفسيفساء مُطلى نصف حائطها مما يـلي الارض بالقار

والنصف الآخر الأعـــلى بالجصّ الابيض الناصع ، ومبنيّة حول ردهة واسعة عليها قبّة فيها ثقوب للنور . وفي كل خلوة حوض من الرخام فيـــه انبوبان للماء الحار والبارد . أما الغُرَف الخارجية فتُصطنع للاتكاء والاستراحـــة ولتناول المشروبات والاطعمة الخفيفة .

والالعاب الرياضية ، كالفنون الجميلة ، كانت في كل العصور من ميزات المدنية الاوربية الهنـدية اكثر من السامية . فابن الصحراء العربية اعتبر الرياضة الجسمية في حدّ ذاتها امراً سقيماً يتطلّب جهداً لا يتلائم مع حرّ الشمس الذي يتعرّض له في نهاره . ومن الالعاب الرياضية التي تعاطاها العربي في الخـــلاء الرماية والجوكان (لفظة فارسية معناها عصا معقوفة وهي « البولو ») والصولجان ولعب السيف والترس والجريد وسباق الخيل ، والصيد وهو اهمّها جميعاً . ومن المزايا التي وجب أن تتوفر في النّدَماء المهارةُ في الرماية والصيد ولعب الكُرة والشطرنج . وفي كل هذه الالعاب لم يكن من حَرَج على النديم فيما اذا ساوى سيده . ومن الخلفـــاء المغرمين بالجوكان المعتصم . وقد جعلَ يوماً الافشينَ قائدَه التركي في جهة وأقام هو في جهة فاستعفى الافشين قائلًا : « لا أرى أن اكون على أمير المؤمنين في جدّ ولا هزل » . وهنالك اشارات الى لعبـــة الطّبْطاب وهي خشبة عريضة يُلعب بها ولعلّها لعبة « التنس » في شكلها البدائي . والراجح ان اشتقاق اسم هذه اللعبة يرجع الى بلدة تِنّيس في الدلتا من اعمـــال مصر التي اشتهرت في العصور الوسطى بصنع القماش المعروف بهذا الاسم .

وإنما يدلنا على اهتمام العرب بهذه الضروب من اللهو ما نجدهُ من كتُب قديمة تبحث في موضوعات الصيد ونصب الشراك وترويض البزاة . وقد دخلت تربية البُزاة والبواشق واستعمالها للصيد الى الجزيرة عن طريق فارس كما تشير الالفاظ المستعملة لها . وشاعت على التخصيص في أواخر هذه الخلافة وفي عصر الحروب الصليبية . ولا يزال الناس في فارس والعراق وسورية يصطادون الباز والباشق على الطريقة الموصوفة في « الف ليلة وليلة » . وعلى الصياد المسلم ان يبادر الى ذبح فريسته قبل موتها وإلا حرّم عليه اكلها .

وكان الخليفة مع أفراد أسرته على رأس اصحاب المكانة الاجتماعية ، يتلوهم كبار الموظفين ومن لاذ بهاتين الفئتين من ضباط وحرس وأصدقاء مقربين وندماء وموالٍ وخدم .

وكان اكثر الخدم من الشعوب غير المسلمة يؤخذون قَسْراً أو يؤسرون في الحرب أو يُشتَرَوْن في السلم وفيهم الزنجي والتركي وآخرون من البيض . وكان معظم العبيد البيض من اليونان والصقالبة (السلاف) والارمن والبربر ومنهم الخصيان المُلحقون بالحريم خداماً . أما الغلمان وفيهم الخصيان ايضاً فكانوا موضوع عناية خاصة من اسيادهم الذين البسوهم حللاً جميلة على طراز واحد وجعلوهم يتزيّنون ويتطيّبون الى درجة التخنّث. واذا كانت بعض الكتب قد اشارت الى وجود الغلمان في عهد الرشيد فالراجح ان الامين كان اول من أنشأ نظام الغلمان في العالم العربي لغاية اللواط اقتداءً بالفرس . ولقد عاش في زمن المأمون قاضٍ افتُضح باللواط فجاهر باربعمئة غلام مُرْد حسان الوجوه كانوا له . ولم يستنكف

الشعراء كأبي نواس من النظم في المُرْد ومدح اللواط والمجاهرة بميولهم الجنسية الشاذة .

واتخذ سراة القوم الجواريَ من طبقة الأرقّاء مغنّياتٍ وراقصات وسراري . وكان لبعضهنّ تأثير محسوس في سادتهن من الخلفاء كذات الخال التي اشتراها الرشيد بسبعين الف درهم ثم هاجته الغَيْرة ذات يوم فوهبها أحدَ وصفائه . وعلق الرشيد جاريةً أخرى فأهدته زوجُهُ زبيدة عشر جوار لتُبعده عنها ، فولدت له احداهن المأمون وأخرى المعتصم . وكانت بعض هذه الجواري من المثقّفات الرّاسخة اقدامهن في العلم والأدب وتروي قصة خرافية في « الف ليلة وليلة » ان الرشيد عرض مئة الف دينار ثمناً لتودّد الجارية الجميلة الموهوبة بعد ان اجتازت بتفوُق إمتحاناً صعباً وضعه العلماء في الطبّ والفقه والفلك والفلسفة والموسيقى والرياضيات فضلاً عن علوم المعاني والبيان والنحو والشعر والتاريخ والقرآن . ويُعرف عن الأمين انه نظّم كتائبَ من الجواري الحسان فقصّ شعورهن والبسهن ثياب الغلمان وكسا رؤوسهن بالعمائم الحريرية فسُميْنَ الغُلاميّات . وقد راجت سوق هذه البدعة بين الخاصة والعامة من الناس . روى شاهد عيان انه دخل يوماً على المأمون في أحد آحاد الشعانين فرأى بين يديه عشرين وصيفة يونانية متزينات بالديباج يرقصنَ وفي اعناقهن صلبان الذهب وفي ايديهن اغصان الزيتون وسعَف النخل حتى اذا انتهت هذه الحفلة الراقصة أمر الخليفة بأن توزع عليهن ثلاثة آلاف دينار .

وتقول بعض المصادر انه كان للمتوكل اربعة آلاف سريّة

شاطرن فراشهُ وهو قول يصعب تصديقه . وجرت بين العمّال والقوّاد عادة اهداء الخليفة او الوزير هدايا تشتمل على الفتيات اللواتي يأخذونهنّ من الرعية و إلاّ حسب الخليفة تخلّفهم عن ذلك علامةَ العِصيان .

وكانت عامة الناس مؤلفة من طبقة عالية لها بعض مزايا الارستقراطية وفيها الادباء والعلماء والفنانون والتجار والصنّاع واهل المهن الحرّة ، وطبقةٍ سُفلى مؤلفة من سواد الشعب وهم الفلاّحون ورُعاة المواشي واهل الرِّيف وهؤلاء اهل البلاد الأصليون الذين اصبحوا الآن اهلَ الذمّة . ثم ان اتساع نطاق الامبراطورية وما وصلت اليه من علوّ في المدنيّة قضى بنشوء تجارة عالمية واسعة تقلّد زعامتها الباكرة النصارى واليهود واتباع زرادشت ، ليعود المسلمون بعدُ فيتفوّقوا فيها ، إذ انهم لم يزدروا التجارة بقدر ازدرائهم الزراعة . وما لبثت ان اصبحت مرافيء بغداد والبصرة وسِيراف والقاهرة والاسكندرية مراكز نشيطة للتجارة البرية والبحرية .

وقد توغّل التجار المسلمون شرقاً حتى الصين فاستجلبوا الحرير الصيني الفاخر ، وهو أقدم ما أتحف به الصينيون العالمَ الغربي . وقد سلكت هذه التجارة طريقاً عُرفت « بطريق الحرير العظيمة » مارّة بسمرقند وتركستان الصينية التي قلّ من يطرقها من المسافرين والسيّاح حتى اليوم . وكانت هذه البضائع تُنقل مرحلةً فمرحلة . وقلّ من القوافل ما قطع هذه المسافة كلها دون تبديل في الرّواحل .

وبلغت تجارة الاسلام مراكش واسبانيا غرباً . وقد فكر الرشيد بحفر قناة السويس قبل ده لسبس بألف سنة . ولكن العرب لم يبرّزوا في ميدان تجارة البحر المتوسط ولم تنل تجارتهم على شواطيء البحر الاسود فلاحاً ، مع ان القرن العاشر شهد لهم تجارة نشيطة في انحاء الفولكا شمالا . وكانت تجارتهم على شواطيء بحر قزوين نشيطة جداً لقربها من الاوساط الفارسية ومدن سمرقند وبخارى العامرة وغيرها من المدن الداخلية الآهلة بالسكان . وكان التجار المسلمون يحملون التمور والسكر والقطن والمنسوجات الصوفية والادوات الفولاذية والاواني الزجاجية ثم يعودون ومعهم امتعة كثيرةمن التوابل والكافور والحرير من اقاصي آسيا ،والعاج والابنوس والرقيق الاسود من افريقيا .

أما بعض الثروات في ذلك العصر فكانت لا تقل عن ثروات ملوك المال في عصرنا هذا . ولا ادل على ذلك من حكاية ابن الجصاص الجوهري ببغداد إذ ظل له من الثروة بعد ان صادر الخليفة المقتدر أملاكه ستة عشر مليون دينار ، وهو اول مُثرٍ في اسرة اشتهرت بعده بتجارة الجواهر . وكان الدخل الفردي لبعض تجار البصرة الذين نَقَلت بواخرهم البضائعَ الى الاصقاع النائية يُنيف على مليون درهم . واشتهر في بغداد والبصرة تاجر أمي صاحب مطاحن بتصدّقهِ اليومي على الفقراء بمبلغ مئة دينار . وكان التاجر العادي في سِيراف ينفق على داره اكثر من عشرة آلاف دينار في حين ينفق غيره من التجار ثلاثين الفاً . وأثرى الكثيرون من تجار البحر فبلغت ثروة الواحد منهم اربعةَ ملايين دينار .

ولولا الاهتمام بالصناعة الوطنية والزراعة لما بلغ التوسع التجاري هذا المدى . فازدهرت في كثير من انحاء الامبراطورية صناعة اليد، وانحصرت في آسيا الغربية صناعات حياكة السجاد والقطن والصوف والأطلس والاقمشة المطرزة والارائك وأغطية المساند وغيرها من قطع الرياش وأواني الطعام . واشتهرت أنوال الحياكة في فارس والعراق بصنع البسُط والمنسوجات الفاخرة . وكان لأم الخليفة المستعين سجادة صُنِعت خصيصاً لها بلغت نفقاتها مئة وثلاثين مليون درهم ، وعليها صور مختلفة فيها الطيور الذهبية ذات العيون من الياقوت وسواه من الاحجار الكريمة . وكان في بغداد حيّ يدعى بالعتّابي نسبةً الى امير أموي كان من قاطنيه . فاصبح النسيج المخطط المصنوع فيه والذي ظهر لاول مرة في القرن الثاني عشر يُعرف بذلك الاسم « العتابي » . ثم اخذ عرب الاندلس في تقليد حياكته حتى اشتهرت لفظة « تابي » في فرنسا وايطاليا وسواهما من اقطار اوربا الى ان دخلت اللغة الانكليزية التي تُطلق فيها هذه اللفظة على القِطط المخططة الجلد. وأنتجت الكوفة المناديل الحريرية لباساً للرأس وهي المعروفة ليومنا هذا بالكوفية . وكان في تُسْتَر والسوس بخوزِستان (سوزيانا القديمة) معامل عديدة شهيرة بزركشة الدمَقْس (وهو نسيج صنع أصلاً في دمشق) الموشى بالذهب ، والستائر المصنوعة من الخز . أما منسوجاتهم المصنوعة من وبر الابل والمعزى والأردية المصنوعة من الحرير المغزول فقد كانت كثيرة الانتشار . وأصدرت شيراز العباءات الصوفية المخططة والأقمشة الناعمة الشفافة والمنسوجات المقصبة . وكانت سيدات العصور

الوسطى الاوربيات يبتعن من الأسواق الحرير الفارسي المعروف بالتافته (وهي كلمة فارسية) .

أما زجاج صور وصيدا وغيرهما من مُدُن الشام فقد ضُرب المثل برقتهِ وصفائهِ . ولقد تحدّرت صناعة الزجاج هذه من الفينيقيين الذين برعوا بها وكانوا أقدم من تعاطاها بعد المصريين . وتعرّف الأوربيون الى هذا الزجاج عن طريق الحملات الصليبية فأصبح مثالاً لصنع الزجاج الملوّن الذي كانوا يزينون به كنائسهم. وشاعت الأواني الزجاجية الملونة من صنع الشام حتى صارت من لوازم المنزل والرفاهية ، فكثر الطلب عليها في البلدان العربية .

ومما يسترعي النظر ان صناعة ورق الكتابة دخلت البلدان العربية فى أواسط القرن الثامن من الصين عن طريق سمرقند . وكان وَرَق سمرقند التي استولى عليها المسلمون عام ٧٠٤ منقطع النظيربجودته . وقبل اختتام ذلك القرن شاهدت بغداد اول معمل للورق ثم تلته تدريجياً معامل أخرى . وظهر اول معمل للورق في مصر حوالي سنة ٩٠٠ او قبيل ذلك ، وفي مراكش سنة ١١٠٠ ، وفي اسبانيا حوالي سنة ١١٥٠ . ثم ظهرت ضروبٌ مختلفة من الورق منها الابيض والملون . ووصلت صناعة الورق إلى اوربا المسيحية خلالَ القرنين الثاني عشر والثالث عشر عن طريق الاندلس وايطاليا . وكان للورق اهميته الكبرى لا سيا عندما اختُرعت الطباعة بالحروف المتحرِكة بين عامَي ١٤٥٠ و١٤٥٥ اذ سهّل الاثنان انتشار العلم والتهذيب العام انتشاراً لا تزال اوربا واميركا تتمتعان الى اليوم بحسناته .

وانتعشت الزراعة في دور العباسيين الأوائل انتعاشاً محسوساً لان عاصمتهم بغداد قامت في بقعة خصبة من السواد ، ولانهم أدركوا ان الفلاحة تدر على الدولة اهمّ موارد الدخل،ولأن حراثة الارض وجني خيراتها كان معظمه في ايدي اهل البلادالاصليين الذين كانت قد تحسنت حالتهم نوعاً ما في عهد المسلمين . وعاود العمران المزارعَ المهجورة والقرى الخربة في انحاء الامبراطورية.وقد وجهت الحكومة المركزية عناية خاصة الى القسم الأسفل من وادي دجلة والفرات،وهو بعدوادي النيل اكثر البلاد خصباً حتى اعتبرته التقاليد البقعة التي قامت فيها جنة عدن. وقد ُشقت للماء أقنيةٌ من الفرات تألفت منها شبكة متسعة . أما ما يقوله جغرافيو العرب عن حفر الخلفاء للاقنية أو فتحهم للانهار فلا يؤخذ به بحرفه لان اكثر الاقنية التي ذكروها انما كانت أقنية أعاد الخلفاء حفرها أو فتحها ، ويرجع عهدها الى زمن البابليين القدماء . وقد انحصر الامر في العراق كما في مصر في حفظ الاقنية الراجعة الى عهد البابليين والفراعنة . ولما عهدت الحكومة العثمانية الى السر وليم ِولكوكس قبيل الحرب العالمية الأولى درس مسائل الري في العراق أشار في تقريره بتنظيف مجاري المياه القديمة وترميمها لا بشق مجار جديدة . ويجب ان لا يفوتنا هنا ان سطح الارض في السواد قد تغير كثيراً منذ ايام العباسيين ، كما ان دجلة والفرات قد تحول مجراهما عما كان عليه مراراً .

ومعظم الاشجار المثمرة والبقول التي تنبت اليوم في آسيا الغربية كانت معروفة لذلك العهد باستثناء التبغ والبطاطس والطماطم

وسواها من المزروعات التي دخلت البلدان العربيـــة في العصور الحديثة من العالم الجديد وبعض المستعمرات الاوربية النائية . أما شجرة البرتقال فكان منبتها الاصلي ، كالأترج والليمون الحامض ، في شمالي الهند او ملقة ، ومنها امتدت الى آسيا الغربيـة والبلدان المحيطة بحوض البحر المتوسط ، ثم دخلت اوربا عن طريق العرب في الاندلس . وفي هذا العصر ظهرت مزارع قصب السكر ومعامل تصفيتها المشهورة في ساحل الشام على طراز المعروف منها في الجهة الجنوبية الغربية من فارس . ومن الشام اخـــذ الصليبيون قصب السكر وأدخلوه مع السكر الى اوربا . وهكذا تدرجت بطريقهـا الى اوربا هذه السلعة الطيبة التي قد يرجع اصلها الى مقاطعة البنغال في الهند ، فأصبحت من العناصر الـــتي لا يُستغنى عنها في مآكل الانسان المتمدن اليومية .

وكان دخل الدولة الرئيسي من طبقة الفلاحـين ، وهم أكثرية الشعب واهل البلاد الأصليون وقد عُرفوا باهل الذمة لانهم كانوا قد دخلوا في عهد الأسلام . أمـــا العربي فاستنكف عن تعاطي الزراعة وحسبها دون مقامه . وكان اهل الكتاب في باديء الامر ، وهم المعروفون بأهل الذمة، يشملون النصارى واليهود والصابئة ثم ألحق بهم اتبـــاع مذاهب أخرى . وأقام الذميون في أريافهم ومزارعهم متمسكين بثقافاتهم الخاصة القديمة ومحافظـين على لغاتهم الأصلية . وقد احترم المسلمون على وجه العموم وضع أهل الذمة هذا على الرغم مما عانوه في بعض الحقب من الاضطهاد الديني .

أما في المدن فقد تقلد النصارى واليهود مناصب سامية فيدوائر

الحكومة من مالية وكتابية وغيرها من المهن . فأثار هذا غيرة المسلمين وحسدهم مما ادى الى سن شرائع تميز بين المسلم والذمي . الا ان هذه الشرائع بقيت « حبراً على ورق » ولم تنفذ الا في بعض الاحايين .

وكان عمر الثاني الخليفة الاموي المتدين اول من امر النصارى واليهود ان يرتدوا البسة تميزهم من المسلمين ، وحرمهم مناصب الدولة . والظاهر ان هذه الأحكام لم يعمل بها بعده الى ان جاء هرون الرشيد فأمر بتنفيذ بعضها . وقد بلغت المراسيم المتخذة ضد اهل الذمة اشدها في زمن المتوكل الذي امر في سنة ٨٥٠ و ٨٥٤ ان يضع النصارى واليهود على ابواب دورهم صور شياطين من خشب تفريقاً لمنازلهم عن منازل المسلمين وان يجعلوا قبورهم لا تعلو عن سطح الارض كي لا تشبه قبور المسلمين ، وأن يلبسوا الطيالسة (جمع طيلسان) العسلية وان يلصقوا رقعتين على ما ظهر من لباس مماليكهم مخالف لونهما لون الثوب الظاهر على ان تكون احداهما بين يدي المملوك عند صدره والاخرى على ظهره . ولم يرخّص لهم بركوب غير البغال والحمير وباتخاذ السروج من الخشب وبتصيير كرتين على مؤخر السروج . وقد أطلق على الواحد من اهل الذمة لقب « الأرقط » اعتباراً لهذا اللباس الذي أمروا باتخاذه . ومن اشد أنواع الحيف التي انزلت بالذميين ذلك المرسوم الذي أفتى به متشرّعو الاسلام في هذه الحقبة وهو ان شهادة النصراني واليهودي لا تقوم على مسلم ، مستندين الى ما جاء في القرآن من أن اليهود والنصارى حرّفوا الاسفار المنزلة ولهذا لا يمكن الوثوق بهم . ولكن

النصارى على الرغم من هذه القيود تمتعوا في ظل الخلافة بقسط وافر من الحرية . ويشهد على ذلك ما تذكره المدونات من مناظرات بين دعاة النصرانية وبين دعاة الاسلام في حضرة بعض الخلفاء من الامويين والعباسيين ومن تقلد بعض النصارى كرسي الوزارة في النصف الثاني من القرن التاسع . وكان كبار الموظفين من النصارى ينالون ما يناله زملاؤهم المسلمون من الاكرام والتبجيل . فنحن نقرأ مثلاً ان بعض المسلمين اعترض على تقبيل ايديهم . ومما يسترعي النظر والاعجاب ان النصرانية حازت في ظل الخلفاء من النشاط والحيوية قدراً كافياً أهاب بكنيستها الى التوسع وارسال المبشرين الى امصار بعيدة كالهند والصين . ولم يزل في مالابار بجوار مدراس الى اليوم كنيسة مسيحية تنتسب الى مار توما وترجع اصولها الى هذا العهد . وفي سيان فو من اعمال الصين اثر حجري نصب عام ٧٨١ يحمل اسماء ستة وسبعين مبشراً من الكنيسة السريانية .

ولقي اليهود ، وهم ممن دخلوا في عهد الاسلام ، من حسن صنيع المسلمين فوق ما لقيه النصارى على الرغم مما جاء في بعض الآيات القرآنية من التنديد بهم . وكان منهم في ازمنة عدد من الخلفاء غير واحد تبوأ اسمى المناصب في الدولة كما كان لهم في بغداد نفسها مستعمرة كبيرة ظلت مزدهرة الى ان سقطت هذه المدينة في يد المغول . ويروي بنيامين التطيلي الذي زارها سنة ١١٧٠ انه وجد فيها عشر مدارس للحاخامين وثلاثة وعشرين كنيساً اهمها كنيس مزدان بضروب الرخام ومجمل بالذهب والفضة . وأفاض هذا الرحالة في وصف الاحترام الذي اصابه رئيس الحاخامين من المسلمين الذين

اعتبروه سليل النبي داود ورئيس الملة اليهودية . وكان هذا الرئيس اذا خرج للمثول في مجلس الخليفة ارتدى الملابس الحريرية المطرزة وعمامة بيضاء تشع بالجواهر ، وأحاط بـه رهطٌ من الفرسان وسار أمامه ساعٍ يصيح بأعلى صوته « افسحوا درباً لسيدنا ابن داود » .

هذه هي صورة مصغّرة لحياة الناس في عهـد الخلافة وعلاقتهم بعضهم ببعض . وها نحن على عتبة المرحلة الثالثة في سلسلة الفتوحات العربية. كانت المرحلة الاولى هي المرحلةَ الحربية السياسية ،وكانت المرحلة الثانية هي المرحلة الدينية التي ابتدأت في القرن الاول من حكم العباسيين واعتنق خلالها السواد من سكان الامبراطورية الدين الاسلامي . أما المرحلة الثالثة التي سنبحثها في الفصول التالية فتمثل فوزَ اللغة العربية على لغات الشعوب المغلوبة . إلا ان هـذه المرحلة كانت أبطأ المراحل إذ أبدت فيها الشعوب المغلوبة أشد مقاومة ، مما يدل على انه اسهل على الناس التخلي عن كيانهم السياسي وعن دياناتهم إذا لزم الامر من التخلي عن لغاتهم .

والواقع انه تسنى للعربية الانتصار كلغةِ علمٍ قبل أن تسنى لها الانتصار كلغة تخاطبٍ . ولقد لاحظنا في الفصل السابق كيف تسربت مجاري التفكير في الثقافات اليونانية والفارسية والهندية الى بغداد في القرن التاسع فجاءت أساساً لظهور ثقافة جديدة . وبهذا أصبحت اللغة العربية أداة للتعبير عن المدنية العربية فكان ذلك بدء العصر الثقافي الذهبي في الاسلام .

العلوم والآداب

وصلنا الآن الى الحقبة التي أصبحت فيها اللغة العربية أداة للتعبير عن العلوم المستجدة كالطب والفلك والكيمياء والجغرافية والرياضيات فضلاً عن الفلسفة والتاريخ والأخلاق والأدب . ولقد ابتدأت هذه الحقبة في النصف الثاني من القرن التاسع على أثر عصر الترجمة الذي دام نحو قرن (٧٥٠ – ٨٥٠) ، فجاءت طافحة باعلام العلم والادب الذين نفحوا المدنية بالشيء الكثير من مبتكراتهم والذين لا يعرف الناس اليومَ منهم إلا نفراً معدودين.

لم يكتفِ العرب بالنقل والتقليد بل تعدوهما الى التكييف والتجديد . فهم لم يقنعوا باستيعاب تراث فارس الفني وتراث اليونان العلمي على ما كانا عليه بل حوروا التراثَين بموجب حاجاتهم الخاصة وطرق تفكيرهم . وبعد أن طُبع ما ترجموه بطابع العقلية

العربية في خلال قرون عدة انتهى أخيراً مع ما ابتكروه الى اوربا ،عن طريق سورية واسبانيا وصقلية ،فصار أساس العرفان الذي دان له الفكر الاوربي في القرون الوسطى . على ان نقل الافكار والعلوم ليس في تاريخ الثقافة بأحط مقاماً من الابتكار . فلو أن أبحاث ارسطو وجالينوس وبطليموس فقدت لافتقر العالم اليها وكأنها لم تكن قط . ويتعذر في غالب الاحيان وضع حد فاصل بين المترجم والمبتكر ، فمن المترجمين من كان مترجماً ومبتكراً في وقت معاً .

وكانت اهم مبتكرات العرب في الطب والفلسفة والفلك والرياضيات والجغرافية والكيمياء ، فضلاً عن التاريخ والشرع والادب . واهتمام العرب بعلم الشفاء يدل عليه الحديث النبوي المشهور : « العلم علمان علم الاديان وعلم الابدان » . وقد جمع الطبيب العربي الى علمه بالطب المعرفة بما وراء الطبيعة وأصول الفلسفة والحكمة . وخطا العرب في هذا العصر خطوات واسعة في الاستدواء بشتى العقاقير . فهم أول مَن أوجد حوانيتَ لبيع الادوية ، وأقدمُ من أسس مدرسة للصيدلة ، وصنّف في الاقراباذين رسائلَ . وكان يُفرض على الصيادلة والاطباء منذ زمن المأمون والمعتصم اجتياز امتحان خاص . وعلى إثر سوء تصرّف جرى من احد الاطباء أوعز الخليفة المقتدر عام ٩٣١ الى سِنان بن ثابت بن قرّة ، وهو طبيب مشهور ، ان يمتحن كل الاطباء ويعطي الاجازات الطبية لمن توفرت فيهم الاهلية فقط . فاجتاز الامتحانَ في بغداد ما ينيف على ثمانمئة وستين ، وبذلك تخلصت العاصمة من

الدجالين . ومما يدل على العناية بصحة أهل الريف ما أمر به علي بن عيسى الوزير في عهد المقتدر من ارسال بعثات من الاطباء تحمل الادوية وتطوف أنحاء البلاد تعالج المرضى والمعوزين . وكانت بعثة من الاطباء تتفقد السجون يومياً . فمن هذه الحقائق يظهر لنا اهتمام أولياء الامر بالصحة العامة وهو امرٌ لم يكن معروفاً في باقي اقطار العالم آنذاك . وفي مطلع القرن التاسع أسس هرون الرشيد أول مستشفى في الاسلام على الطراز الفارسي . ولم يطل الوقت حتى نشأ في العالم الاسلامي مستشفيات أخرى بلغ عددها اربعة وثلاثين. ولقد شاهدت القاهرة أول مستشفياتها في ايام ابن طولون حوالي عام ٨٧٢ فبقي الى القرن الخامس عشر . أما المستوصفات السيارة فقد ظهرت أولا في القرن الحادي عشر . وكانت في المستشفيات الاسلامية أجنحة خاصة بالنساء ، وكان لكل مستشفى مستوصف مخصوص بـه . وكانت بعضها مجهّزة بمكتبات وتقوم بتدريس بعض الموضوعات الطبية .

وأشهر المؤلفين في الطب الذين ظهروا على إثر عصر الترجمة رجال فارسيو القومية عربيو اللغـــة . ولاثنين منهم ، هما الرازي وابن سيناء ، اسمان تزدان بهما القاعـــة الكبرى في مدرسة الطب في باريس .

ولعلّ الرازي (٨٦٥ — ٩٢٥) أعظم الأطبـــاء وأشدّهم ابتكاراً وأكثرهم إنتاجاً ليس في الاسلام فقط بل في القرون الوسطى قاطبةً . ومما يُروى أن الخليفة استشاره في الموضع الذي يجب ان يُبنى فيه مستشفى بغداد العظيم الذي كان هو رئيس الطبابة فيه.

فأمر ان يعلّق في كل ناحية من جانبي بغـــداد شقة لحم ثم اعتبر الناحية التي لم يتغيّر ولم ينتن فيها اللحم بسرعة فأشار بأن يُبنى المستشفى فيها . والى الرازي ينسب اختراع الفتيلة في الجراحة .

ومن أهمّ ما وضعه في الكيمياء « كتاب الاسرار » الذي تداولته فيما بعد أيدي محررين عديدين. ولقد نقله الى اللاتينية جرارد الكرِمُوني Gerard of Cremona فظل مرجعاً رئيسياً لعلم الكيمياء حتى القرن الرابع عشر . واقتبس منه الفيلسوف الانكليزي المعروف روجر باكون Bacon .أما رسائله فأشهرها رسالته في «الجُدَري والحصبة » وهي أقدم ما كتب في هذا الموضوع ، وتُعدّ تحفةً في علم الطب عند العرب . ولقد نشرها الدكتور فانديك في بيروت عام ١٨٧٢ .

بيد أن اشهر مؤلفاته على الاطلاق « الحاوي » وهو كتاب جامع نقله الى اللاتينية فرج بن سالم الاسرائيلي سنـة ١٢٧٩ برعاية ملك صِقِلّية . وقد طبعَت هذه الترجمة مراتٍ أولها عام ١٤٨٦ في حين ظهرت طبعتها الخامسة في البندقية عام ١٥٤٢ . والكتاب كما يدل اسمه موسوعـــة طبية حوَت خلاصة ما كان في حوزة العرب من المعارف المستقاة من المصادر اليونانية الفارسية والهندية مع ما جاء به العرب انفسهم من الابتكارات الخاصة الطريفة . ولقـــد ظلت مؤلفات الرازي هذه – التي طبعت باللاتينية لما كانت صناعة الطباعة لا تزال في بدء عهدها – تسيطر على عقول اللاتين في الغرب قروناً عديدة .

وأشهر الأطباء العرب بعد الرازي ابن سينا ، وقد امتـــاز بمواهب باهرة فبرع في الطب والفلسفة والشعر والفقه . وألف كتباً

ورسائل كثيرة في هذه العلوم وغيرها . ويقال إن مؤلفاته ورسائله بلغت تسعةً وتسعين . أما مؤلفه الجليل « القانون في الطب » فقد كان موسوعة جامعة احتلت مقاماً سامياً في آداب ذلك العصر الطبية وأصبحت كتاباً مدرسياً تعتمد عليه دور العلم في اوروبا . وفي الثلاثين السنة الاخيرة من القرن الخامس عشر صدر « القانون » في خمس عشرة طبعة لاتينية وطبعة عبرانية واحدة . ولقد نُقل بعضه حديثاً الى اللغة الانكليزية . ومما يدل على سعة محتويات « القانون » ان قسماً منه يبحث في نحو سبعمئة وستين من العقاقير والأدوية . فلا عجب اذا أدرك هذا الكتاب تلك المنزلة التي أصبح فيها دليل طلاب العلوم الطبية في المشرق والمغرب حتى القرن السابع عشر . ولا يزال الناس في الشرق الاسلامي يستعينون به احياناً

وأول عمل خطير قام به العرب في علم الفلسفة هو التوفيق بين فلسفة اليونان والفكر الاسلامي . والفلسفة عند العرب هي معرفة مسببات الامور كما هي على قدر ما تستطيع الوصول الى تحقيقه قوى الانسان العاقلة . وهذه النظرة الفلسفية يونانية في جوهرها اخذها العرب بعد ان كانت قد تحورت بمؤثرات الشعوب المغلوبة وسواها من الشعوب الشرقية . فطبقوها على ميول الاسلام العقلية ونشروها عن طريق اللغة العربية . وحسِب العرب ان مؤلفات ارسطو حَوت مجمل التراث الفلسفي اليوناني كما حوت مؤلفات جالينوس مجمل تراث اليونان الطبي . واعتقدوا ان القرآن وعلم الألهيات الاسلامي حَوَيا مجمل الشرع والاختبار الديني . فشحذوا اذهانهم وأعملوها في الهامش المشترك بين الفلسفة وعلوم الدين وبين الفلسفة والطب ، فاتحفوا

العالم بمبتكرات قيمة . ومما يخلد مجد الاسلام في القرون الوسطى ان اتباعه كانوا اول من نجح في تاريخ الفكر البشري في التوفيق بين فكرة التوحيد – الاعتقاد بآله واحد وهو اسمى ما جاد به العالم السامي القديم – وبين الفلسفة اليونانية التي كانت اسمى ما جاد به العالم الهندي الاوربي القديم . وبذلك أرشد الاسلام اوربا المسيحية الى النظرة الحديثة في العلم والدين .

وكان العلم في العصور المتوسطة ، ولا سيما في العالم الاسلامي ، اقل تجزئة واختصاصاً مما هو عليه اليوم . فالفيلسوف مثلًا ربما كان رياضياً وموسيقياً ايضاً والفلكي قد يكون شاعراً . ولعل القارىء الذي يعهد عمر بن الخيام مؤلف الرباعيات شاعراً فارسياً ومفكراً حراً يذهل اذا سمع ان عمر كان رياضياً بارعاً وفلكياً ممتازاً . والكِنْدي الفيلسوف العربي المشهور لم يكن فيلسوفاً فقط بل كان عالماً بالتنجيم والكيمياء والبَصَريات واصول الموسيقى . وقد سعى ، شأن اصحاب الفلسفة الافلاطونية الجديدة ، الى مزج آراء افلاطون وارسطو والتوفيق بينهما ، وحسبَ الرياضيات التي خلفتها مدرسة فيثاغورس المتأخرة أساس العلم على الاطلاق . وقد نُسب الى الكندي ما لا يقل عن ٢٦٥ كتاباً اكثرها مفقود . ومن كتبه التي انتشرت في الشرق والغرب مؤلفه الفريد في علم البصريات وهو يستند الى مؤلف اقليدس في هذا العلم . وكان ممن تأثر بهذا الكتاب روجر باكون . ويستدل من رسائل الكندي في الموسيقى ان العرب عرفوا الأوزان الغنائية والقياسات الموسيقية قبلما عرفتها اوربا المسيحية بقرون .

وبدأت دراسة الفلك العلمية في الاسلام تحت تأثير كتاب هندي (السِّنْد هِنْد) اتى احدهم به الى بغداد في عام ٧٧١ . وفي مطلع القرن التاسع تمت أول أرصاد منظمة استخدمت فيها آلات دقيقة الضبط صُنعت في جنديسابور (من اعمال فارس الجنوبية الغربية) . وقبيل منتصف هذا القرن شاد الخليفة المأمون مرصداً في بغداد وآخر في ضواحي دمشق . وقد تجهزت المراصد في تلك الايام بآلات منها مقياس الارتفاع والأسطرلاب وساعة شمسية (مِزْوَلة) وكرة . ولقد أجرى فلكيو الخليفة المأمون عمليةً من أدق العمليات الجغرافية وهي قياس طول الدرجة الأرضية ، ورموا بذلك الى تحديد حجم الأرض ومحيطها على افتراض ان الأرض مدورة . والقياس الذي اجروه في سهل سنجار شمالي الفرات وكذلك بالقرب من تدمر أدى الى نتيجة جعلت درجة الطول ستة وخمسين ميلاً عربياً وثلثي الميل وهو رقم لا يزيد على الرقم الصحيح بسوى ٢٫٨٧٧ قدماً.

وكان على رأس العلماء الفلكيين الذين ساهموا في هذه العملية الخوارزْمي، وهو من اشهر رجال العلم في الاسلام ، وقد ترك اثراً بليغاً في الفكر الرياضي لم يتركه غيره في العصور الوسطى. وفضلاً عما قام به من جمع تقويم فلكي (زِيْج) وتنسيقه فقد أنشأ أقدم كتاب في الحساب وآخر في الجبر « حساب الجبر والمقابلة » وكلاهما منقول الى اللاتينية . ولقد بقي مؤلفه هذا في الجبر كتاباً مدرسياً رئيسياً للرياضيات في جامعات اوروبا حتى القرن السادس عشر . وبواسطته تطرّقت الى اوروبا مباديء علم الجبر ومعه اسم هذا العِلم الذي اقتبسته كل اللغات الاوربية عن العربية . والى مصنّفات

الخوارزمي أيضاً يعود الفضل في نقل الارقام العربية (التي يسميها العرب الارقام الهندية دلالة على الاصل الذي اتخذوها منه) الى الغرب .

وكان أعظم ما أسداه العرب إلى العلم بعد الطب والفلك والرياضيات مآثرهم في علم الكيمياء الذي لم يزل يحتفظ باسمه العربي في جميع اللغات الاوربية . ففي دراسة الكيمياء وسواها من العلوم الطبيعية أدخل العرب التجربة الموضوعية ، وهي خطوة تحسينٍ راهنٍ على تأملات اليونان الغامضة . إلا انهم على الرغم من اقتدارهم على ملاحظة المظاهر العلمية وجدّهم في جمع الحقائق وجدوا صعوبة في رسم النظريات السديدة واستخراج النتائج العلمية المحققة ، فكان هذا أضعفَ المواطن في طرق تفكيرهم .

وكان ابو الكيمياء العربية جابر بن حيّان الذي لمع نجمه في الكوفة حوالي ٧٧٦ . وقد وجه جابر اهتمامه إلى ما شُغِل به اسلافه في العلم من مصريين ويونان وهو حُسْبان ان المعادن السفلى مثل الحديد والنحاس يمكن تحويلها الى ذهبٍ أو فضة بواسطة مادة عجيبة جعل البحث عنها أمنيّتهُ الكبرى . ولجابر الفضل في أنه أول الكيماويين الذين نادوا باهمية البحث التجريبي وفي انه خطا خطوات واسعةً في سبيل التقدم الكيماوي من وجهتَيهِ النظرية والعملية . وتنسب اليه الروايات الغربية التقليدية الكشفَ عن عدة مركّبات كيماوية لم تذكرها المصنّفات العربية الاثنان والعشرون الباقية من المؤلفات المنسوبة اليه . والظاهر ان اكثر الكتب المئة التي تحمل اسمه في اللغتين العربية واللاتينية ملفق . ومهما يكن الامر فهذه

الكتب المنسوبة اليه أصبحت بعد القرن الرابع عشر أشد كتب الكيمياء تأثيراً في اوربا وآسيا . ومن المؤكد ان بعض ابحاثه العلمية تناولت التكليس (تحويل المعدن الى مسحوق أو رماد بواسطة الاحتراق) والتصفية . ولقد حسّن جابر في أساليب التبخر والتصعد والتصهير والتبلور . وعرف طريقة تحضير الحامض الكبريتي العَكِر وحامض النيتريك العَكِر وعول على إخراج الماء الملكي (حامض نيترو هيدرو كلوريك) من خليطهما الذي يمكن اذابة الذهب والفضة فيه . وعلى العموم فانه عدّل نظرية ارسطو في بسائط تركيب المعدن على اساس لم تدخل عليه تغييرات كثيرة الى أوائل عصر الكيمياء الحديث في القرن الثامن عشر .

ومما أهاب بالعرب الى دراسة الجغرافية حوافز دينية . منها فريضة الحج وتوجيه القِبلة نحو مكة في بناء المساجد وضرورة تعيين القبلة بالضبط كي يولي العابد عند الصلاة وجهه شطر الكعبة . كما ان علم التنجيم الذي يتطلب تعيين خطوط الطول والعرض لكل موضع في الارض حدا بارباته على الاعتناء بالجغرافية . ثم ان تجار الاسلام كانوا قد بلغوا بين القرن السابع والتاسع الصين في الشرق براً وبحراً، وانتهوا الى جزيرة زنجبار وأقاصي شواطىء افريقيا جنوباً، وتوغلوا في روسيا شمالا ، ولم تصدهم في اسفارهم غرباً إلا أمواج « بحر الظلمات » (الاتلانتيكي) . فكان للاخبار التي عادوا بها تأثيرها في إثارة اهتمام القوم للاطلاع على أسرار البلدان القصية والشعوب الغريبة . ونقلت « جغرافية » بطليموس الى العربية مراراً من اليونانية مباشرة ومن الترجمات السريانية . وعليها اعتمد

الخوارزمي الذائع الصيت في رسم خريطة دعاها « صورة الارض » ساهم في رسمها تسعة وستون عالماً . وهي اول خريطة في الاسلام تُظهر السماوات والارضين . وكان اول جغرافيي العرب قد اخذوا عن الهنـــد فكرة القول بان للعالمين مركزاً اسموه أرين تحريفاً لكلمة أوجيني (أوزيني في جغرافية بطليموس) وهو اسم بلدة هندية قام فيها مرصد فلكي على خط طول قالوا ان قبة الارض فيه، وان أرين هذا انما هو على خط الاستواء بين طرَفي الشرق والغرب. ومما اعتقدوه ان قمة خط الطول في الغرب إنما هي عـلى بعد تسعين درجة من هذه القبة الوهمية . واعتاد جغرافيو الاسلام عامة قياس خط الطول ابتداء من خط الطول الأول الذي عمل به بطليموس ، وموقعُه في الجزائر المعروفة اليوم بجزائر الكناري .

وكما اعتمد كتّاب العرب على اصول الفلسفة والطب عنـــد اليونان كذلك اعتمدوا على الاصول الفارسية في التاريخ والانشاء الادبي . أما أساليب التعبير فلم تخرج عن طريقـــة رواية الحديث الاسلامي . بمعنى ان كل حادثة كانت تُروى بلسان المحدثين من شهود العيان والمعاصرين ثم يتناقلها الحفاظ الى ان تصل الى راويها الاخير وهو المؤلف الذي يذكر سلسلة الاسانيد كلها . ولقد ساعد هذا على ضبط الحوادث وتعيين تواريخها بالشهر واليوم . إلا ان مبلغ صحة الرواية كان يقوم عندهم على مواصلة الاسانيد وعدم انقطاعها والثقة برواتها اكثر مما يقوم على نقد الواقعة ذاتها وتمحيصها . نعم ان المؤرخين تخيروا الثقات ورتبوا المدلولات غير ان اهتمامهم بتحليل هذه المدلولات ونقدها ومعارضتها وتمحيصها كان قليلاً .

ومع ان مؤرخي العرب الفوا كثيراً في أحداث ذلك الزمن فان فضلى معالجاتهم التاريخية انحصرت في الحديث او علم التقاليد الدينية . وفي خلال مدة القرنين والنصف التي عقبت وفاة محمد ازدادت الاقوال والاعمال المنسوبة الى النبي فتضخم المجموع منها وغزرت مادته . وكان كلما نشب خلاف في الأسلام بين فريق وفريق، سواء أكان دينياً ام سياسياً أم اجتماعياً ، حاول كل من الفريقين ان يؤيد دعواه بكلمة قالها النبي او حكم أصدره صحيحة كانت هذه الكلمة (أو هذا الحكم) أو ملفقة .

ولكل حديث قسمان : الأسناد والمتن . والمتن يتلو الاسناد ويتخذ شكل الاقتباس الحرفي : « حدثني فلان قال حدثنا فلان عن فلان عن فلان الخ قال ... ». وهذه الصيغة نفسها دَرَج عليها المؤلفون في كتابة التاريخ والادب . وفي كل هذه الموضوعات كان النقد عادةً سطحياً مقصوراً على التثبت من صدق الرواة .

ولم يكن في القرون الوسطى بعد الرومان احدٌ غير العرب عُنِيَ بعلم الشريعة فأنشأ لها نظاماً مستقلاً . والفقه عندهم مبني في الدرجة الاولى على القرآن والسُنة (اي الحديث) ولا شك في انه تأثر بالنظام اليوناني الروماني . وبواسطة الفقه اتصلت الشريعة ، أي أوامر الله المنزَلة في القرآن الموَضّحة في الحديث ، بالاجيال اللاحقة .

وفروض الشريعة الاسلامية تنظم للمسلم حياته من وجهاتها الدينية والسياسية والاجتماعية وتحدد علاقاته الزوجية والمدنية وشؤونه مع غير المسلمين . كذلك ادب السلوك يستمد التصديق

والنهي من لدن الشريعة التي تقسم أعمال الانسان الى خمسة ضروب هي (١) الفرض أي ما أوجبه الله بدليل قطعي يُجزى فاعله خيراً ويُعذب تاركه . (٢) المستَحَب مما يجزى فعله ولا يلام تركه . (٣) الجائز المبـــاح . (٤) المكروه الذي يُستَنكر ولو لم يعذب صاحبه . (٥) الحرام الذي يعذب فاعله .

والمؤلفات في علم الاخلاق المبنية على القرآن والحديث ، وان كثرت ، لا تستنفد كل ما في الآداب العربية مما يعنى بهذا العـــلم (الاخلاق) . وكانت هذه الفلسفات الاخلاقيه جميعاً تحبذ فضائل معينة كالزهد في الدنيا والقناعـة والتحمل ، وتحسب الرذائل عللاً نفسية بحيث يتطلع الفرد المسلم الى فيلسوف الاخـــلاق تطلعه الى طبيب الجسم . أما ترتيب هذه العلل فقد قام عـــلى تحليل القوى النفسية وإخراج ما لكل قوة من فضيلة أو رذيلة خاصة بها .

أما أدب اللغة العربية بمعناه الضيق فقد بلغ أوجه حوالي العام الالف للميلاد . وإذ قـــد تأثر بالادب الفارسي مال الى التعمل والتأنق . وهكذا زال الايجاز والاقتصاد اللفظي وبساطه العبارة التي اتصف بها ادب العصور الاولى وحل محلهـــا أسلوب الزخرفة والاناقة والتبسط في المجاز والاقبال على السجع . ومن أدب هـذه الحقبة انتقى الغرب كتاباً واحداً أولاه اهتمامه هو كتاب « الف ليلة وليلة» واصله قصص فارسية قديمة نقلها الى العربية الجَهْشِياري المتوفى عام ٩٤٢ . إلا ان القصاصين المتعاقبين أضافوا اليه قصصاً اخرى كثيرة . كما اضافوا اسم بطلة هـذه الروايات « شهرزاد » . وعلى تعاقبِ الاجيال ألحقت بهذه المجموعة حكايات كثيرة جديدة

من مصادر لا تحصى – هندية ويونانية وعبرانيـــة ومصرية وشرقية مختلفة الصفات والالوان . وتطرّق اليهـــا أيضاً نوادر ونكات وغراميات من بلاط هرون الرشيد . بيد ان المجموعـــة التامة لهذه القصص ، وهي المتداولة اليوم ، لم تتخذ شكلها الحاضر حتى القرن الرابع عشر . والواقع ان الاقبال على هذا الكتاب هو في الغرب اكثر منه في الشرق .

وفي الوقت الذي وضع فيه كتاب « الف ليلة وليلة » في شكله العربي الناجز كان عصر الاسلام الذهبي في العلم والادب قد انقضى. ولم يقم العرب بعد العصر العباسي بتقدم ملحوظ في ايما علم طبيعي. ولو اقتصر مسلمو عصرنا الحاضر عـــلى المؤلفات الاسلامية التي بين يديهم لوجدوا ان ما عندهم منها أقل بكثيرمما كان عند أسلافهم في القرن الحادي عشر . فكأن العرب وصلوا الى حد معين في علوم الطب والفلسفة والرياضيات والنبات وغيرها جمدت عنده قرائحهم ، وقعدوا منذ ذاك الحين لا يأتون بشيء غيرالمفاخرة بالماضي وتقاليده، سواء في الدين أو العلم ، مما قيد الفكر العربي بقيود محكمة . بيد ان العرب بدأوا يستيقظون في السنوات الاخيرة ويعملون عـــلى التفلت من هذه القيود .

الفنون الجميلة

إن شأن العربي في الفنون الجميلة كشأن سائر الساميين فله في فنه وشعره عناية خاصة بالدقائق وتقدير للتفاصيل وإحاطة بما هو نفسي موضوعي ، ولكنه بعيد عن المقدرة على موازنة الأجزاء المختلفة وضبطها وتنظيمها في كيان واحد شامل . وجهوده في الفنون كجهوده في العلوم انتهت باكراً الى حد من الارتقاء معلوم، وذلك في القرن العاشر ، لم تتجاوزه فيما بعد باستثناء الهندسة المعمارية والتصوير والخط .

والعصر الاموي مخلد في بناءين يعدان من أبدع ما أبقاه الفن الاسلامي وهما المسجد الاموي في دمشق وقبة الصخرة في بيت المقدس . ولكن صروح الابنية الرائعة التي ازدانت بها بغداد في العهد العباسي لم يبق لها اليوم من أثر خلا بناية المدرسة المستنصرية

التي شيدها الخليفة المستنصر عـــام ١٢٣٤ وهي اليوم مستودع للكمرك. فالخراب الذي جرّته الحرب الاهلية بين الأمين والمأمون والتدمير الذي أنزله بالعاصمـــة المغول سنة **١٢٥٨** وعوامل الفناء الطبيعية قد محت الأطلال والعمارات واصبح من المتعذّر اليوم تعيين مواقع معظمها بالتأكيد.

أما في غير بغداد العاصمة فأطلال العباسيين لا يمكن إرجاع عهد أقدمها الى ما قبل خـــلافة المتوكل (٨٤٧ – ٨٦١) باني الجامع العظيم في سامرّا الذي بلغت نفقته سبعمئة الف دينار، وهو قائم الزوايا تدل قناطر شرفاته المتعددة على تأثير هنـــدي . والآثار العباسية الباقية في الرقة (من اعمـال سورية الشمالية) التي ترجع الى آخر القرن الثامن، وفي سامرّا، تمتّ الى التقليد الأسيوي بنسب ولا سيما هندسة البناء الفارسية، على نقيض الابنيـة الاموية التي تحمل آثار الفن البيزنطي السوري.

ولقد جاء التعليم القرآني شديد الاستنكار لمعاقرة الخمر، بيد انه لم يستأصل عـادة الشرب في المجتمع الاسلامي. كذلك فأن عداوة الفقهاء لأنواع الفن التصويري لم تحُل دون ارتقاء هـــذا الفن على أساليب أسلامية. وقـــد قدّمنا أن الخليفة المنصور أقام على قبة قصره تمثال فارس ربما كانت الغاية منه الاستدلال على جهات الريح. وكانت للخليفة الأمـــين حرّاقات، على دجلة في شكل الأسود والعقبان وفيَلة الماء. وكان للخليفة المقتدر دار فسيحة ذات بساتين فيها شجرة وسط حوض ماء لها ثمانية عشر غصناً من الذهب والفضة. وكانت تقوم على كلّ جانب من هذا الحوض تماثيلُ خمسة عشر فارساً

يلبسون الحرير المدبّج ويتقلدون رماحاً تتحرّك على الاستمرار وكأنهم في وطيس معركة حربية. أما الخليفة المعتصم باني سامرّاً فقد زين جدران قصره بنقوش تظهر فيها أجسام نساء عارية ومشاهد للصيد لعلّها من عمل الفنانين النصارى. وفي عهد خلفه الثاني، المتوكل، بلغت هذه العاصمة الموقتة أوج مجدها. وقد استخدم المتوكل فنانين بيزنطيين لتزويق جدران قصره فلم يتورّع هؤلاء عن إضافة صور الكنائس والرهبان الى هذه التزاويق.

ان الفنون الجميلة، ومنها التصوير، لم تستعمل في الديانة الأسلامية كما هي الحال في الديانتين المسيحية والبوذية. فالاسلام قلما استخدم النحت والتصوير لمصلحته. وأقدم رسم يمثل النبي شاهده أحد السياح العرب في بلاط أحد امراء الصين، ولعله كان من رسم النساطرة. فهذا التصوير الاسلامي الديني المحـــدود لم يظهر كاملاً حتى اوائل القرن الرابع عشر. والظاهر انه مشتق من فن الكنائس الشرقية، وبالاخص اليعقوبية والنسطورية، ومتّبِـعٌ نمـاذجَ الزخرفة في الكتب.

وبمساعي الفرس الذين كانوا منذ اقدم العصور سادة فن الزخرفة والتلوين بلغت فنون الأسلام الصناعية درجةً راقية. فنمت حياكة السجاد، وهي تعود بقدميّتها الى زمن الفراعنة، وارتقت وخصّها المسلمون باظهار مشاهد الصيد والحدائق. واستعملوا حجر الشب في الصباغ لتثبيت الألوان. وكانت المنسوجات الحريرية المزخرفة من صنع أنوال المسلمين اليـدوية في مصر والشام موضوعَ إقبال اوربا حتى ان الصليبيين وغيرهم من أهل الغرب اختاروها دون سواها

لحفظ آثار قديسيهم .

وفي صناعة الفخـــار ، وهي فن آخر يرجـــع بقدميته الى عصور مصر القديمة وعصور سوسا ، أعاد المسلمون ثانية تمثيل صور الجسد البشري والحيوانات والنباتات والاشكال الهندسية والكتابية فبلغ هذا الفن أعلى درجة في الجمال بين الفنون الاسلامية . والآجر القاشاني المزوّق بانواع الزهور المألوف استعمالهـا دخل دمشق عن طريق فارس ، فذاع أمره وانتشر كما انتشر استعمال الفُسَيْفساء في زخرفة الابنية من الداخل والخارج . وقـــد امتازت الحروف العربية بقابليتها للزخرفة فأصبحت عاملًا كبيراً في الفن الاسلامي . وأتقن طلي الزجاج بالميناء وتغطيته بالذهب ولا سيما في انطاكيـة وحلب ودمشق وبعض المدن الفينيقية القديمة كصور . وفي خزائن متحف اللوفر والمتحف البريطاني والمتحف العربي في القاهرة قطعٌ فنية من سامرا والفسطاط فيها الصحون والاقـــداح والمزهريات والاباريق والقنـــاديل المستعملة في المنازل والمساجد مطلية طلياً زاهياً براقاً أو مصقولةً بمواد معدنية بهيئة تتماوج فيها ألوان قوس قُزَح .

وظهر فن الخط الذي يؤيده النص القرآني في القرن الهجري الثاني أو الثالث. ولقد استمدّ هذا الفن مكانته من نزوع أربابه الى تخليد كلام الله فاصبح فناً معززاً مرغوباً فيـــه . وهو فن أسلامي خالص ينشد فيه المسلم واسطة التعبير عما انطبع عليـــه من تذوق الجمال الذي حُظر عليـه التعبير عنه بواسطة التصوير .. وقد كان للخطاط مكانة وكرامة لم يتمتع بها المصور حتى ان الحكام أنفسهم

سعوا الى الحظوة الدينية بواسطة نسخ القرآن . ولقد حفظت لنا كتب التاريخ والادب العربية أسماء عدد من الخطاطين وأغدقت عليهم النعوت الطيبة بخلاف المهندسين المعماريين والمصورين وصناع الاواني المعدنية الذين سكتت هذه الكتب عن ذكرهم . ولعلّ فن الخط هو الفن العربي الوحيد الذي ظل مزدهراً الى يومنا هذا ، وله ممثلون من مسيحيين ومسلمين في القسطنطينية والقاهرة وبيروت ودمشق جاءوا بمنتجات تفوق في جمالها وأناقتها أحسن ما أخرجه الاقدمون .

وفنّ الخط وغيره من فنون الزخرف والتلوين وصناعة تجليد الكتب إجمالاً يعود الفضل في نشوئها وازدهارها الى علاقتها بكتاب الله . وقد وُلد فنّ زخرفة الكتب وتزيين المصاحف في عهد العباسيين وبلغ ذروته في القرن الخامس عشر .

ولم يحُل استنكار أهل الشرع لفنّ الموسيقى سواء أكان ذلك في دمشق ام بغداد دون انتشاره . وكان بلاط هرون الرشيد الزاهي شديد الاهتمام بهذا الفنّ ، شأنه في العلم والأدب ، فاجتمعت في جوّه كواكب الموسيقى المتألّقة . وقد زها في كنفه نفر من أقطاب الموسيقى أجريت عليهم الأرزاق يساعدهم عدد كبير من الجواري والعبيد . وقد كان لهذه الفئة الراقية من اهل الفنّ آثار لامعة من النوادر والقصص المبالغ فيها مما تخلّده صفحات « الف ليلة وليلة » . وفي الاخبار أنه اشترك في مهرجانٍ موسيقيٍّ الفان من هؤلاء المغنين والمغنيات تحت رعاية الخليفة الرشيد . أما ابنه الأمين فقد أحيى مرةً ليلة لهو رقص فيها اهل

البلاط ذكوراً واناثاً حتى مطلع الفجر .

ومن الذين خصّهم الرشيد برعايته المغني مُخارق الذي اشترته اول امره احدى المغنيات إذ سمعته ينادي بصوته القوي العذب على اللحم الذي كان يبيعه ابوه فأعجبت بصوتـــه . ثم صار الى حوزة الرشيد فاعتقه ووصله بمئة الف دينار وادناه من مجلسه . ذكروا انه توسّط في إحدى الليالي دجلة واندفع يغني بأعلى صوته فما بقي أحد من سامعيه إلا بكى . وظهرت الشموع والسُرج من جانبي دجلة في صحون القصور والدّور تتساعى بين أيدي اهلها يستمعون غناءه .

وكان مُخارق وسواه من ارباب فنّ الموسيقى في تلك الأيام البعيدة من ندماء الخلفاء الذين خُلدت اسماؤهم . فقد حبتهم الطبيعة فضلًا عن الفن سرعة الخاطر وقوة الذاكرة فاستظهروا الكثير ممـا رقّ من الأشعار ولذّ من النوادر والفكاهات . فهم اذاً مغنّون ونظّامون وشعراء ورجال علم على السواء . ويقع دون مرتبتهم الآلاتيّون الذين فضّلوا العُود على غيره ، ثم اولئك الذين استعملوا الرّباب . وتلت هؤلاء طبقـــة المغنيات اللواتي لعبن أدوارهن في الخفاء وراء الستار فأصبحنَ من لوازم الزينة في بيوت الحريم ، وغدا لتربيتهن وتثقيفهن صناعة هامة رائجة . وقد ربّى أحدهم جارية حتى برعت فجاءه رسول صاحب مصر فبذل فيها عشرة آلاف دينار . وساومه رسول امبراطور الروم عليها بثلاثين الفاً . ثم أوصلهـــا رسول صاحب خراسان الى اربعين الفاً ، فما كان من مولاها إلا ان اعتقها وتزوجها .

ومن الكتب الكثيرة التي نُقلت في العصر العباسي الذهبي طائفة

عُنيت بتاريخ الموسيقى النظرية . ومن هذه استمد الكتّاب العرب آراءهم العلمية الأولى في الموسيقى فنشأت لهم ثقافة قائمة بذاتها في مباديء نظرية الصوت الطبيعية والفسيولوجية . أما من الناحية العملية فان نماذجها عربية بحتة . وفي هذه البرهة اقتبس العرب عن اليونان لفظة موسيقي (وتُكتَب الآن موسيقى) فأطلقت على مناحي هذا العلم النظرية . وخُصِصت لفظة الغناء القديمة — وقد كانت الى ذلك العهد تفيد الغناء والموسيقى — للفن العَمَلي . أما لفظة « قيثار » و« أرغن » وغيرهما من التعابير الفنية فهي من اصل يوناني . والمعلوم ان الأرغن جيء به من بلاد البيزنطيين .

ومما يؤسف له ان معظم هذه الرسائل الفنية ُفقدت في لغتها الأصلية . والموسيقى العربية بعلاماتها وعنصريها المكوّنين لها، النغَم والاِيقاع ، كانت ُتنقل من جيل الى جيل شفهياً الى ان تلاشى أمرها . فالأغاني العربية فقيرة بالأنغام غنية بالاِيقاع . وليس بين أرباب الموسيقى العربية الحديثة مَن يستطيع شرح الكتب القليلة الباقية في موضوع الموسيقى الكلاسيكية شرحاً وافياً وتفهّم ما قصده السّلف بعلامات إيقاعهم أو تعابيرهم العلمية. وفي مقدمة هذه الكُتب « كتاب الموسيقي الكبير » للفارابي التركي الأصل المتوفى بدمشق عام ٩٥٠ .

قرطبة جوهرة العالم

وفيما كان القسم الشرقي من الامبراطورية الاسلامية ينعم بعصره الذهبي كان القسم الغربي منها في الاندلس يتمتع بما لا يقل عن ذلك اشراقاً وقيمةً . وهذا العهد الاندلسي يهمنا لان الثقافة العربية تقدمت في اسبانيا المسلمة تقدماً لا مثيل له وتخللت الثقافةَ المسيحية في أوائل العصور الوسطى . فكان من نتيجة ذلك النهضةُ الاوربية الحديثة التي لم يزل أبناء الغرب ينعمون ببركاتها الى اليوم . وقد ازدهرت المدنية الاسلامية في الغرب وبلغت ذروة مجدها ما بين القرن التاسع والحادي عشر . وعلينا قبل ان نسبر غور هذه المدنية ان نعود بقصتنا هذه الى عام سبعمئة وخمسين .

في ذلك العام كما أشرنا آنفاً قضى العباسيون على الدولة الاموية في دمشق . وما كاد يتربع هؤلاء في كرسي الخلافة حتى اخـــذوا

يطاردون اعضاء البيت الاموي ويُعدمون كل من استطاعت ايديهم الوصول اليه .

وكان من الافراد القلائل الذين نجَوا بارواحهم عبد الرحمن بن معاوية حفيد هشام عاشر خلفاء دمشق . وكان عمره عشرين عاماً وهو شاب طويل القامة نحيف الجسم اقنى الانف بارزه خفيف العارضين أحمر الشعر يزدان بصفات الحزم والاقدام والطموح . تدرج بطريقه الى اسبانيا متغلباً على الصعاب ، وحارب من فيها الى ان اصبح سيدها المطاع . فاحتفظ هنالك بسلطة السلالة الاموية التي كان قد قضي عليها في الشرق .

وقصة نجاة عبد الرحمن من الموت تمثل دوراً روائياً رائعاً . كان في احد الايام مختبئاً في مضرب خيام للبدو على ضفة الفرات واذا بفوارس العباسيين يحملون الرايات السود ويقتربون من المكان. ففرّ للحال ورمى بنفسه الى النهر واجتازه . أما اخوه وهو ابن ثلاثَ عشرةَ سنة فعجز في نصف الفرات عن السباحة وعاد الى مُطارديه مغروراً بالأمان. فأمسكوه وقتلوه وعبد الرحمن ينظر اليهم . ثم توارى في غيضةٍ حتى انقطع عن النظر .

هام عبد الرحمن على وجهه متنكراً دون مال أو اصدقاء. وسار مترجلاً جنوباً الى ان وصل فلسطين بعد صعوبات جمة . وهناك لحق به بدرٌ مولاه الوفي القدير فتوجه كلاهما غربا حتى وصلا شمالي افريقيا . وألحّ عامل افريقيا في طلبه فهرب منه غريباً معدماً يتنقل مع بدر من قبيلة الى أخرى وجواسيس الدولة الجديدة تجدّ في طلبه الى ان وصل سبته بعد خمسة اعوام . وكان اخواله وهم من

البربر يقيمون في تلك الانحاء . فلجأ اليهم فاحسنوا وفادته .

واتصل عبد الرحمن بالجيوش السورية المقيمة في الجهة الجنوبية من الاندلس عبر المضيق في الجهة المقابلة لسبته ، فبايعوه بالزعامة. وسار على رأسهم متوغلاً في البـــلاد فاخذت المدن الواحدة بعد الاخرى تسقط في يديه . وثابر على الجهاد بضع سنوات قبل ان خضعت له اسبانيا المسلمة كلها .

وفي وطيس احدى المعارك عَرَفَ شرلمان ملك الفرنجة بمـــا اتصف به عدوه الجبار عبد الرحمن من شدة ومقدرة . وكان شرلمان هذا بمثابة حليف للخليفة العباسي وعدو طبيعي لعبد الرحمن الامير الجديد المتغلِّب في اسبانيا . فبعث شرلمـان بجيشهِ في عام ٧٧٨ قاطعاً تخوم اسبانيا وتوغل في الجهة الشمالية من البـلاد حتى وصل سَرَقُسْطة . الا ان الجيش اضطر الى الانسحاب عندمـا اغلقت هذه المدينة ابوابها في وجهه وهدّد اعداء امبراطوريته الداخليون سلطة شرلمان في بلاده . وقد هاجم مؤخرةَ جيشه المتراجـــع في مضايق البرانس اهــــالي بلاد البشكنش (Basques) وغيرهم من الجبليين فأصيب جيش الفرنجة بخسائر فادحة في الرجال والمتاع . ومن القواد الذين قُتِلوا رولان الخالد الذكر في الاشعار المعروفـة بأغنية رولان Chanson de Roland وهي اول ملحمة في الادب الفرنسي بل في آداب الاجيال المتوسطة الاوربية .

ولكي يضرب على ايدي مناوئيه اضطر عبد الرحمن الى انشاء جيش منظم مدرّب قِوامه اكثر من اربعين الفاً من البربر المرتزقة. وقد تمكن من الاحتفاظ بولاء هذا الجيش بما كان يغدقه بسخاء على

افراده من الاعطية . وفي سنة ٧٧٣ أبطل الخُطبة باسم الخليفة العباسي ولكنه لم يتخذ لنفسه لقب خليفة . وقد اكتفى هو ومن خلَفهُ الى ايام عبد الرحمن الثالث (٩١٢ - ٩٦١) بلقب امير او سلطان . وكانت الاندلس في عهد عبد الرحمن الاول اول الامصار التي خرجت على سلطة خليفة المسلمين .

وبعد ان وحّد عبد الرحمن مملكته ونشر لواء السلام الموقت عليها وجّه اهتمامه نحو السلم حيث اظهر مقدرة تعادل مقدرته في الحرب . فجمّل مدن مملكته وابتنى للماء العذب قناة تحمله الى العاصمة التي احاطها بسور . وشيّد دارة (فيلاّ) الرّصافة في ظاهر قُرطبَة على نمط القصر الذي كان سلفه هشام قد بناه في الشمال الشرقي من الشام، وجر الماء الى هذه الجنة الغناء وأدخل فيها النباتات الاجنبية كالدراق والرمان . ورُوي انه جاء بنخلة من الشام فلما رآها منفردة بالرصافة انشد من نظمه :

تبدّت لنا وسطَ الرصافة نخلةٌ تناءت بارض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرّب والنوى وطول التنائي عن بَنِيَّ وعن اهلي
سقتكِ غوادي المزن من صوبها الذي يسحُّ ويستمري السماكين بالوبل

وأسس عبد الرحمن قبل وفاته سنة ٧٨٨ بعامين جامع قُرطبة العظيم مُضارعاً به جامعي الاسلام الكبيرين في بيت المقدس ومكة . فاصبح هذا الجامع بعد ان انجزه خلفاؤه ووسعوه قبلة المسلمين في الغرب . وفي عام ١٢٣٦ تحوّل هذا الاثر الرائع بأعمدته القائمة المصطفة بتلاحق وتناسق كأنها غابة كثيفة وبهوه الخارجي الفسيح الفخم الى كاتدرائية مسيحية لا تزال باقية الى يومنا هذا

باسم « لامسكيتا » La Mezquita تحريفاً للفظـــة « المسجد » . وفاخرت قرطبة عواصم العالم بهذا الجامع وبجسر قائم على الوادي الكبيرجرى توسيعه من بعد فصار يقوم على سبع عشرة قنطرة. ولم تنحصر جهود مؤسس الدولة الاموية في الاندلس في مصالح رعيتـه المادية بل تعدتها الى المعنويات . فعبد الرحمن بذل قصارى جهـده محاولاً تشكيل امة واحدة من مختلف عناصر الدولة من العرب والسوريين والبربر والنوميديين والعرب الاسبانيين والقوط . الا انها كانت محاولة عسيرة بعيدة التحقيق. والحق ان الفضل يعود اليه من وجوه كثيرة في نشوء الحركة الفكرية التي جعلت اسبانيـــا المسلمة من القرن التاسع الى القرن الحادي عشر احـــد المركزين الهامين في الثقافة العالمية .

وكان البلاط الخليفي في ايام عبد الرحمن الثالث، وهو الشخصية الثانية البارزة في السلالة الاموية في الاندلس ، من افخم ما عرفته اوربا . فقد جاءت اليه رُسل امبراطور بيزنطية وسفراء ملوك المانيا وايطاليا وفرنسا . وبلغ عدد سكان العاصمة قُرطبة نصف المليون . وكان فيها سبعمئة مسجد وثلاثمئة من الحمّامات العمومية. ولم يكن يفوقها في الفخامة من المدن سوى بغداد والقسطنطينية . وكان قصر الخليفة فيها يضم بين جدرانه اربعمئة غرفة ومقصورة يسكنها الوف الرقيق والحرس . وهو قائم في الشمال الغربي من المدينة على احدى هضاب جبل الشارات (سِيَرّا مورينا) المشرف عـــلى الوادي الكبير. وكان عبد الرحمن قد شرع في بنائهِ عام ٩٣٦ بمال خلّفته ، على ما تقول الاساطير ، احدى جواريه الـتي اوصت ان

ُينفق هذا المال لافتداء الأسرى من ايدي النصارى . ولما لم يجد عبد الرحمن منهم احداً عمل بنصيحة جارية اخرى اسمها الزهراء وابتنى هذا الصرح وسماه باسمها وجاء بالرخام له من نوميديا وقرطجنة . اما الاعمدة والاحواض المزدانة بالتماثيل المذهبة فقد اسُتجلب بعضها من القسطنطينية والبعض الآخر جاءه هدية من امبراطورها. واشتغل في بناء الزهراء عشرة آلاف صانع والف وخمسمئة دابة مدة عشرين سنة . وقام الخلفاء الذين جاءوا بعد المنصور فوسّعوا الزهراء وحسنوها حتى اصبحت نواة لضاحية ملكية عامرة لم تزل آثارها ماثلة الى الآن . وقد اجريت الحفريات في قسم منها عام ١٩١٠ وفيما بعده .

وفي الزهراء هذه احاط الخليفة نفسه بحرس من الصقالبة عدده ٣٧٥٠ رجلاً يقومون على رأس جيش نظامي بلغ مئة الف . وكان هؤلاء الصقالبة في اول الامر اسرى من قبائل السلاف قبض عليهم الالمان وسواهم فباعوهم من العرب. ثم اطلِق هذا الاسم على جميع الاجانب الذين اشتراهم العرب سواء أكانوا من الفرنجة ام الجليقيين أو اللامبارديين وكانوا عادة يؤخذون أحداثاً ثم يستعربون . وبمساعدة هؤلاء « الانكشارية » أو « المماليك » في اسبانيا استطاع الخليفة القضاء على الخونة وقطاع الطرق وإضعاف نفوذ الارستقراطية العربية القديمة . لذلك زهت سوق التجارة والزراعة وتضاعفت موارد الدولة فبلغ دخل خزانة الخليفة ٦٫٢٤٥٫٠٠٠ ديناراً. فكان ثلث هذا المال يُنفق على الجيش وثلثه على المشاريع العامة والثلث الاخير يدخر رصيداً احتياطياً . ولم تعرف ُقرطُبة

من قبل مثل هذا الرخاء . ولم تحز الاندلس قط مثل هذه الثروة . ويعود معظم الفضل في ذلك كله الى مقدرة رجل فرد عاش ثلاثاً وسبعين سنة وصرّح في اواخر ايامه انه لم يصفُ له من الدنيا إلا اربعة عشر يوماً .

كانت السلطة في العالم الاسلامي في عهد كلٍ من دوله متقلقلة متزعزعة . ففي اسبانيا احتفظت الدولة الاموية بالسلطة الاسمية منذ فرضها عليها عبد الرحمن الاول . غير انه لما ارتقى العرش عبد الرحمن الثالث عام ٩١٢ كانت الاضطرابات الاهلية والثورات القَبَلية وعدم كفاءة الامراء في السياسة العامة فعلت مفعولها في هذه الدولة فتقلصت ولم يبقَ منها الا قرطبة وضواحيها .

وخلف عبدُ الرحمن الثالث هذا جدّه عبد الله، وعمره ثلاثة وعشرون عاماً . وكان كسلفه ذا عزم ومضاء وفطنة . فنشط لاسترداد الضائع من الامصار فاخضع المقاطعة بعد الاخرى وادار الشؤون بحنكة ومقدرة . ودام حكمه نصف قرن(٩١٢- ٩٦١) وهو من اطول مدات الحكم في تاريخ الخلافة . وكان أهم حادثة سياسية في اوائل عهده إصداره امراً بان تكون الخطبة ابتداء من يوم الجمعة في ١٦ كانون الثاني سنة٩٢٩ باسمه خليفةً واميراً للمؤمنين لا باسم الخليفة العباسي . وبه ابتدأت الخلافة الاموية في اسبانيا . وفي عهده وعهد خلفه الحَكَم الثاني (٩٦١ — ٩٧٦) وتحت ادارة حاجب المملكة الملقب بالمنصور (٩٧٧ — ١٠٠٢) بلغت السلطة الاسلامية في الغرب اوج مجدها . وفي هذه الحقبة تسنّمت العاصمة الاموية قرطبة مركزاً سامياً جعلها أعظم مدن اوربا ثقافةً ،

فإصبحت مع القسطنطينية وبغداد احـــد المراكز الثلاثة للثقافة العالمية . واعتزت بما احتوته إذ كان فيها مئة وثلاثة عشر الف دار، وواحد وعشرون رَبَضاً (ضاحية) وسبعون مكتبة ، وحوانيت شتى تباع فيها الكتب ، ومساجـد وقصور . فحازت بذلك شهرة عالمية ، واخذت من اهل الاسفار بمجامع القلوب، ونعمت بشوارع طولها اميال مضاءة بقناديل المنازل المحاذية ، في حين ان لندن لم يكن فيها قنديل واحد عمومي الى بعد سبعمئة سنة . أمـا باريس فظلت قروناً بعد ذلك كان الذي يتخطى فيهـــا عتبة داره في يوم ماطر لا يأمن من الخوض في لجّة من الوحل .

أما وجهة نظر العرب الى الاوربيين في الشمال – الجرمان النورديين – وغالبهم همج فيمكن الاستدلال عليها مما قاله صاعد بن احمد القاضي الطُلَيْطُلي المتوفى عام ١٠٧٠ :

« فافراط بعد الشمس عن مسامتة رؤوسهم برّد هواءهم وكثّف جوّهم، فصارت لذلك امزجتهم باردة وأخلاطهم فجّة ، فعظمت ابدانهم وابيضّت الوانهم وانسدلت شعورهم ، فعدموا بهذا دقـة الافهام وثقوب الخواطر ، وغلب عليهم الجهل والبلادة ، وفشا فيهم العمى والغباوة . »

وكان أمراء ليون أو نافارا وبرشلونة اذا احتاجوا جرّاحاً أو مهندساً أو مغنياً أو خياطة ولّوا وجوههم شطر قرطبة . فـــذاع صيت العاصمة الاسلامية حتى اقاصي المانيـــا حيث وصفت راهبة سكسونية قرطبة بانها « جوهرة العالم » .

وكانت اسبانيا في عهد الخلافة أوفر بلدان اوربا ثروةً واشدها ازدحاماً بالسكان . وتباهت العاصمة بنحو ثلاثـة عشر الف حائك

وبصناعة راقية للجلود. ومن اسبانيا سرت صناعة صبغ الجلود وتزيينها بنقوش بارزة الى مراكش ، ومن هذَين القطرين انتقلت هذه الصناعة الى فرنسا وانكلترا . اما الحرير والصوف فكانت الانسجة تحاكُ منهما ليس في قُرطبة فقط بل في مالَقَة والمَرِية وسواهما من العواصم. وكان اهل الصين قد احتكروا صناعة الحرير الى ان ادخل المسلمون الى اسبانيا صناعة تربية دود القزّ حيث زهت وازدهرت وكانت ألمريّة تُنتج الاواني الزجاجية والنحاسية . أما موطن صناعة الخزف فكان في باترْنا من اعمال بَلَنسِية . واشتهرت جِيان والغرب بمعادن الذهب والفضة كما اشتهرت قُرطبة بالحديد والرصاص ومَالقَة بالياقوت . وكانت طُلَيْطُلة كدمشق معروفة في كل اقطار المعمور بسيوفها . اما فن ترصيع الفولاذ وسواه من المعادن بالذهب والفضة وتزويقها بصور على شكل الزهر ، وهو فنّ منقول من دمشق ، فقد زها في بضعة مراكز اسبانية واوروبية وتركَ اثراً في اللغة تدل عليه الفاظ في اللغات الاوربية الحديثة محرّفة عن لفظة دمشق .

ولقد ادخل العرب الى اسبانيا الاساليبَ الزراعية المتعارَفة في آسيا الغربية . فاحتفروا الترع وادخلوا أجناساً جديدة من العنب وجاؤوا بنباتات واثمار منها الارز والبرقوق (المشمش) والفِرْسِك (الدراق) والرمان والبرتقال وقصب السكر والقطن والزعفران . وكانت سهول الجنوب الشرقي من اسبانيا قد خصتها الطبيعة بأقليم معتدل وتربة صالحة، فنشأت فيها مراكز هامة للزراعة في المدن والارياف. ونمت فيها كل انواع الحبوب وكذلك الزيتون

وانواع الفاكهة بعهدة الفلاحين الذين قاموا على جني الارض مقابل حصص يتقاضونها من الملاكين .

ويُعَد هذا الرقي الزراعي من مفاخر الاندلس. ومن اثار العرب الخالدة في الاراضي الاسبانية الحدائق التي لا تزال الى يومنا هذا محافظة على الصبغة العربية . ومن اشهر الحدائق « جنة العريف » وهي من آثار الدولة النصرية في أواخر القرن الثالث عشر وكانت ملحقة بدار فخمة في اطراف الحمراء . وكانت هذه الجنّة على ما وصفها ابن الخطيب « المثل المضروب في الظلّ الممدود والماء المسكوب والنسيم البليل » . وقد ترتّبت اقسامها شرفات فظهرت كأنها مُدَرّج (امفِثياتر) بديع التنسيق ترويها مياه الجداول التي تتساقط في عدة شلاّلات ثم تتوارى بين الزهور والادغال والاشجار . وهي لا تزال الى اليوم عبارة عن مجموعة باذخة من السرو والآس .

وفاضت حاصلات الاندلس الصناعية والزراعية عن حاجة البلاد . فكانت إشبيلية ، وهي من اهم الموانىء النهرية ، تصدر القطن والزيتون والزيت وتستورد الاقمشة والرقيق من مصر والقيان من اوربا وآسيا . وشملت صادرات مالَقَة وجيان الزعفران والتين والرخام والسكّر . وسارت حاصلات اسبانيا بطريق الاسكندرية والقسطنطينية حتى بلغت اقصى اسواق الهند وآسيا الوسطى . واتسع نطاق التجارة مع دمشق وبغداد ومكة بوجه خاص . وفي الالفاظ التي تُعرِب بها لغات اوربا الحديثة عن الصناعة البحرية ما يشير الى سيادة العرب الماضية في البحار

ك «اميرال» admiral (امير البحر) و « أرسنال » arsenal (دار الصناعة) . و« كايبل » cable (حَبْل) .

وتولّت الحكومة تنظيم البريد وسكّت النقود متّبعة فيها النماذج الشرقية . فكان الدينار اساس التعامل في الذهب والدرهم في الفضة . ودرجت المسكوكات العربية في ممالك النصارى شمالا وظلت هذه البلدان طيلة اربعمئة سنة وليس لها من المسكوكات الا العربية والفرنسية .

على ان مجد هذه الحقبة لم يكن في حَلْبة السياسة بل في الثقافة . فكان الحكَم نفسه خلف عبد الرحمن الثالث عالماً يعمل على تشجيع العلم ونشره . فاجرى على العلماء المرتبات وابتنى في العاصمة سبعاً وعشرين مدرسة مجانية . وفي عهده ازدهرت جامعة قُرطُبة التي أسسها سلفه في المسجد الكبير والتي أصبحت من معاهد العلم البارزة في العالم ، فسبقت بتأسيسها الازهر في القاهرة والنظامية في بغداد . واخذ يؤمها الطلاب من نصارى ومسلمين ليس من اسبانيا فقط بل من بلدان اوربية اخرى ومن افريقيا وآسيا . ووسع الحكَم نطاق المسجد الذي قامت الجامعة بين جدرانه واجرى اليه الماء في انابيب الرصاص وزينه بالفسيفساء التي جاء بها مَهَرة الصناع البيزنطيين . واستدعى الى هذه الجامعة اساتذة من الشرق ووقف اموالا خاصة يُنفق ريعها على مرتباتهم .

وضمت العاصمة -عدا الجامعة- مكتبة من الدرجة الاولى في سعتها . وكان الحكَم من غواة الكتب فتفقد عمالهُ مكاتب الاسكندرية ودمشق وبغداد قصدَ ابتياع المخطوطات أو نَسْخها . وجلبوا منها

الى الاندلس الشيء الكثير فبلغ عـدد المجموع من الكتب اربعمئة الف، حتى كان عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب اربعة واربعين مجلداً في كل مجلد عشرون ورقة فيهـــا اسماء الدواوين الشعرية . واستوعب الحكم ، ولعله اعظم عالم بين خلفاء الاسلام قاطبة ، عدة من هذه الكتب علّق عليها في الحواشي ملاحظات زادتها قيمةً لدى هواة الكتب في العهود المتأخرة . وبذل في « كتاب الاغاني » لمصنّفه ابي الفرج الاصفهاني الاموي الاصل الفَ دينار فارسل اليه بنسخة منه قبل ان يخرجه في العراق . وبلغت درجـــة الثقافة في الاندلس مستوى عالياً في هذا الوقت حدا العالم الهولاندي الكبير دوزي Dozy الى القول ان « كل فرد تقريباً (من افراد الاندلس) كان يُحسن القراءة والكتابة » . كل هذا بينا كانت اوربا المسيحية لا تعرف من العلوم الا مبادىء بسيطة اكثرها في حوزة عدد قليل من رجال الدين .

فضل العرب على المدنية الغربية

يستدلّ على اهتمام العرب بالعلم والثقافة والادب من العبارة التي كانت تظهر منقوشة على ابواب معاهد العلم في الاندلس «العالم يقوم على اربعة اركان : معرفة الحكيم وعدالة العظيم وصلاة التقي وبسالة الشجاع . » ومما يلفت النظر ان المعرفة جاءت في هذه العبارة ، التي تصف المُثُل العليا الاسلامية في اوربا ، في المقدمة .

ولقد كان لقوة العرب الحربية أثرها الفعال في العالم الغربي ولكنه أثر لم يدم . والدين الاسلامي لم يستهوِ خيال الاوربيين كثيراً . على ان العدل العربي ترك وراءه سوابقَ يستشهد بها الاوربيون . اما العلم الاسلامي فقد دخل الفكر الاوربي من نواح عدّة . ذلك بان الاندلس سطرت فصلاً رائعاً في التاريخ الفكري للعصور الوسطى الاوربية . فبين منتصف القرن الثامن ومطلع

القرن الثالث عشر حسبما تقدم كانت الشعوب العربية اللسان في مقدمة من حمل مشعال الثقافة والمدنية في العالم قاطبة . وبواسطة جهود هذه الشعوب أيضاً تسنى لعلوم الاقدمين وفلسفتهم ان تعود الى اوربا مشروحةً ومضافاً اليها . فسهّل هذا السبيلَ لنشوء عصر النهضة في اوربا الغربية . ولعل اعظم علماء الاندلس واكثرهم ابتكاراً عليّ بن حزْم (٩٩٤ – ١٠٦٤) وهو احد الاثنين أو الثلاثة الذين يُعتبرون اخصب مؤلفي الاسلام واغزرهم مادة . وقد نسب اليه ابن خلكان والقِفْطِيّ اربعمئة مجلد في التاريخ والدينيات والحديث والمنطق والشعر وغيرها من العلوم. أما أنفس كتبه الباقية إلى الآن وافيدها فهو « الفصل في الملل والاهواء والنحل » الذي يؤهّل مؤلفه لاحتلال مركزَ الاولية بين العلماء الذين عُنوا بدرس الاديان على سبيل النقد والمعارضة . وفي هذا الكتاب لفت ابن حَزْم الانظارَ الى بعض مشاكل في قصص التوراة لم يتنبّه لها فكر احد من العلماء حتى ظهور مدرسة نقد التوراة العلمي في القرن السادس عشر .

اما في النثر فالحكايات والروايات والقصص الادبية التي اخذت تزدهر في اوربا الغربية خلال القرن الثالث عشر يظهر فيها بلا ريب تأثير الكتُب العربية السابقة سواء أكانت هندية ام فارسية الاصل. اما حكايات « كليلة ودمنة » الممتعة فقد نُقلت الى الاسبانية برعاية ألفونسو العاشر الحكيم ملك قشتالة وليون (١٢٥٢ – ١٢٨٢) . ولم تلبث ان نُقِلت الى اللاتينية بقلم يهودي متنصّر . ثم اصبحت ترجمتها الفارسية عن طريق الافرنسية احد مصادر لافونتين حسبما

اقرّ لافونتَين نفسه . وتمت القصة الاسبانية الساخرة (بيكارسك) picaresque بنسب واضح الى المقامة العربية وما اتصفت به من السجع وتضمنته من ضروب التزويق اللفظي وما رمت اليه من مغزى ادبي يستخرج مـــن سرد مجازفات بطل القصة المغوار . وكان اول من وضع المقامة في العربية بديع الزمان الهَمَذاني (٩٦٩ — ١٠٠٨) وتبعه الحريري (١٠٥٤ — ١١٢٢) . وظلت هذه المقامات نحو سبعة قرون اروع مثال في الادب العربي بعـد القرآن . إلا ان اعظم فضل للغة العربية على ادب العصور الوسطى الاوربية كان في اسلوبها الذي ساعد على تحرير المخيّلة الغربيـة من الانظمة الضيقة الجامدة التي قضى بها التقليد الموروث . وينمّ الادب الاسباني بما فيه من خيال وافر عن نماذج عربية تدل عليها النكتة في كتاب « دون كيخوتِه » Don Quixote الذي قضى مؤلفـــه سِرفنتيس Cervantes في الجزائر ردحاً من الزمن سجيناً وادعى على سبيل الدُعابة ان كتابهُ يرجع الى اصل عربي .

وحيثما حلّت اللغة العربية وفي اي عصر انتشرت كان ولـع ابنائها في الانشاء الشعري فيها شديداً وتناقل متكلموها على الالسن ابياتاً منهـــا لا تحصى اصبح بعضها موضوع اعجاب الرفيع منهم والوضيع . وهذا الطرب الشعري الذي يستملك شعور الناطقـين بالضاد بفضل عذوبة الالفاظ وحسن السبك وبديع المعاني تجلّى في الاندلس . فقد كان الامـير الأموي الاول عبد الرحمن شاعراً ومثله عدد من خلفائه . وكان لأكثر هؤلاء الامراء شعراء ممتازون في بلاطاتهم اصطحبوهم في اسفارهم وحملاتهم الحربيـة . وفاخرت

إشبيلية باكبر عدد من الشعراء الظرفاء الملهمين مع ان آلهة الشعر كانت استقرّت لزمن طويل قبل هذا في قرطبة وانتقلت الى غرناطة لما كانت هذه حصناً للاسلام .

ومن افذاذ الشعراء ابو الوليد احمد بن زيدون (١٠٠٣-١٠٧١) الذي ينتمي الى بني مخزوم ، وهم فرع من قريش . ويعدّه بعضهم اعظم شعراء الاندلس . وكان ابن زيدون في اول امره يقوم على خدمة ابن جهور راس حكومة قرطبة الى ان غضب عليه . والسبب الراجح في ذلك عشقُ ابن زيدون للشاعرة الولاّدة بنت الخليفة المستكفي . فقضى الشاعر عدة سنين في السجن والمنفى الى ان انتدبهُ المعتضد العبّادي لرئاسة الوزارة و إمارة الجيش فسمّي بذي الوزارتين — وزارة السيف ووزارة القلم . وكانت الولاّدة هذه المتوفاة عام ١٠٨٧ اديبة شاعرة بالغةً الغايةَ في الظرف وحسن المنظر . وكان مجلسها بقرطبة منتدى لاحرار العصر . ولقد اظهرت نساء الاندلس العربيات ميلاً خاصاً للشعر والادب . فخصّ المقّريّ جانباً كاملاً من كتابه « نفح الطيب » بالنساء الشهيرات في الاندلس « كي يُعلَم ان البراعة في اهل الاندلس كالغريزة لهم حتى في نسائهم وصبيانهم »

وتحرّر الشعر العربي الاندلسي إلى حدّ معلوم من قيود التقليد فنشأت له أوزان جديدة واكتسب ذوقاً في تحسّس الجمال في الطبيعة بصورة تكاد تكون حديثة . وتجلّت في أغانيه القومية واناشيده الغرامية عواطف الجمال التي سبقت عصر الفروسية في القرون الوسطى . وفي الاندلس ، كما في كل مكان وزمان ، بقيت

اواصر الارتباط وثيقة بين الموسيقى والشعر .

واستثار الشعر العربي عامة والغنائي منه خاصة اعجاب النصارى الاندلسيين ، فاصبح من العوامل الفعالة في طبعهم بطابع المدنية العربية. ومن الزجَل والموشح نشأ ضرب من الشعر العامي القشتالي استخدمه المسيحيون كثيراً في أناشيدهم الدينية ومن بينها أغاني عيد الميلاد . ولم يزل إلى الآن في لبنان شعراء عاميون يرتجلون ما يسمونه زجلًا وموشحاً .

ومن مآثر الشعر العربي ما ظهر في الشعر الاسباني العُذْري ، باكراً في القرن الثامن، من اسلوب خاص تتجلى فيه مؤثرات الشعر العربي . وفي فرنسا الجنوبية لم يظهر شعراء البروفنسال على اتم النضج حتى آواخر القرن الحادي عشر فاذا بقصائدهم فياضة بالحب الخافق تعبر عن لغة مترعة بالمجاز المعنوي والخيال البعيد . وقلّدت جماعة التروبادور التي زهت في القرن الثاني عشر معاصريها الجنوبيين من منشدي الزجل . واتباعاً للانموذج العربي اصبح التغزل بالمرأة شعراً ،أمراً مألوفاً في اوربا الجنوبية الغربية . أما « أغنية رولان » وهي انبل تراث في الادب الاوربي القديم ، فقد ظهرت قبل سنة ١٠٨٠ مؤذنةً بطلوع شمس مدنية جديدة — مدنية اوربا الغربية — والاغنية مدينة بظهورها لمعركة بين مسيحيي فرنسا ومسلمي اسبانيا.

ولقد قام التعليم الابتدائي في البلدان الاسلامية وانتشر ، كما اسلفنا، على اساس الكتابة والقراءة من القرآن وعلى تعلّم الصرف والنحو والشعر . ومقام المرأة في الحياة العلمية يبرهن على ان الاندلس قلما اعارت اذناً مصغية للاقوال والاحاديث التي نهت عن

تعليم المرأة . أما التعليم العالي فانه قام على تفسير القرآن والدينيات والفلسفة واصول اللغة العربية والشعر وعـــلم المفردات والتاريخ والجغرافية . وازدانت بعض المدن الرئيسية بمدارس يصح تسميتها بالجامعات وفي طليعتها قرطبــة وإشبيلية ومالَقَة وغَرناطة . ومن دوائر التدريس التي تضمنتها جامعة قرطبة دائرة للفلك وغيرها للرياضيات والطب والعلوم الدينية والشرعية . ولعل عدد الطلاب الذين امّوها بلغ الآلاف. وكانت شهادتها من أهم المؤهـلات لشغل اوفر مناصب الدولة دخلًا. وشمل منهاج الدراسة في جامعة غَرناطة علوم الدين والفقه والطب والكيمياء والفلسفة والفلك . ولقـد امّ هذه الجامعة الطلاب من قشتالة وسواها من الاقطار الاجنبية .

ونشأت الى جانب الجامعات خزائن للكتب منها خزانة قرطبة الملكية ، أوسع المكاتب وافضلهـــا . وكان لبعض مشاهير الامّة ونسائها البارزات مجموعات كتب خاصة . واذ لم يعرف المسلمون هذه المحافل السياسية ودور التمثيل التي امتازت بهـــا بلاد اليونان ورومة ، فقد اقتضت الحياة الاسلامية ان تكون الكتب الواسطة الوحيدة لتحصيل المعرفة .

ولولا صناعة الورق البلدية في الاندلس ، وهي من اهم ما اسداه الاسلام إلى اوربا ، لما راجت سوق الكتب الى هذا الحـــد كما لاحظنا في درسنا لبغداد . ومن مراكش التي ادخلت اليها هـــذه الصناعة من الشرق انتقلت الى اسبانيـــا في منتصف القرن الثاني عشر . ومن الالفاظ التي تذكّرنا بهذه الحقيقة « رزمة » العربيـة التي دخلت محرفة الى لغات اوروبية كثيرة . ثم تطرق فن صنع

الورق الى ايطاليا نحو سنة ١٢٧٠ ، بفضل تأثير المسلمين في صِقِلـّية على الراجح . اما في فرنسا فالفضل الاول في ظهور مصانع الورق يعود الى تأثير اسبانيا لا الى تأثـــير الصليبيين العائدين كما ادّعى بعضهم . ومن هذه البلدان انتشرت هذه الصناعة الى سائر انحـــاء اوربا . وكان لعبد الرحمن كاتب اعتـاد انشاء الرسائل الرسمية في منزله ثم إنفاذها الى ديوان خاص يصير فيه « طبعها » في نسخ عدة توزع على عمال الدولة .

وعقب تقلـّص السلطة الاسلامية عن اسبانيا انقرضت معظم الكتب العربية فيها ولم يبقَ منها سوى نحو الالفين من المجلدات ، قام الملك فيليب الثاني (١٥٥٦ – ١٥٩٨) وخلفاؤه في جمعها من مختلف مخازن الكتب العربية . فغدت هذه المجموعة نواةَ مكتبة الاسكـُوْريال Escurial التي لا تزال قائمة بظاهر مدريد . وحدث في القسم الاول من القرن السابع عشر ان الشريف زيدان سلطان مراكش ارسل خزانة كتبه عـــلى ظهر سفينة ، وكان هاربا من عاصمته ، فابى الربان ان يوصل هذه الكتب الى المكان المقصود لانه لم يستلم اجرته بكاملها سلفاً . وبينا السفينة في طريقهـا الى مرسيليا اذا بها تقع في ايدي قرصان البحر الاسبانيين فيأمر فيليب الثالث بايداع هذه الغنيمة من الكتب المتراوح عددها بين الثلاثة والاربعة الآف في مكتبة الاسكـُوْريال ، وبذلك أصبحت هـذه المكتبة من اغنى المكاتب الاوربية بالمخطوطات العربية .

وليس بين كتّـــاب العصر الاندلسي من كان اغزر مادة في التاريخ من الصديقين ابن الخطيب وابن خلدون .

كان لسان الدين بن الخطيب (١٣١٣ – ١٣٧٤) متحدراً من اسرة عربية هجرت الشام فنزلت اسبانيا . وفي زمن سابع سلاطين بني نصر ، يوسف ابي الحجاج ، وابنه محمد أطلِق عليه لقب « ذي الوزارتين » . وفي سنة ١٣٧١ فرّ من غَرْناطة بسبب الدسائس في البلاط فلم تطل نجاته لانه مات خنقاً بعد ثلاث سنين في مدينة فاس بيد بعض اعدائه . وبموته خسرت غرناطة ، إن لم نقل الاندلس كلها ، آخر من قام فيها من جهابذة التأليف والشعر والسياسة . ولم يبقَ من الكتب الستين التي صنفها ابن الخطيب – واكثرها في الشعر والتاريخ والجغرافية والطب والفلسفة – إلا نحو ثلثها . واهم ما يعنينا من هذه التآليف كتابهُ « الاحاطة في تاريخ غرناطة » .

أما عبد الرحمن بن خلدون (١٣٣٢ – ١٤٠٦) فقد وُلد في تونس من اسرة اسبانية عربية ربطت نسبها بقبيلة كِنْدة . وكان مؤسس هذه الاسرة قد هجر اليمن في القرن التاسع فنزل اسبانيا . وزهت ذرّيته في إشبِيلِية حتى القرن الثالث عشر . وتقلب عبد الرحمن في مناصب عدة رفيعة في فاس قبل ان غضب عليه ولي الامر فيها . وفي عام ١٣٦١ اتصل بسلطان غرناطة محمد السادس فاحتلّ وظائف مختلفة ولعب دوراً سياسياً هاماً الى ان ثارت عليه عواصف الحساد فاعتزل الوظائف وعكف على التأليف . إلا ان شهرة ابن خلدون الواسعة ترتكز على مقدمته إذ فيها وردت لاول مرة نظرية النشوء التاريخي المبنيّة على الاخذ بحقائق الاقليم والجغرافية فضلاً عن الحقائق الاخلاقية والروحية . ويمكن اعتبار ابن خلدون من حيث بحثُهُ عن قوانين التقدم والانحلال القومي ومحاولتهُ ان يضع

قواعد لها مكتشفاً لطريقة جديدة - هكذا قال هو عن نفسه - في علم التاريخ والعمران . واقل ما يمكن ان يقال عنه إنه مؤسس علم الاجتماعيات . والحق انه ليس من كاتب اوربي او غربي نظر قبلهُ الى التاريخ نظرةً تعادل نظرتـــه شمولاً واطّلاعاً فلسفياً . ويُعدّ ابن خلدون باجماع الاراء بين النقدة اعظم فيلسوف تاريخي اسلامي ، ومن اعظم فلاسفة التاريخ في العالم .

لم يكن لدراسة العرب الجغرافية الا اثر محدود في الغرب كان من نتائجه ابقاء الفكرة القديمة القائلة بكروية الارض حيّةً . وقد اشرنا سابقاً الى الفكرة الهندية القائلة بان نصف الكرة الارضية المعروف انما كان له مركز او قبّة على أبعاد متساوية من الخوافق الاربعة . هذه هي نظرية آرين التي وصلت الى مصنّف لاتيني صدر سنة ١٤١٠ فاتخذ كولمبس عنه مذهبهُ الذي قاده الى الاعتقاد بان شكل الارض يشبه الاجّاصة وان في نصفها الغربي الذي يقابل آرين مركزاً آخر مرتفعاً ومماثلاً .

والحق ان العرب أتحفوا الغرب بعدة آراء جديدة ومعلومات واسعة النطاق في الجغرافية الفلكية والرياضيات . ففي اسبانيـــا عظم الاقبال على العلوم الفلكية بعد منتصف القرن العاشر . وخصّ امراء قُرطُبة وطُلَيْطُلة و إشبيلية هذه العلوم برعاية وعناية . وكان معظم الفلكيين الاندلسيين يؤمنون بان عِلَل اكثر الحوادث التي تحدث للانسان ما بين ولادته وموته انمـــا ترجع إلى تأثير النجوم . واقتضت دراسة هـــذا التأثير الفلكي - علم التنجيم - تحديدَ الاماكن في الارض ووضع مقاييس الطول والعرض لها .

ثم تطرقت هذه المؤثرات الشرقية بواسطة اسبانيا الى الغرب اللاتيني فاهابت به الى دراسة الفلك والتنجيم . ونُقلِت معظم كتب الفلك الاسلامية في اسبانيا الى اللاتينية . وما جداول الفلك الألفونسية التي وضعها الفونسو العاشر في القرن الثالث عشر إلا امثلةٌ لمؤثرات علم الفلك العربي . ومن دراسات العرب للنجوم جاءتنا اسس علم المثلثات الكروية والاستوائية . فالعرب هم الذين وضعوا علم المثلثات كما وضعوا علمي الجبر والهندسة التحليلية . ومن يطالع اسماء النجوم التي تتحلى بها القبة الزرقاء يدركْ حالا ان الفلكيين العرب تركوا اثاراً خالدة تنطق بمقدرتهم واجتهادهم . وليست جمهرة اسماء النجوم في اللغات الاوربية عربية الاصل فقط امثال « العقرب »Acrab و « الجدي » Algedi و « الطائر » Altair و « الفرقد » Pherkad بل ان كثيراً من مصطلحاتها الفلكية يرجع الى الفاظ عربية امثال « السّموت » azimuth و « النظير » nadir و « السّمت » zenith . وما هذا غير قليل من كثير مما اتحف به الاسلامُ اوربا المسيحية .

ومن امتع المفردات الرياضية وافيدها لفظة « صفر » التي استعارتها اللغات الاوربية من العربية . نعم ان العرب لم يخترعوا الصفر ولكنهم هم الذين ادخلوهُ مع الارقام الى اوربا فعلّموا الغربيين طريقة استخدامها . وبذلك سهّلوا استعمال الحساب في امور الحياة اليومية . وهذه الارقام سمّاها العرب هنديةً لانهم اقتبسوها عن الهنود ، وسماها الاوربيون عربيةً لانهم اتخذوها عن العرب .

على ان انتشار الارقام الهندية في اوربا غير المسلمة كان بطيئاً جداً . فقد بقي علماء الحساب المسيحيين طيلة القرن الحادي عشر والثاني عشر وبعض الثالث عشر يستعملون الارقام الرومانية القديمة القائمة على بعض حروف الهجاء . واستخدمت هذه الارقام لمقاصد علمية لاول مرة في ايطاليا . ففي سنة ١٢٠٢ رحل ليوناردو فيبوناتشي من اهالي بيزا — بعد ان درس على استاذ مسلم — في طلب العلم إلى شمالي افريقيا. فنشر كتابا كان المَعْلَمَ الرئيسي في تعريف الارقام الهندية الى اوربا . زد على ذلك انه بهذا الكتاب تعيّنت بداية علم الرياضيات في اوربا . ولو بقيت الارقام القديمة المبنية على الحروف سائدةً لتعذّر ارتقاء علم الحساب في بعض فروعه . ولا مبالغة في القول إن علامة الصفر والارقام الهندية هي اساس علم الحساب على ما نعرفهُ اليوم .

وفي موضوع التاريخ الطبيعي ، ولا سيما علم النبات ، كما في الفلك والرياضيات زادت بحوث المسلمين الغربيين في ثروة العالم . فالعلماء العرب ابدوا ملاحظات صائبة في موضوع الفرق الجنسي التناسلي بين النخيل والقُنّب ، ورتّبوا النباتات على مبدأ ما ينمو منها من الفسائل وما ينمو من البذور وما ينمو من تلقاء نفسه . وحوالي نهاية القرن الثاني عشر وضع ابن العوّام رسالة في الزراعة هي اهم ما صنّفه المسلمون في هذا الموضوع بل أهم مؤلفات العصور الوسطى فيه. وهذا الكتاب الذي اقتبست بعض مواده عن اليونان القدماء وعن مصادر عربية وجاء باقيها نتيجةً لاختبارات المزارعين في اسبانيا إنما يعالج ٥٨٥ نبتةً ويشرح طريقة تربية اكثر من خمسين

شجرة مثمرة ويورد ملاحظات جديدة في موضوع التطعيم وفي خصائص التربة والسماد ويبحث في أعراض عدة من امراض الاشجار والكرمة مع اوصاف طرق معالجتها .

وكان اشهر علماء النبات والصيادلة في الاندلس بل في العالم الاسلامي عبدالله بن احمد بن البَيطار الذي توفي في دمشق سنة ١٢٤٨ تاركاً وراءه اعظم رسائل العصور الوسطى في العلاجات البسيطة بعنوان « الجامع في الادوية المُفرَدَة » .

وكان معظم الذين انصرفوا الى صناعة الطب من عرب الاندلس يتخذونها مهنة كمالية الى جانب عمل يتعاطونه . فابن رشد وابن ميمون وابن باجّة وابن طُفَيل كانوا في الدرجة الاولى فلاسفة . اما ابن الخطيب كما قدمنا فكان منشئاً ومؤرخاً تقلد منصب الوزارة شأن غيره من الاطباء . وبمناسبة انتشار مرض الطاعون الهائل في اوربا في منتصف القرن الرابع عشر ووقوف النصارى حياله مكتوفي الايدي حاسبينه قضاءً وقدراً وضع هذا الطبيب الغَرْناطي المسلم رسالةً دافع فيها عن نظرية العدوى حسبما يُستَدَلّ من الفقرة التالية :

« فان قيل كيف نسلّم دعوى العدوى وقد ورد الشرع بنفي ذلك قلنا وقد ثبت وجود العدوى بالتجربة والاستقراء والحسّ والمشاهدة والاخبار المتواترة . وهذه مواد البرهان . وغير خفي عمن نظر في هذا الامر وادركه هلاكُ من يباشر المريضَ بهذا المرض غالباً وسلامة من لا يباشره . كذلك ووقوع المرض في الدار والمحلة لثوب او آنية حتى ان القرط اتلف من علق باذنه واباد البيت باسره . ووقوعه في المدينة في الدار الواحدة

ثم اشتعاله منها في افذاذ المباشرين ثم في جيرانهم واقاربهم وزوارهم خاصة حتى يتسع الخرق . وفي مدن السواحل المستصحبة حال السلامة الى ان يحل بها في البحر من عدوة اخرى قد شاع عنها خبر الوبا . . . »

وكانت الثقافة الشرقية ، في القرون الاولى من الحكم الاسلامي للاندلس ، تنتشر في اسبانيا على مستوى عال. فأخذ علماء الاندلس يرحلون في طلب الاستزادة من العلم الى مصر وسورية والعراق وفارس والى ما وراء النهر (سِيحون) والصين . حتى اذا كان القرن الحادي عشر والقرون اللاحقة انعكست الآية ، وخصوصاً في القرن الثاني عشر ، حين بلغت المعارف الاندلسية اشدّها وبلغت من الغزارة حداً طما معه سيلها على اوربا . وفي نقل الطب العربي الى اوربا لعبت افريقيا الشمالية الغربية واسبانيا لا سيما طُلَيْطُلة، حيث عاش جِيرارد الكَرْموني وميخائيل سكوت Scot دوراً هاماً . وهكذا تسنّى اخيراً للتقاليد الطبيّة الثلاثة الاسلامية واليهودية والنصرانية ان تلتقي في مركز واحد فتندمج . وبواسطة الترجمات انتقلت الى اللغات الاوربية الفاظ عربية فنية كثيرة محرفة عن مفردات هذه اللغات .

بيد أنّ اسمى درجات الرقي التي بلغها الفكر العربيّ في الاندلس انما تمّت في حقل الفلسفة . فهنا أحكَمَ العرب آخر الحلقات وامتنها في تلك السلسلة التي نقلت فلسفة اليونان الى الغرب اللاتينيّ بعد ان طبعها العرب في الشرق والغرب بطابعهم الخاص والبسوها ثوباً قشيباً . وكان اهم ما اتحفوا به الفلسفة هو توفيقهم بين الايمان والعقل وبين الدين والعلم . فقد اعتبر مفكّرو الاسلام ان تعاليم

ارسطو وتعاليم افلاطون وتعاليم القرآن كلها تعاليم صادقة . وآمنوا بان الصدق واحد لا يتجزأ . واذاً فلا بدّ من التوفيق بين هـــذه التعاليم الثلاثة وادماجها في نظام موحّد . لهذا وجّه علماء الاسلام جهودهم الى معالجة هذه المعضلة . ولقد واجـــه فلاسفة النصارى المدرسيّون (السكولاستيك) المعضلة نفسها الا ان مهمتهم كانت اصعب لمـــا حواه اللاهوت عندهم من متراكم الطقوس والاسرار الكنسية . والحق ان الفلسفة كما وضعها اليونان وديانة التوحيد التي انشأها انبياء العبرانيين كانتـــا ، حسبما اشرنا سابقاً ، اثمن ما للغرب القديم والشرق القديم من تراث وانبله .

و إنما تتعين نهاية العصور المظلمة وفجر الحقبة المدرسية بتدفّق الافكار الجديدة عن طريق الاندلس الى اوربا الغربية ، لا سيما في الفلسفة والطب . فالواقـــع ان هذا الاحتكاك بالفكر العربي والفلسفة اليونانية عن طريق العربية احيى الفكر وانعش الروح العلمية والفلسفية في اوربا وقادها سراعاً الى حيـاة فكرية خاصة مستقلة ادت الى النهضة الفكرية الحديثة التي لا نزال نجـني ، إلى اليوم ، ثمراتها .

ولا يمكننا ان نذكر في هذه العجالة الا بعضاً من أعـــلام الفلسفة في الاندلس . منهم ابن طُفَيل الذي توفي سنة ١١٨٥ واهم نفثاته رواية فلسفية مبتكرة عنوانها « حَيّ بن يَقْظَان» . وتقوم الفكرة الاساسية في هذه الرواية على ان المقدرة الانسانية تكفي دون مساعدة خارجية ، للتوصل الى معرفة العالم العلوي وان في وسعها الوقوف تدريجياً على ضرورة اتكالها على الكائن الاعلى . وقـــد

نُقلت هذه الطُرفة التي تُعَدّ من امتع ما في ادب العصور الوسطى واشدّه ابتكاراً الى اللاتينية سنة ١٦٧١ . ثم نُقِلت الى معظم لغات اوربا بما فيها الهولاندية (١٦٧٢) والروسية (١٩٢٠) والاسبانية (١٩٣٤).وقدحاول بعضهم ان يجد فيها مصدراً لقصة « روبنصن كُروزو » Robinson Crusoe الانكليزية المعروفة .

أما اعظم فلاسفة الاسلام باعتبار تأثيره في الغرب فالطبيب الفلكي الاسباني العربي ابن رشد شارح ارسطو . وُلد ابن رشد في قرطبة سنة ١١٢٦وكان أهم ما اتحف به علمَ الطب مؤلفه « الكليات في الطب » أثبت فيه ان الجدري لا يصيب المرء مرتين واوضح بدقة وظيفة شبكة العين . أما في العالمين اليهودي والنصراني فان شهرته قامت في الدرجة الاولى على مكانته كشارح لارسطو.ويجب ان نذكر ان عمل الشارح في العصور الوسطى إنما كان ينطوي على وضع مؤلف علمي أو فلسفي معتمداً فيه على كتاب قديم كاساس وإطار . واذاً فشروح ابن رشد سلسلة رسائل تحمل عناوين كتب ارسطو مع تأويل محتوياتها . والحقيقة ان ابن رشد ينتمي الى اوربا النصرانية اكثر منه الى آسيا وافريقيا الاسلامية. فقد عرفه الغرب من بعد بلقب « الشارح » كما عرف ارسطو بلقب « المعلّم » . وليس من كتابات حرّكت عقول فلاسفة النصارى في العصور الوسطى بقدر ما حرّكتها كتابات ارسطو على ما شرحها ابن رشد. وظلّت فلسفة ابن رشد من آواخر القرن الثاني عشر إلى آخر القرن السادس عشر سائدةً عالم الفكر على الرغم من ردّ الفعل الذي احدثته بين المسلمين في اسبانيا اولا والتلموديين ثانياً

والاكليروس ثالثاً . وكان ابن رشد من القائلين بوجوب تحكيم العقل في جميع الامور إلا في عقائد الايمان المنزلة . ولكنه لم يكن كما اعتقد الكثيرون ابا الفكر الحرّ والالحاد وعدو الايمان . وكان اتباع ارسطو من المسلمين الباكرين قد حسبوا بعض الكتب الملفقة ومنها بعض مؤلفات المدرسة الافلاطونية الجديدة من وضع ارسطو نفسه . اما الان فقد جاءت فلسفة ابن رشد داعية الى التعويل على فلسفة ارسطو العلمية الصحيحة غير المزيفة . وبعد ان غربل رجال السلطة من الاكليروس كتابات ابن رشد وحذفوا منها المواد غير المرغوب فيها اصبحت كتباً للتدريس في جامعة باريس وسواها من معاهد العلم العالي . والحق ان الحركة الفكرية التي اوجدها ابن رشد بما فيها من محاسن وما اضيف اليها من اوهام بقيت عاملاً حياً في الفكر الاوربي حتى مولد العلم التجريبي الحديث.

وكان المقام الاول بين فلاسفة هذا العصر بعد ابن رشد لمعاصره اليهودي ومواطنه الاسباني ابن ميمون ، اشهر اطباء اليهود وفلاسفتهم طوالَ هذه الحقبة العربية . وُلد ابن ميمون في قرطبة سنة ١١٣٥ ولكن اسرته هجرت الاندلس بسبب الاضطهاد الذي اثاره الموحّدون فنزلت القاهرة حوالي سنة ١١٦٥ . أما زعمُ القِفْطِي وابن أبي أصَيْبعَة ان ابن ميمون كان في الاندلس يدّعي الاسلام علانية ويمارس اليهودية سراً فقد تعرّض مؤخراً لنقد صارم . وفي القاهرة أصبح ابن ميمون طبيب البلاط في عهد صلاح الدين وعهد ابنه الملك العزيز . ومن سنة ١١٧٧ فما بعدها شغل ابن ميمون رئاسةَ الملة اليهودية في القاهرة وفيها مات عام ١٢٠٤. وعملاً

بوصيته حمل اتباعهُ جثمانه على الاكفّ على الطريق التي سلكها النبي موسى قبلًا فدفن في طبريه من اعمال فلسطين حيث لا يزال ضريحه الوضيع مقصداً لجماهير الحجاج . والى اليوم ترى ذوي الحاجـة من مرضى يهود مصر يطلبون الشفاء بالاقامـــة ليلًا في دهليز الكنيس المسمى باسمه في القاهرة .

كان ابن ميمون فلكياً ولاهوتيـاً وطبيباً ممتازاً . وكان فوق ذلك كله فيلسوفاً . ففي علم الطب حسّن طريقة الختان ونسب علة البواسير الى الامساك فوصف لهـــا علاجاً الطعامَ الخفيف المؤلف اكثره من الخضر . كذلك اعتنق افكاراً راقية بشأن حفظ الصحة . واشهر كتبه الطبية « الفصول في الطب » . وفي مؤلفه الرئيسي في الفلسفة « دلالة الحائرين » حاول ان يوفّق بـين اللاهوت اليهودي وفلسفة ارسطو المعروفة عنـــد العرب . وبكلمة اخرى سعى الى التوفيق بين الايمان والعقل . وأما الرؤى النبوية في الاسفار المنزلة فقد عللها كاختبارات ذاتية نفسانية . وبذلك وقف موقف المدافع عن الفكرة العلمية الحرة ضد فكرة التوراة المحافظـة فاثار غضب اللاهوتيين المحافظين الذين سموا كتابه « ضلالة » . أما آراؤه الفلسفية المعبّر عنها في هذا المصنّف وسواهُ فتَطْبَعُ عـلى غرار مصنفات ابن رشد مع انه لم يعتمد على تلك في وضعها . وابن ميمون كابن رشد لم يعرف اليونانية بل اعتمد على الترجمات العربية . أما نظرية الخليقة التي بسطها وان لم يؤمن بها فانهـا نظرية الجوهر الفرد التي تختلف عن النظريتين الاخريين اللتين نادى بهما مفكرو العرب اي نظرية الاسفار المقدسة التي قالت بان الله خلق كل شيء والنظرية

الفلسفية التي قال بها اتباع الافلاطونية الجديدة واتباع ارسطو . أما كتبهُ فقد وُضِعت كلها بالعربية باستثناء واحدٍ منها ، ولكن بحروف عبرانية .ثم ما لبثت ان نُقِلت الى العربية وبعد ذلك بزمن إلى اللاتينية . وظل تأثيرها على تراوح الزمن وتباعد الاقطار أشد ما يكون في اليهود والنصارى . وبقيت كتبه حتى القرن الثامن عشر الواسطة الوحيدة التي اوصلت الفكر اليهودي الى الاوساط غير اليهودية . والنقدة المحدَثون يرون في تآليف سبينوزا Spinoza وكانت Kant وفي تعاليم بعض الدومينيكيين الكاثوليك كألبرتوس ماغنوس Albertus Magnus ما يثبت أثر ابن ميمون .

اما في التصوّف فكان إمام هذا العصر قاطبة محيي الدين ابن عربي ، اعظم النظريّين من ارباب التصوف الاسلامي . وقد لمع نجم ابن عربي في إشبيلية ومات في دمشق سنة ١٢٤٠ ولا يزال ضريحهُ قائماً في احد مساجدها . وفي كتاب « الاسرا الى مقام الأسرى » شرح ابن عربي مفصّلًا قصّة الإسراء بمحمد وصعوده الى السماء السابعة ووضع بذلك مثالاً احتذاهُ ،على ما يظن بعضهم، دانتي ، أعظم شاعر ايطالي .

وفي ختام القرن الثالث عشر كان قد تمّ نقل العلوم العربية والفلسفة العربية الىاوربا ، بعد ان شقت التيارات الفكريةالممتدة من ابواب طُلَيْطُلة طريقها عبر جبال البرانس وعرّجت حتى بلغت بروفانس ومضايق الألب ثم اجتازتها الى اللورين فالمانيا واوربا الوسطى وعبرت الخليج الى انكلترا . واصبحت مرسيليا وتولوز وأرْبونة ومَنتِبليه من مدن فرنسا الجنوبية مراكز هامة

للفكر العربي . امـا في شرقي فرنسا فان بلدة كلوني الـتي آوت في ديرها الشهير عدداً من الرهبان الاسبان كانت في القرن الثاني عشر مركزاً هاماً لنشر العلوم العربية . وفيها تعهد بطرس الفنرابـل (١١٤١ -١١٤٣) اول ترجمـة للقرآن الى اللاتينية ووضع عدة كرّاسات ناقش فيها عقائد الاسلام . وباتصال العلم العربي باللورين في القرن العاشر اصبحت تلك الناحية مركزاً علميّاً طوال القرنَين اللاحقين . وغدت لياج وغورز وكولون وسواها من مدن اللورين اخصب تربة لنمو العـلوم العربية . ومن اللورين سرت موجـة الدراسات العربية الى سائر انحاء المانيا ومنهـا انتقلت الى انكلترا النورمندية بواسطـة علماء وُلدوا وتهذبوا في اللورين . وهكذا تخلّلت العلوم العربية الاندلسية سائر انحاء اوربا الغربية .

أفول نجم العروبة في الشرق والغرب

ان كان ثمّة ما يضارع السرعة المدهشة التي افتتح بها أبناء البادية العربية معظم العالم المتمدن في القرن الاسلامي الاول فهو سرعة انحطاط السلطة العربية ما بين منتصف القرن الثالث والرابع من بعد محمد . فحوالي سنة ٨٢٠ كان قد استقام لخليفة بغداد من السلطة الواسعة ما لم يستقم لعاهل آخر في تلك العصور . حتى إذا كانت سنة ٩٢٠ كان الخليفة قد اضاع كل سلطته حتى في بغداد نفسها . وما وافت سنة ١٢٥٨ حتى سقطت بغداد واصبحت خراباً . وبسقوطها زال السؤدد العربي واضمحلّت الزعامة العربية وانتهى تاريخ الخلافة العربية الشاملة .

واذا بحثنا الاسباب المؤدّية الى هذا الانحطاط والسّقوط وجدنا ان هجمات القبائل البربرية من مُغُول وتتر على كثرتها وشدّتها

كانت في الواقع ثانوية . كذلك نشوء الدول العديدة والامارات المستقلّة في قلب الخلافة وعلى أطراف مناطقها ما كان الا عَرَضاً من أعراض داء الخلافة لا سبباً من اسبابهِ . ومَثَل الخلافة في ذلك مَثَل الامبراطورية الرومانية الغربية من قبل التي اصبحت بمثابة رجل عليل على فراش الموت فانتهز اللصوص فرصة مرضه فسطوا على بيتهِ ونهبوا حصّتهم من ميراثه .

اما العوامل الداخلية في سقوط الخلافة فأهمّ من العوامل الخارجية. و إن القارىء الذي تتبّع الفصول السابقة لا ريب ادرك الاسباب الحقيقية ولاحظ مفعولها خلال القرون . فالكثير من الفتوحات الاسلامية الاولى لم يكن الا اسميّاً . ولم تكن طريقة الحكم بما رافقها من الاستهتار بحقوق الشعب واستغلالهِ وجباية الخراج مما يعين على الاستقرار والدوام . ولقد ظلت الفوارق الجنسيّة والدينيّة بين العرب وغير العرب وبين المسلمين واهل الذمة تفعل مفعولها حتى في الجماعة العربية نفسها . فالعداوة القديمة بين اهل الشمال واهل الجنوب بقيت مستحكمة . ولم يكن هنالك امتزاج كافٍ بين الفرس الايرانيّين والترك الطورانيّين والبربر الحاميين وبين العرب الساميّين لتتكوّن منهم امة متجانسة موحّدة بل ظلت هذه العناصر المختلفة بلا رابطة متينة تُحكم الوثاق بينها . فابناء ايران لم ينسوا قط مجدهم الشعبي القديم ولم يرضوا بالنظام الجديد رضى تامّاً . اما معاشر البربر فلا ادلّ على شعورهم القبليّ وكثرة اختلافاتهم من انضمامهم الى مختلف الفرق الاسلامية غير السنيّة . كان اهل الشام لا يفتأون يترقبون ظهور

زعيم سفياني يرفع عن كواهلهم كابوس النير العباسي . ولقد ظهر ضمن نطاق الدين نفسه من النزعات المتنافرة ما لا يقلّ اثراً عن فعل الاحزاب السياسية في تمزيق الاواصر . ومن هذه النزعات نشأت الشيعة والقرامطة والاسماعيلية وجماعة الحشّاشين وغيرهم . الا ان هذه الفرق لم تقصر همها على الدين وحده . فالقرامطة فاجأوا الجانب الشرقي من الامبراطورية بضربات قاصمة . وما طال امر الفاطميين حتى استولوا على الامصار الغربية . والواقع ان الاسلام عجز عن ادماج أتباعه في وحدة متراصّة كما عجزت الخلافة عن ربط الاراضي المتاخمة للبحر المتوسط باراضي آسيا وجعلها كلها دولة واحدة منيعة .

وهنالك عوامل اجتماعية واخلاقية كان لها مفعولها في تفكيك عرى الدولة وتجزئتها . فاختلاط دم العرب الفاتحين على كرّ الاجيال بدم الموالي افقده خصائصه الذاتية وادّى الى ضياع سلطة الغالب . وبانحطاط الحياة القومية العربية وهنت قوى العرب وضعفت معنوياتهم فاخذت السيادة تنتقل تدريجياً الى ايدي الاقوام المغلوبة حتى صارت لهم بكاملها . وكان للتسرّي بما فيه منشآت الحريم والخصيان ضلع في تقويض معنويات الامة . ورافق ذلك إقتناء الجواري والغلمان فادّى هذا كله الى انحطاط مقام المرأة وفساد اخلاق الرجل . وبالسراري المتعدّدات تكاثر الابناء المولودون من امهات مختلفات في بلاط الخلافة واتسع المجال للتحاسد والفتن . وعظم الترف والبذخ بما فيه الاسراف في الشرب والغناء. فكل هذه العوامل وما يماثلها امتصّت حيويّة الاسرة المالكة

فنتج عن ذلك ظهور اولياء عهد ضعفاء الاجسام والنفوس . ومما زاد في الاضطراب ان حق التعاقب في الخلافة لم يكن منصوصاً عليه بصراحة .

كذلك كان للعوامل الاقتصادية اثرها . فالخراج المرهق وتقسيم البلاد الى مقاطعات تحكمها الطبقات الآمرة لمصلحتها الخاصة اوهنَ الحياتين الزراعية والصناعية . فكان الشعب يزداد فقراً كلما ازداد الحكام غنىً . وقامت دويلات ضمن دول ابتزّ اولياء الامر فيها أموال الرعيّة . وقضت الحروب المتواصلة بانقاص عدد الرجال فغدت المزارع مهجورة خَربة . وزاد تكرر الفيضان في انجاد العراق الجنوبية والمجاعات في مختلف انحاء الامبراطورية في مصائب القوم وشقائهم . وانتشرت الاوبئة من طاعون وجدري وملاريا وسواها من الحمّيات التي وقف الانسان حيالها في العصور الوسطى مكتوف اليَدين ففتكت في السكان فتكاً ذريعاً . وقد سجلت المدوّنات العربية للقرون الاربعة الاولى من التاريخ الاسلامي ما لا يقلّ عن اربعين وباءً كبيراً .

أما أسباب انحطاط السيادة الاسلامية في اسبانيا وغيرها من الاقطار الاوربية فكانت على وجه العموم من نوع الاسباب التي أدّت الى سقوط الخلافة في الناحية الشرقية والوسطى من الامبراطورية . إلا ان الضربة القاضية هنا جاءت على يد المسيحيين لا المغُول . فعلى اطلال الخلافة الاموية في قرطبة التي سقطت سنة ١٠٣١ نشأت مجموعة من دويلات اسلامية صغيرة انهكت قواها في المخاصمات . فشهد النصف الاول من القرن الحادي عشر مالايقل

عن عشرين دويلة قامت في نحو عشرين مدينة أو مقاطعة وساسها زعماء وأمراء يُعرفون بـ « ملوك الطوائف ». واستتبّت الزعامة الاولية في البداية لاشبيلية التي تمتع بلاطها بحقبة من الازدهار لم تبزّها فيه غير قرطبة . وقبل اختتام القرن وقعت دولة إشبيلية مثل غيرها فريسةً لدولة من بربر مراكش . ومن هنا ابتدأت زعامة البربر في اسبانيا .

وعُرفت دولة البربر التي حكمت افريقيا الشمالية الغربية والاندلس (١٠٩٠ – ١١٤٧) بدولة المرابطين . والمرابطون في الاصل أخوية دينية عسكرية كانوا كاحفادهم « الطوارق » الضاربين في جنوبي الجزائر الى هذا اليوم يُغطّون وجوههم ما دون العيون باللثام ، فعُرفوا بالملثّمين . وتلا هذه الدولة دولة أخرى من البربر عُرفت بدولة الموحّدين . أما اشهر دولة من دول الطوائف العربية فكانت دولة بني نصر في غرناطة التي شاد احد أفرادها محمد الملقب بالغالب (١٢٣٢ – ١٢٧٣) دارهُ الشهيرة في الخافقين بالحمراء .

والواقع ان انحطاط السيادة الاسلامية إنما يبدأ بنشوء دُويلات ملوك الطوائف في الشرق وفي الغرب. واذا كان لا يعنينا هنا تتبّع تقلّبات هذه الدويلات فيجدر بنا على الاقل تدوين الهامّ من هذه القصة لا سيما قصة عهد السيادة الاسلامية الاخير في اوربا . وهي قصة ممتعة تدل أبداً بوضوح على اتجاه نحو الاندماج والتناسق بين مختلف الشعوب والثقافات حتى في الاوقات التي كانت تحاول الفئة فيها إبادةَ الاخرى . والحق ان مقدرة المرء على اتحاف غيره بعلمه وفنه دليل على ما في مدنيته من رفعة وديمومة .

بدأ استرجاع النصارى للاندلس منذ سقوط الخلافة الاموية في القرن الحادي عشر . والواقع ان المؤرخين الاسبانيين يعتبرون موقعة كوفادونغا Covadonga سنة ٧١٨ التي صدّ فيها الزعيم الاستوري بلايو Pelayo تقدّم المسلمين بدءَ عهد الاسترجاع . ولو تمكن المسلمون في القرن الثامن من القضاء على آخر بقايا السلطة النصرانية في الجهة الشمالية الجبلية لكان تاريخ اسبانيا التالي غير ما هو عليه اليوم . ومما عاق عملية الاسترجاع في اول الامر النزاع والتنافر بين زعماء النصارى فى الشمال ولكنها زادت سرعةً حالما تمّ توحيد قشتالة وليون سنة ١٢٣٠ . ولم ينتصف القرن الثالث عشر حتى تمَ تقريباً استرجاع البلاد باسرها باستثناء غرناطة التي بقيت بايدي المسلمين . وكانت طُلَيْطُلة قد سقطت سنة ١٠٨٥ وتلتها قرطبة في ١٢٣٦ وإشبيلية في ١٢٤٨ .

واستهدفت اسبانيا بعد منتصف القرن الثالث عشر عمليّتين رئيسيتين : اولا تنصير البلاد وثانياً توحيدها . وقد اختلف تنصير البلاد عن استرجاع ملكيتها وعن توحيدها . فالقسم الوحيد من شبه جزيرة أيْبِيرية الذي تأصلت فيه جذور الاسلام كان حيث زهت الحضارة السامية القرطجنية من قبل . ومثل ذلك ينطبق على صِقلّية ، وهو أمرٌ له أهميته . فعلى وجه العموم كان الحد الفاصل بين الاسلام والنصرانية يطابق الحدّ الفاصل القديم بين المدنية الفينيقية القرطجنية والمدنية الغربية . وما حل القرن الثالث عشر حتى اصبح الكثيرون من المسلمين في طول البلاد وعرضها تحت سلطة النصارى إما بالغلبة أو بالمعاهدة . ولكنهم في ما عدا ذلك

حافظوا على شرائعهم وديانتهم . وقد أطلِق على امثال هؤلاء من المسلمين اسم المدَجّنين ، وكثيرون منهم كانوا قد استبدلوا بالعربية لغةَ الرومانس الاسبانية واندغموا في الجماعة المسيحية .

لم يكن توحيد اسبانيا النهائي سريعاً ولكنه كان أكيداً . وكانت البلدان المسيحية كلها آنئذٍ تتألف من مملكتي قشتالة وأرَاغون . وجاء زواج فرديناند ملك الأرَاغون من إيزابيل ملكة قشتالة في سنة ١٤٦٩ منجزاً لتوحيد المملكتَين توحيداً تاماً ومنذراً بالقضاء على سلطة المسلمين في اسبانيا . ولم يكن في مقدور سلاطين بني نصر الصمود امام هذا الخطر المحدق المتزايد . وقد تورّط المتأخرون منهم في مشاكل سلاليّة زادت مركزهم تقلقلاً وضعفاً . فبين السلاطين الواحد والعشرين الذين حكموا البلاد من سنة ١٢٣٢ الى ١٤٩٢ ستةٌ تولّى كلٌ منهم الأمر مرّتين، وواحدٌ تولاّه ثلاثاً . وفي ٢ كانون الثاني من سنة ١٤٩٢ ، وهي السنة التي اكتشف فيها كولمبس اميركا ، دخلت الجيوش المسيحية غرناطة بعد حصار طويل شديد وحلّ الصليب محل الهلال في ابراجها .

ولكنّ صاحبي الجلالة الكاثوليكية فردِيناند وايزابيل نكثا العهد ونقضا الشروط. ففي سنة ١٤٩٩ انتدِب الكاردينال خِيمانِس Ximenez كاهن الملكة الخاصّ ليتزعم حملة اكراه المسلمين على التنصّر . واراد الكاردينال اول الامر مصادرة الكتب العربية التي تُعنى بالاسلام وحرقها. وفي قُرْطُبة جمعت المخطوطات العربية أكواماً أضرمت النار فيها . ثم أنشىء ديوان التفتيش وهو من الدواوين التي جاءت بالمظالم المشهورة في التاريخ. فاضطُرّ كثيرون

من المسلمين إلى مغادرة البلاد . أما من لم يَهجر البـلاد من المسلمين بعد سقوط غرناطة فسمي بالـ « مورِيسْكو » Morisco وهي لفظة أطلقت اولاً على معتنقي الاسلام من الاسبانيين . وكان الرومان قد اطلقوا على افريقيـا الغربية اسم ُمورِيتانِيا وعلى سكانهــــا « ُموري »، ولعل اصل هذه اللفظة فينيقي وتعني « غرْبي ». وهكذا جاء الاسم بالاسبانيــة « مورو » Moro وفي الانكليزية « ُمور » Moor . فالبربر هم «المور» الحقيقيون . غير ان هذه اللفظة أطلِقَت اصطلاحاً على كل مسلمي اسبانيا وافريقيا الشمالية الغربية . فنصف المليون من مسلمي جزائر الفيلبين لا يزالون ُيعرفون بهذا الاسم . وقد اطلقه الاسبانيون عليهم عندما اكتشف مجلاّن هـذه الجزائر في سنة ١٥٢١ .

وكان للمسلمين من الاسبان لهجة رومانسية إلا انهم استخدموا حروف العربية لكتابتها وتحدّر الكثيرون من المورِيسكو ، إن لم يكن َسوادهم ، من اصل اسباني . ولقـد جرى الآن تذكيرهم بأن اجدادهم انما كانوا نصارى وان عليهم قبول المعمودية او تحمّل العواقب . وجُعل المدجّنون والمورِيسكو في فئة واحدة فتظاهر الكثيرون منهم بالنصرانية لكنهم مارسوا الاسلام سراً . وتزوج كثيرون منهم علناً وفق الشعائر المسيحية ثم عادوا وتزوجوا سراً حسب السنّة الاسلامية . ومنهم من اتخذ اسماً مسيحياً عرفهُ بـهِ الناس وآخر عربياً ُعرف به سراً . وفي سنة ١٥٠١ صدرت ارادة ملكية تقضي على من في قشتالة وليون من المسلمين إمـا بالرجوع عن دينهم او بالجلاء عن البلاد . والظاهر ان هذه الارادة لم تنفّذ .

وفي سنة ١٥٢٦ واجه مسلمو الأراغون المعاملة نفسها . وفي سنة ١٥٥٦ اصدر فيليب الثاني قانوناً يقضي على البقية الباقية من المسلمين بالتخلي فوراً عن لغتهم وعبادتهم ومعاهدهم وعاداتهم . وامر ايضاً بهدم الحمّامات الاسبانية باعتبار انها من تراث عهد الالحاد . فتعالت الشكوى بين المسلمين ونشبت الثورة للمرة الثانية في غَرْناطة وانتشرت الى ما جاورها من الجبال ، إلا ان امرها لم يطل . اما القرار الاخير بالطرد فقد أمضاه فيليب الثالث سنة ١٦٠٩ ونجم عنهُ إجلاء كل المسلمين تقريباً عن الاراضي الاسبانية قسراً . وقيل ان عدد الذين جرى نفيهم على هذه الطريقة بلغ نصف المليون نزل بعضهم سواحل افريقيا وركب بعضهم الآخر سفناً حملتهم الى اقاصي البلدان الاسلامية. ومن هؤلاء الموريسكو تألف معظم قراصنة البحر المرّاكشيين . وبهذا حُلّت المشكلة الاسلامية في اسبانيا التي شذت عن القاعدة القائلة بثبوت المدنية العربية الدائم حيثما حلّت اقدام العرب . وبهذه المناسبة يقول احد ثقاة الانكليز المحدثين : « أُقصِيَ المسلمون عن البلاد وأشرق مُحيّا اسبانيا المسيحية ردحاً من الزمن كالبدر ذي النور المستعار ثم حلّ الخسوف ، وما زالت البلاد تتسكّع في الظلمات منذ ذلك الحين » .

وانقرضت جميع معالم الفن الديني في الاندلس ما عدا مسجد قُرْطُبة ، وهو من أقدم تلك الاثار وافخمها . وضع أساسهُ عبد الرحمن الاول سنة ٧٨٦ في الموقع الذي قامت فيه كنيسة كانت في الاصل هيكلاً رومانياً . وأكمل ابنهُ هشام الاول الجانب الرئيسي من هذا المسجد سنة ٧٩٣ وأضاف اليه مأذنة مربعة الشكل.

وقد اتّبع في بناء المآذن الاسبانية الانموذج الافريقي الراجع الى اصل شامي . وكان يدعم سقف هـذا المسجد ١٢٩٣ عموداً ظهرت كأنها غابة كثيفة الاشجار . وأضيء بفوانيس نحاسيـة صنعت من اجراس الكنائس .وكان بين ثريّاته واحدة يوقد فيها ألف مصباح. أما صغرى هذه الثريات فكان فيها اثنا عشر مصباحاً . واستُخدِم في زخرفة بنائه صناع بيزنطيون مهرة مثل الذين يقال انهم استُخدِموا في بناء مساجد الشام . وكان مؤسسه قد انفق في بنائه ثمانين الف قطعة ذهب من غنائم القوط . وظلت عمليـــة التوسيع والاصلاح تتناول أفناء هذا المسجد حتى زمن الحاجب المنصور(٩٧٧–١٠٠٢) وهو اليوم كاتدرائية تحمل اسم عذراء الصعود .

أما الآثار الدنيوية فأبدعهـــا القصر (Alcazar) في إشبيلية والحمراء في غرناطة وهما انفس الاثار الباقية بما تضمناه من الزخرفة الفنية البديعة . واقدم جانب من القصر في إشبيليـة بناهُ مهندس معماري طُلَيْطُلي لاحـد عمال الموحّدين سنة ١١٩٩ – ١٢٠٠ . والموحّدون هم بُناة الدولة البربرية الثانية التي حكمت الاندلس بعد دولة المرابطين . ثم أعيد بناء هـذا القصر على الطراز الاسلامي بامر بطرس الصارم سنة ١٣٥٣ . وقد قام بذلك بعض صناع المدجّنين ونزلتهُ الاسرة المالـكة بضـــع سنين . وليس من قصور الاندلس الشهيرة في قرطبة وطُلَيْطُلة وسواهما مـا هو قائم الى اليوم إلا قصر إشبيلية وهو اشهرها . ومما يؤسف له ان هذا القصر اصيب باضرار خلال الثورة الاسبانية الاهلية الاخيرة .

وأما فن الزخرفة الاسبانية العربية فبلغ أوج مجـــده في قصر

الحمراء . والحق ان هـذا « الاكروبوليس » بغَرناطة ، بما فيه من الافراط في التزويق بالفسيفساء والمتدليات الكلسية من السقوف والنقوش وباعتبار عظم حجمه ، ليُعدّ افخر ما بُني من هذا النوع . وكان محمد الاول الغالب من بني نصر قد شرع في بناء الحمراء حوالي سنة ١٢٤٨ . ولكن بناءَها لم يتم حتى منتصف القرن الرابع عشر .

وكانت القنطرة ذات الشكل النعلي التي تميزت بها هندسة البناء الاسلامية في الغرب معروفةً في الشرق الادنى قبلَ الاسلام . وقد ظهر شكلها النعلي المستدير في الجامع الاموي في دمشق . وكان هذا النوع الاخير الذي عُرف في الغرب بـ «القنطرة المغربية » معروفاً بلا شك في اسبانيا قبـــل الفتح العربي ولكن المسلمين الاسبانيين وبخاصة أهل قرطبة ادركوا امكانياته البنائية والزخرفية فاعتنقوه عامة . وتحفة أخرى قـدمها عرب قرطجنّة هي أصول بناء الاقبية القائمة على قبب متقاطعة وضلوع ظاهرة متقاطعـة . فهذه وسواها من خصائص الفن المعماري ارتفعت في قرطبة وانتقلت منها عـلى يد المستعربين الى طليطلة وسواها من مراكـز الشمال في شبه الجزيرة . فنشأ هنالك بتمازج التقليد النصراني والتقليـد الاسلامي أنموذج جديد في الفن المعماريّ قوامـــه القناطر النعلية والاقبية . وبلغ هذا الفن الممزوج عـلى ايدي الصناع المدجّنين درجة عالية من الجمال والكمال فلم يلبث ان برز فناً اسبانياً قومياً .

ولقد ظل لاهل الرقص والغنـــاء من العرب نصيب وافر في عرض الملاهي على أبناء اسبانيا والبرتغال الى ما بعد سقوط غرناطة بزمن طويل . وتميل أبحاث بعض المستشرقين الاسبان الى الاعتقاد

بان موسيقى اسبانيا العامية لا بل موسيقى الجنوب الغربي من اوربا خلال القرن الثالث عشر وما بعده، شأنَ الروايات الغرامية الغنائية والتاريخية في تلك الارجاء ، ترجع في الاصل الى منبع اندلسي وعن طريق العربية الى مصادر فارسية وبيزنطية ويونانية . وكما ان الفلسفة وعلم الرياضيات والطب انتقلت من بلاد اليونان وروما الى بيزنطية وفارس وبغداد ثم الى اسبانيا ومنها الى كافة انحاء اوربا هكذا انتقلت عدة فروع من الموسيقى النظرية العملية .

وليس من شك في ان البلاد الاوربية الوحيدة التي رسخت فيها اقدام العرب ،باستثناء اسبانيا ، هي صقلية . ففي سنة ٦٥٢ وجه العرب حملات متقطعة للاستيلاء على هذه الجزيرة ولكن فتحها لم يتمّ سنة ٨٢٧ . وغدت صِقلِية طيلة المائة والتسع والثمانين السنة التي تلت تحت سلطة حكام مسيطرين جعلوها كلها او بعضها قطعة من العالم العربي وعاصمتها بَلَرْم (بالرمو) .

وكما كانت اسبانيا مركزاً لشن الغارات الاسلامية على الشمال واحتلاله موقتاً هكذا اصبحت صِقلِية بالنسبة الى ايطاليا وحملات العرب عليها . وكان الامير ابراهيم الثاني من اغالبة تونس الذين حكموا صِقلِية قد جرّد قبل موته سنة ٩٠٢ حملات عبر المضيق الى الجهة الجنوبية الغربية من ايطاليا المعروفة بِقَلَورِية (كَلابريا) . وهو ليس اول عربي وطأت قدماه تربة ايطاليا . وبعد سقوط بَلَرْم بوقت قصير اخذ قواد الأغالبة من افريقيا الشمالية يتدخلون في المنازعات بين اللامبارديين من سكان ايطاليا الجنوبية . اما « الكعب » و« الابهام » من القدم الايطالية فكانا

يومئذ لا يزالان خاضعين للامبراطور البيزنطي . ولمـــا استنجدت نابُل (نابولي) سنة ٨٣٨ بالعرب لم يترددوا عن التلبية . وصارت منحدرات جبل فِزوفيوس تردد صيحات الحرب . وبعد مضي اربع سنوات وقعت باري على البحر الادرياتيكي في يد المسلمين واصبحت القاعدة الرئيسية لهم مدى الثلاثين السنة اللاحقة . وفي هذه الآونة ظهر الظافرون بجوار البندقيـة (فنيس) . وفي سنة ٨٤٦ تهددوا رومة بعد ان نزلت فيالقهم عند مرفأها البحري أوستِيـا Ostia . وإذْ عجزوا عن اختراق اسوار المدينة الابدية سلبوا كاتدرائية القديس بطرس في فِناء الفاتيكان وكاتدرائية القديس بولس خارج الاسوار وعبثوا بقبور البابوات. وبعد ثلاث سنوات وصل اسطول اسلامي آخر مرفأ أوستِيا إلا ان الاسطول الايطالي تمكن بمساعدة عاصفـة بحرية هوجاء من القضاء عليه . وهنالك صورة من ريشة رَافائيل تمثل هذه الموقعة البحرية ونجاة رومة العجيب . الا ان سيطرة المسلمـين على ايطاليا بقيت مُحكَمَة حتى ان البابا يوحنا الثامن (٨٧٢–٨٨٢) رأى من الحكمة تأدية الجزية لهم طوالَ سنتين .

ولم يحصر الاغالبة اعمالهم الحربية في شواطىء ايطاليـا . ففي سنة ٨٦٩ فتحوا جزيرة مالطة . ومن ايطاليا واسبانيـا امتدت في القرن العاشر غزوات القرصنة من مضايق الألب حتى اوربا الوسطى. وفي الألب اليوم عدد من القلاع والاسوار الـتي يقول الادلاء للسيّاح إنها ترتقي الى الفتح الاسلامي . ولعل أسماء بعض الاماكن في سويسرا عربية الاصل .

وجاء استرجاع النصارى لباري (سنة ٨٧١) بدء نهاية الخطر

على ايطاليا واوربا الوسطى من المسلمين. وكان قواد الجيش العربي في باري قد بلغ بهم الامر ان اعلنوا انفسهم « سلاطين » مستقلين عن الامير المقيم في بَلَرْم . وفي سنة ٨٨٠ نشط الامبراطور البيزنطي باسيليوس الاول فانتزع طارَنت (تَرَنتو) ، وهي قلعة حصينة ، من ايدي المسلمين في قَلَوْرِيَة . وبذلك انتهت آخر مراحل التوسّع العظيم الذي كان بدؤه في جزيرة العرب النائية قبل قرنين ونصف القرن . وحتى هذا اليوم نجد الشاطئ الجميل الى الجنوب من نَابُل Naples مرصعاً بعدد من « الابراج العربية » التي كانت تعتمد للاعلان عن مقدم الاساطيل العربية من صقلية أو من افريقيا .

وبدأ الفتح النورمندي لجزيرة صِقِلّية باحتلال الكونت روجر Roger بن تانكِرد دي هوتفيل Tancred de Hauteville في سنة ١٠٦٠ لمدينة مسّينا الامر الذى افضى الى سقوط بَلَرم سنة ١٠٧١ وسَرَقُوسَة (Syracuse) في ١٠٨٥ . وانتهى الاستيلاء على كل الجزيرة في ١٠٩١ . وفي سنة ١٠٩٠ احتلّ روجر مالطة . وقد كان لهؤلاء النورمنديين الاشدّاء دولة قوية في القارة الاوربية . وها هم الآن يثبّتون اقدامهم في الممتلكات الجديدة .

وشاهدت صِقِلّية في عهد النورمنديين ظهور ثقافة نصرانية اسلامية رفيعة . وسرت الى هذه الجزيرة - وهي حافلة بذكريات المدنيات السابقة - طيلة الحقبة العربية مجاري الثقافة الشرقية التي امتزجت بتراث اليونان والرومان الثمين فبرزت بشكل خاص تحت لواء الحكم النورمندي وطبعت ثقافة النورمنديين بميزتها

الخاصة . وكان العرب الى هنا منهمكين بحروبهم وخصوماتهم فلم يتسع لهم الوقت ليرقّوا الفنون التي تروج ايام السلم . أما الآن فقد أطلقوا العنان لمواهبهم الخصبة واخرجوا نتاجاً قيماً في الفن والثقافة العربية النورمندية .

ومع أن روجر الاول كان نصرانياً غير مثقف فقد جعل معظم جيش المشاة من المسلمين وشمل العلوم العربية بعطفه . فاحاط نفسه بالفلاسفة الشرقيين والمنجمين والاطباء ومنح غير النصارى كامل الحرية في ممارسة طقوسهم ، حتى أن بلاطه في بَلَرْم كان شرقياً اكثر منه غربياً . وبقيت صِقِلّية بعدهُ مدةً تزيد على القرن فريدة من حيث كونُها مملكةً نصرانية اتصفت باسناد بعض المناصب العليا فيها الى رجال مسلمين .

وأقدم وثيقة مكتوبة على الورق في اوربا تلك التي تتضمن أمراً إدارياً اصدرته باللغة اليونانية والعربية زوج روجر الاول وذلك في الراجح سنة ١١٠٩ . والمظنون ان هذه الوثيقة كتبت على ورق استورده عرب صقلية من الشرق .

وكان روجر الاول اول من احيى العربية من ملوك صِقِلّية. وتلاه في العناية بها ابنهُ روجر الثاني (١١٣٠ — ١١٥٤) . ثم فردرك الثاني . اما روجر الثاني فارتدى الملابس الاسلامية حتى سمّاه ناقدوه « الملك نصف الوثني » . وكانت جبته تزدان بالحروف العربية . وفي ولاية حفيدهِ وليم الثاني (١١٦٦ — ١١٨٩) شاهد ابن جُبَير النساء النصرانيات في بَلَرْم خارجاتٍ في زيّ المسلمات. وكان الادريسي وهو اشهر عالم في الجغرافية ورسم الخرائط في

العصور الوسطى المعَ شخصية ازدان بها بلاط روجر الثاني . ولد ابو عبدالله محمد بن محمد الادريسي سنة ١١٠٠ من ابوَين عربيين اندلسيين وتوفي سنة ١١٦٦ . وتجلت مواهبهُ في بَلَرْم حيث وقف حياتهُ على الانتاج الادبي برعاية روجر الثاني . اما رسالتهُ (كتاب روجار) الموسومة بـ (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) فلا تقتصر اهميتها على تلخيص الموضوعات الرئيسية التي عُنِيت بها الكتب السابقة كمؤلفات بطليموس والمسعودي بل قامت في الدرجة الاولى على تقارير مبتكرة حملها اليه رواة كان قد أوفدهم الى بلدان متفرقة لكي يأتوه بالمعلومات والملاحظات . وقد أظهر الادريسي في غربلة هذه المواد وتحرّي حقائقها رجاحة عقل كبرى ، وفهماً لدقائق الامور كادراكه كرويّة الارض . وهو الذي عيّن منبع نهر النيل في انجاد افريقيا الاستوائية على الرغم من القول الشائع بأن اكتشاف منبع هذا النهر لم يتم الا في اواسط القرن التاسع عشر . وفضلاً عن هذا المؤلف الضخم فان الادريسي صنع لوليّ نعمتهِ النورمندي كرةً سماوية وخريطة للعالم في شكل قرص ،وكلتاهما من الفضة .

كان روجر الثاني احد « سلطانَي صِقِلّية المعمّدَين » . اما السلطان الآخر فهو حفيدهُ فردرك الثاني الذي بسط حكمهُ على صِقِلّية والمانيا . وعلاوة على تمتعه بعد سنة ١٢٢٠ بلقب « امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة » فقد اصبح ملك بيت المقدس بفضل زواجه من ولية العهد ايزابيل البِريْنِيَة Isabelle of Brienne . واذاً فقد كان للامبراطور فردرك اعظم

سلطة مدنية في العالم المسيحي لذلك العهد . وبعد زواجه بثلاث سنوات قام بحملة صليبية عاد منها وقد ازداد تأثره بالافكار الاسلامية .

وكان فردرك في عاداته الشخصية وحياته الرسمية شبه شرقي حتى انه اقام لنفسه بيت حريم خاص . وزها في بلاطه فلاسفة من سورية وبغداد ذوو لحى مستطيلة وملابس فضفاضة وقيان وراقصات شرقيات ويهود شرقيون وغربيون . ولقد اظهر اهتماماً خاصاً بالعالم الاسلامي تجلى في علاقاته السياسية والتجارية واخصها ما كان مع سلطان مصر الايوبي . واستدعى اختصاصيين من مصر لاجراء التجارب في بيض النعام وحضانتها بحرارة الشمس . واحضر من سورية رجالاً ذوي كفاءة وبراعة في ترويض البزاة ، وكان يراقبهم في تدريب هذه الطيور التي كان يُجري التجارب عليها بان يخيط عيونها ويطلقها ليتحقق فيما اذا كانت تهتدي الى طعامها بواسطة حاسّة الشمّ . وعهد الى ترجمانه ومنجّمه ثاذرى (ثيودور) وهو نصراني يعقوبي من انطاكية بنقل رسالة عربية في موضوع البزاة . وهذه الترجمة ، وترجمة اخرى من الفارسية ، جاءتا اساساً للكتاب الذي وضعه فردرك في ترويض البزاة والصيد بها . وهو اول مصنّف في التاريخ الطبيعي . وكان قد سبق ثاذرى في خدمة البلاط المنجم ميخائيل سكوت الذي تمثلت فيه العلوم الاسلامية في صِقلّية واسبانيا من سنة ١٢٢٠ – ١٢٣٦ ، وقد هيّأ ميخائيل سكوت للامبراطور عن طريق الترجمة من العربية الى اللاتينية موجزاً تضمّن خلاصة مؤلفات ارسطو في البيولوجيا وعلم الحيوان مع شرح ابن سينا

فقدّمه الى وليّ نعتمه. فهذه الروح التي تكاد تكون حديثة — روح التنقيب والبحث والاختبار التجريبي التي امتاز بها بلاط فردرك — كانت فاتحة عصر النهضة العلمية الايطالية .

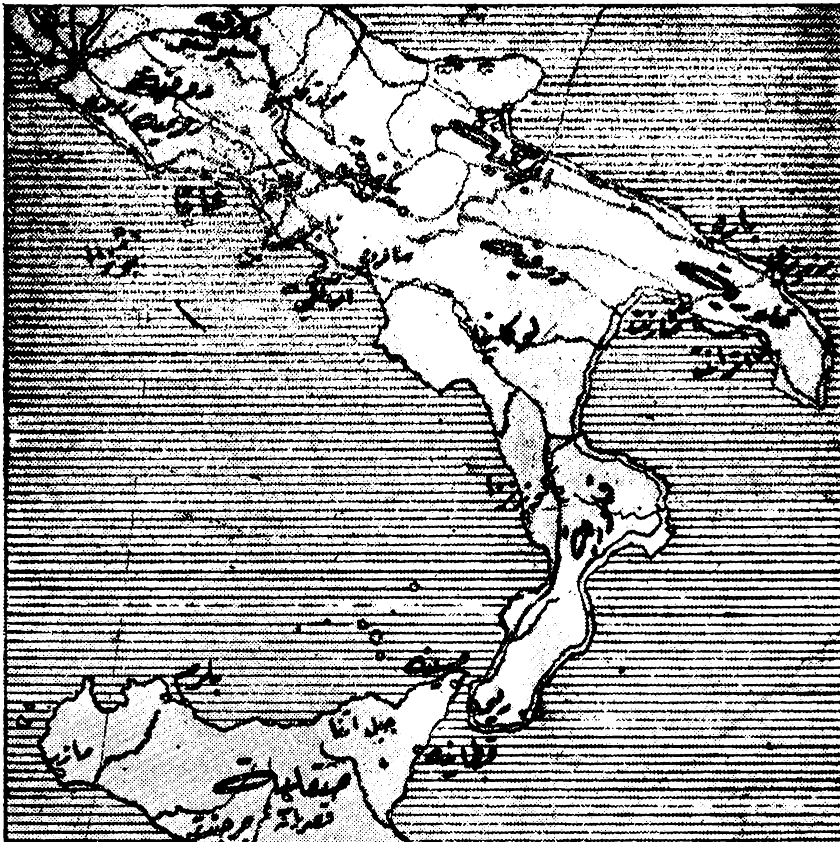
امــا أعظم مآتي فردرك فتأسيس جامعة نَابُل في سنة ١٢٢٤ وهي اول جامعة في اوربا تأسست ببراءة رسمية . وقــد اودع فردرك هذه الجامعة مجموعةً كبيرة من المخطوطات العربية . وأمر بترجمة مصنفات ارسطو وابن رشد لتُصبح كتب التدريس فيها . وقد أرسلت نسخٌ من هذه الترجمات الى جامعتي باريس وبولونيـا Bologna . وكان في عــداد تلامذة جامعة نابُل ُتوماس الأقويني احد اعلام الفلسفة المسيحية المدرسية (سكولاستيك). وفي القرن الرابع عشر والقرون اللاحقة غدت الدراسات العربيــة جزءاً من مناهج عدة جامعات في اوربا. ومنها جامعتا اكسفورد وباريس . ولكن الباعث على ذلك اختلف عما كان عليه سابقاً وانتهى إلى ان يكون إعدادَ المرسلين المسيحيين إلى البلدان الاسلامية .

وكانت صِقِلِّية نقطة التلاقي لثقافتين ممتازتين . ولقد توفرت فيها الأسباب لتكون واسطة لنقل علوم العصور القديمــة والعصور الوسطى . وكان سكانها يتألفون من عنصرين : عنصرٍ يوناني يتــكلم اليونانية وآخر اسلامي يتكلم العربية وفئة ثالثــة من العلماء يحسن افرادها اللاتينية . فدَرجت هذه اللغات الثلاث على السنة القوم في المجالس العامــة والخاصة واستُخدمت في السجلات الرسمية وفي إصدار البراءات الملكيّة .

ولما كان الملوك النورمنديون وخلفاؤهم يحكمون علاوة عــلى

جزيرة صقلية ايطاليا الجنوبية فقد تسنى لمملكتهم أن تكون جسراً تعبر عليه شتى عناصر الثقافة الاسلامية الى شبه الجزيرة الايطالية واوربا الوسطى . وحوالي منتصف القرن العاشر بدأت آثار العلوم العربية تظهر في شمال الالب. أما آراء دانتي في الآخرة فقد تكون غير مستقاة رأساً من مصدر عربي معين ولكنه لا ريب في أنها شرقية الاصل استمدها هذا الشاعر من ادب اوربا العامي لذلك العهد . وهذه المؤثرات الشرقية التي تطرّقت الى الغرب بواسطة مجارٍ مختلفة ظاهرةٌ في ميدان الفن ظهورَها في العلم والادب . ولقدظل الصناع المسلمون وحذاق الفن يزدهرون فيصقلية وجنوبي ايطاليا لأمد طويل بعد خضوع صقلية والقسم الجنوبي من شبه الجزيرة للحكم المسيحي . تشهد بذلك أنواع الفسيفساء والنقوش في كنيسة البلاتين Palatine . أما معمل الحياكة الشهير الذي أحدثه امراء المسلمين في قصر بَلَرْم الملكي فقد أمدّ ملوك اوربا بالملابس الرسمية مطرزةً بالعبارات العربية . وبلغ الطلب على المنسوجات الشرقية درجةً عظمى حتى أن الاوربي لم يكن يحسب نفسه حسنَ الهندام ما لم يكن في حيازته رداء شرقي واحد على الاقل .

وفي خلال القرن الخامس عشر ، عندما كانت البندقية (فنيس) الغنيةتُقبل على الازياء الشرقية وتعملعلى نشرها ، اكتست الكتب المجلّدة في المصانع الايطالية حلةً شرقية .وظهرت الكتب المسيحية حاملةً خصائص التجليد العربي ومن اهمها ردّة الجلدالتيُتطوى على الكتاب لصيانة مُقدّمه . وفي الوقت نفسه تلقن صناع عدة مدن ايطالية ، عن الصناع الشرقيين ، طرقاً جديدة في زخرفة جلدتي



صقلية وايطاليا الجنوبية من القرن العاشر الى القرن الحادي عشر

ممثلة « الاحتلال الاسلامي ». انظر ايضاً الخريطة التي على ص ٨٧

الكتاب وتزيينها بالرسوم . زد على ذلك ان البندقية أصبحت موطن صناعة عربية أخرى قائمة على ترصيع النحاس الاصفر بالذهب أو الفضة أو النحاس الاحمر . وعلى الجملة فان صِقِلّية من حيث نقلُها الثقافةَ الاسلامية جديرة بمنزلة تجعلها دون اسبانيا اهمية وفوق سورية شأناً في زمن الحروب الصليبية .

وفي الوقت الذي كان يُقضى فيه على آثار السلطة الاسلامية في الاندلس كانت الخلافة في بغداد تلفظ انفاسها الاخيرة بداعي الفتن الدموية والدسائس في الدولة . وظهور الدولة الطولونية في قلب الخلافة الاسلامية خلال القرن التاسع دلّ بوضوح على ما سينتاب هذه الخلافة من الكوارث وعلى كيفية وقوعها . ولقد كانت الدولة الطولونية ابكر تكتّل سياسي قام به العنصر التركي الذي لم يكن له من قبل اثر محسوس . وما لبث ان عقب هذه الدولة دويلات تركية أخرى فاقتها شأناً ومدى . وما احمد بن طولون الذي استولى على السلطنة سنة ٨٦٨ إلاّ مثالٌ لكثيرين ممن شيدوا على انقاض الخلافة المتداعية دويلاتٍ انفصلت عن الخلافة انفصالاً تاماً او أقرّت بها إقراراً اسميّاً فقط . وسيرة احمد تبرهن على مقدار الاستقلال الذي تمكن القواد الطموحون من الاستئثار به عند اعتمادهم على الجيش وانفرادهم بالسلطة السياسية على حساب الحكومة المركزية التي حالت ضخامتها وسعة ممتلكاتها وتباعد اقطارها دون ادارتها بمقدرة وكفاءة . الا ان الدولة الطولونية وما عقبها من دويلات لم تكن ترتكز على اساس قومي في البلاد التي تولتها ولذلك لم تعش طويلاً . وكان مصدر الضعف فيها عدم وجود

جماعة كبيرة في البلاد من العنصر الحاكم تسند الدولة . والحكام انفسهم انما كانوا غرباء معتدين انتصروا بحرس او جيش مأمور افرادُهُ دخلاء على البلاد .على ان سلطاناً كهذا لا يدوم إلا ديمومةَ القائمين به من ذوي الشخصيات البارزة والمواهب الفائقة . حتى اذا ما فترت همة منشىء الدولة او اميرها اعتورَ الانحلالُ جسمَ الدولة كلها . فلا عجب اذا كانت الدولة التي شيدها ابن طولون رجعت الى حوزة العباسيين في ولاية شيبان (٩٠٤ – ٩٠٥) ابنِهِ ورابع خلفائه .

أما الدولة الوحيدة التي دامت نيفاً وقرنين والتي سطّرت صفحة رائعة في التاريخ فكانت دولة الخلافة الفاطمية ، وهي الخلافة الشيعية الرئيسية الوحيدة في الاسلام . قامت هذه الخلافة في تونس سنة ٩٠٩ متحدّيةً الزعامة الاسلامية التي مثلها خلفاء بغداد العباسيون . ولم يطل الامر حتى انتشر لواء هذه الدولة على سائر افريقيا الشمالية ومصر . وفي عهدها بلغت القاهرة من الازدهار والعزّ شأواً بعيداً . ولكن دولة الفاطميين ، على الرغم من هذا السؤدد الذي تمتعت به ، لم تدم مدةً أطول إذ اخذت الدسائس المألوفة تعبث بها وطفق الفساد يُضعف من كيانها . زد على ذلك تعسّر احوال عامة الشعب الذي كان يعتمد في قوتهِ على فيضان النيل ، وما اصابهُ من المجاعات والاوبئة وما فرض عليه من الضرائب الباهظة التي أثقلت كاهله . الا ان هذه المحن انتهت بظهور صلاح الدين في عهد الصليبيين وخلعه آخر خلفاء الفاطميين سنة ١١٧١

وتمثل الحقبة الفاطمية ، من الناحية السياسية ، فجرَ عصر

جديد في تاريخ وادي النيل الذي استرجع بها ، لاول مرة منذ ايام الفراعنة ، سيادته القومية التامة في حكومة عزيزة الجانب شديدة الحيوية قامت على اساس دينيّ . ولقد زار مصر ناصِري خُسْرَو الفارسي احد دعاة الاسماعيلية سنة ١٠٤٦ – ١٠٤٩ ، اي قبل الكارثة الاقتصادية السياسية التي اشرنا اليها ، فدوّن لنا وصفها في لغة تفيض بالاعجاب . ومما ذكرهُ ان قصر الخليفة المستنصر كان يسع ثلاثين الف نسمة منهم اثنا عشر الف خادم والف فارس وحارس . وأنه رأى هذا الخليفة الشاب في احد الاعياد على بغلة فاذا به فتى وسيم الطلعة حليق الوجه عليه ملابس بسيطة منها قفطان ابيض ، وعلى رأسه عمامة ، والى جانبه حاجب يظلله بمظلّة مرصعة بالحجارة الكريمة . وكان لهذا العاهل سبع سفن راسية الى ضفة النيل طول الواحدة مئة وخمسون ذراعاً وعرضها ستون . وكان الخليفة يملك في العاصمة عشرين الف بيت اكثرها مبني باللّبِن ، وتتألف من خمسة ادوار أو ستة وفي اسفلها مثل ذلك من الحوانيت يؤجر أحدها بما بين الدينارين والعشرة في الشهر. وكانت الشوارع الرئيسية مسقوفة ومضاءة بالقناديل . وكانت لاصحاب الحوانيت اسعار محدودة للبيع فاذا بدر من احدهم غشّ في معاملته نالهُ التشهير ، أي أركِب على جمل وطيفَ به في اسواق المدينة على صوت الاجراس وأجبِر على المناداة بذنبه . وحتى حوانيت الصاغة والصرّافين كان يتركها اصحابها ليلاً غير مقفلة . وكان في الفسطاط القديمة سبعة جوامع وفي القاهرة ثمانية . وتمتعت البلاد كلها بقسط من الامن لا يُستقلّ وبجانب من الثروة جعلا ناصِري خُسْرَو

يقول : « لم استطع حصر ثروتها ولا قدرها ولم يسبق لي رؤية تلك النعمة في بلد آخر » .

وفيما كان الفاطميّون يحكمون مصر وافريقيا الشمالية كان الانحلال يدب بسرعة في قلب الامبراطورية الشائخة في بغداد . في هذه الظروف قامت دولة السلاجقة الترك فتمتعت بحقبة رائعة من النفوذ والسموّ في الشرق الاسلامي . وتولى طُغْرُل السلجوقي الحكم في عاصمة الخليفة سنة ١٠٣٧ وعظمت قوة جيش السلاجقة بما انضم اليه من قبائل الترك النشيطة فوسعوا فتوحاتهم في جميع النواحي حتى غدَت آسيا الغربية مملكة اسلامية موحدة . فانتعشت السلطة الاسلامية بعد اعتلالها وعاد الى الاسلام مجده — ذلك ان عنصراً جديداً من آسيا الوسطى تدفقت امواجه فشد أزر الاسلام في طموحه الى السيادة العالمية . والواقع ان قصة هؤلاء السلاجقة الكفار الذين قهروا المؤمنين من ملة محمد ثم اعتنقوا الاسلام فانقلبوا حماته الغُير ليست فريدة في تاريخ هذا الدين . فقد سلك مسلكهم اقوام اخرى منهم ابناء عمهم المُغُول في القرن الثالث عشر وذوو قرباهم الترك من آل عثمان في مطلع القرن الرابع عشر . وهكذا كان يُقيّض للاسلام في اشد ساعاته من يدخل في حظيرته فيساعده على تحقيق اهدافه ومتابعة انتصاراته .

واخيراً جاءت الساعة التي عانى فيها الاسلام اشد مصاعبه وذلك عندما ظهر في سنة ١٢١٦ جنكيزخان على رأس جيش جرار مؤلف من ستين الفاً من أقوام المُغُول الهمجية على خيول سريعة حاملين اسلحة من نبال غريبة الاشكال . فاجتاح البلاد والقى الرعب في

الناس وأمعن في التخريب والتدمير اينما حلّ . وقد انطمست امام هجمات المُغول معالم الثقافة في عواصم الاسلام الشرقية فاصبحت الديار التي باهت بقصورها الفخمة وخزائن كتبها قاعاً صفصفاً وافناء خاوية لا حياة للعلم فيها . وجرت الدماء على طول الطريق الذي سلكته عساكرهم تاركة اثراً لا يُمّحي . هذه مدينة هَرَاة كان سكانها مئة الف لم يبق منهم الا اربعون الفاً . وهذه مساجد بخارى المشهورة بابنائها الاتقياء والعلماء جُعِلت أصاطب (جمع اصطبل) لخيول المُغول . وكثيرون من سكان سمرقند وبَلْخ استبيحت دماؤهم او وقعوا في الاسر . اما خوارِزم فخربت واصبحت اثراً بعد عين . وفي رواية متأخرة ان جِنْكيزخان لدى فتحه بخارى وصف نفسه في خطبة له قائلًا إنه « آفة من الله أرسلت الى الناس قصاصاً على معاصيهم » . وهكذا اجتاح هذا القائد المغولي العالم الاسلامي ووضع الاساس لأكبر امبراطورية شاهدها العالم هزّت في النصف الاول من القرن الثالث عشر اركان كل قطر ما بين الصين والادرياتيك ، واكتسح رجالها بعض اجزاء روسيا واواسط اوربا حتى شرقي بروسيا . ولو لم يُمُتْ ابن جِنْكيزخان وخلَفُه سنة ١٢٤١ لما نجت اوربا الغربية من هذه القبائل المغولية .

وفي سنة ١٢٥٣ غادر هولاكو حفيد جِنكيز خان بلاد المغول على رأس جيش جرار عازماً على إبادة الخلافة . فكانت موجة مغولية ثانية اكتسحت في طريقها كل الامارات التي كان يسعى اصحابها في توطيد ملكهم على أنقاض الامبراطورية . وفي كانون الثاني من سنة ١٢٥٦ هاجم هولاكو اسوار بغداد واعمل المنجنيق

فيها . وما لبث رجاله ان فتحوا ثغرة في احد ابراجها فخرج الوزير ابن العَلْقمي ومعه جاثليق النساطرة – وقد كانت لهولاكو زوجة نصرانية – للمفاوضة بالصلح . الا ان ُهولاكو رفض مقابلتهما ولم ُيصغ الى كلام القائلين بان الحتف كان من نصيب الذين يتجرّأون على قهر مدينة السلام او النيل من خليفة بني العباس وانه « متى ُقتل الخليفة اختلّ نظام العالم واحتجبت الشمس وامتنع القطر والنبات . » لم يَعبأ ُهولاكو بشيء من هذا بل اخذ بنصيحة منجّميه . فلم يكن اليوم العاشر من شباط حتى اقتحمت عساكره المدينة فخرج الخليفة وثلاثمائة من خاصّته خاضعين مسلمين دون قيد او شرط . فأمر الفاتح بقتلهم بعد عشرة ايام . واعمل جنده النهب والنار والتقتيل في المدينة حتى محوا سواد سكانها وفيهم اسرة الخليفة. ولقد نقل الهواء من كريه رائحة الجيف المنتنة واشلاء القتلى المطروحة في الشوارع ما اضطرّ هولاكو ان يبتعد عن المدينة اياماً . واذ قد عزم على نزول بغداد واتخاذها مسكنا فانه لم يمعن فيها تخريباً إمعانه في المدن الاخرى . لكنه عامل جاثليق النساطرة معاملة طيبة وابقى على بعض المدارس والمساجد ورمم البعض الآخر مما تهدم . ولاول مرة في تاريخ الاسلام خلا كرسي الخلافة من خليفة ُيدعى له من على المنابر في خطبة الجمعة .

وفي سنة ١٢٦٠ نشط هولاكو الى شمال الشام فتهددها . وبعد استيلائه على حلب وإعماله السيفَ في رقاب خمسين الفاً من سكانها دخل حماة وحارِم . ثم انفذ قائداً لحصار دمشق ولكن وفاة اخيهِ الخان الكبير اضطرته الى الرجوع الى ايران . بيد ان الجيش الذي

تركه وراءه في الشام فتح سائر البلدان السورية الى ان قضى عليه في العام نفسه بَيْبَرس القائد الممتاز العامل في خدمة احد سلاطين مماليك مصر بالقرب من الناصرة ، وقد صار فيما بعـــد من سلاطين المماليك اللامعين .

وتوفي هولاكو سنة ١٢٦٥ وكان اول من اتخـــذ لنفسه لقب إيل خان (الخان الصغير) . ولم يكد يمضي على وفاته نصف قرن حتى اعترف سابع الخانات بالاسلام ديناً للدولة ، فجاء ذلـك فوزاً جديداً باهراً لدين محمد مماثلًا لفوزه على يد السلاجقة .

وفي هذا الوقت كان الاسلام يتعرض في الجبهة الغربيـــة من البـــلاد لهجوم آخر سطرت حوادثه صفحة رائعة في تاريخ المدنية وسطع فيه نجم اعظم ابطال الاسلام . ذلك عهد الصليبين وصلاح الدين .

الحُرُوبُ الصَّليبيّة

تمثل الحروب الصليبية فصلًا متوسطـــاً من فصول تلك القصة الطويلة التي تتناول التفاعل بين الشرق والغرب . وهي قصة متعاقبة منــذ حروب طروادة وحروب فارس واليونان الى عصرنا الحاضر المتميز بالاستعمار الاوربي . أما بوجه خاص فقـــد كانت الحروب الصليبية بمثابة ردّ فعل ضد الاسلام في العالم المسيحي ، وبمثابـــة قيام اوربا المسيحية على آسيا الاسلامية التي كانت اتخذت خطـــة الهجوم منذ سنة ٦٣٢ ليس على سورية وآسيا الصغرى فقط بل على اسبانيا وصِقِلِّية ايضاً . وللحروب الصليبية اسباب اخرى منهـا النزعات الحربية والميول القومية إلى الهجرة التي امتازت بهـــا قبائل الطوطون الذين غيّروا خريطة اوربا مذ تعاقبوا عـــلى املاك الامبراطورية الرومانية . ومنها هدم كنيسة القيامـــة بامر

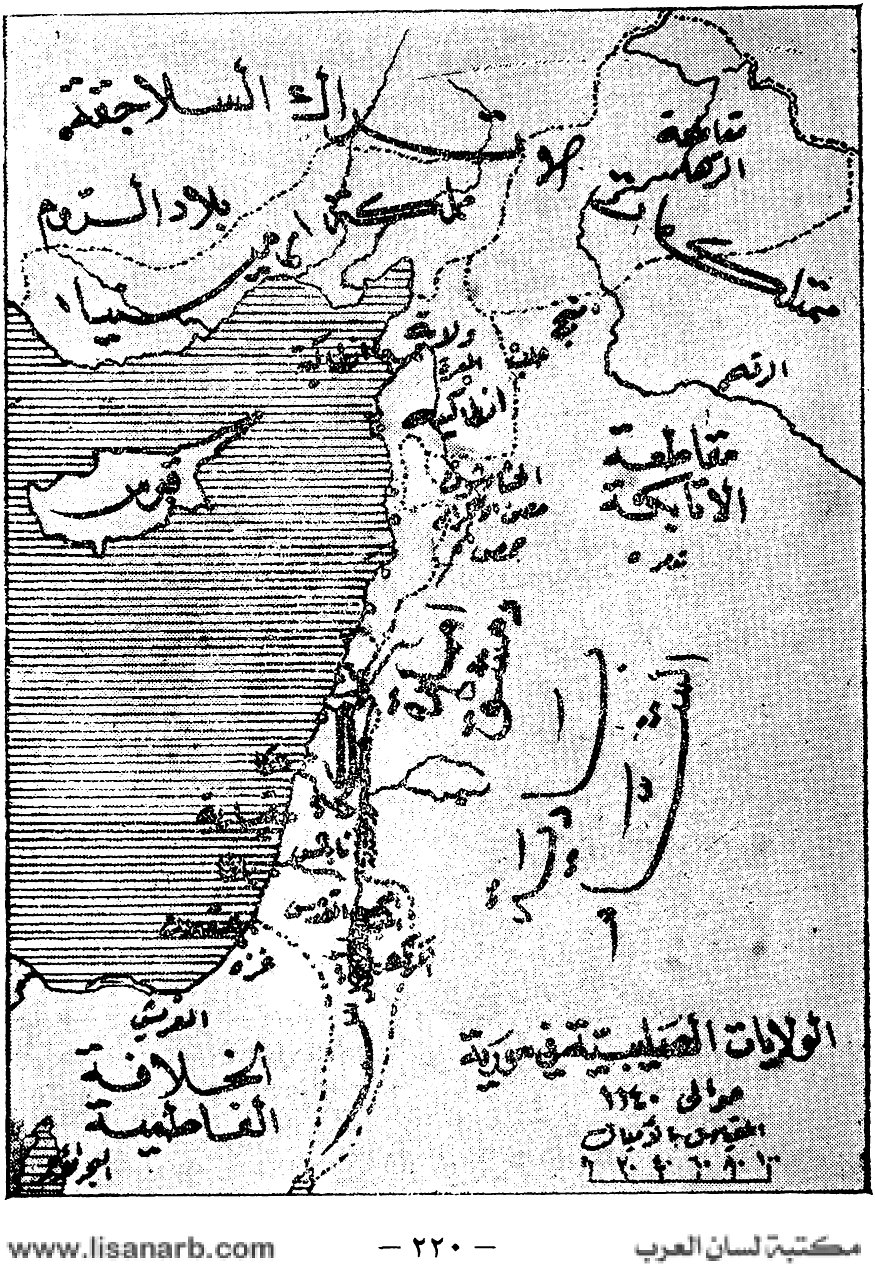
الحاكم الخليفة الفاطمي سنة ١٠٠٩ وهي مزار كان يحجّ اليه الوف الاوربيين، وكانت مفاتيحها قد أرسِلت سنة ٨٠٠ الى شرلمان على سبيل البركة من بطريرك اورشليم . زدْ على ذلك الصعوبات التي كان يضعها السّلاجقة المسلمون في سبيل الحجاج من النصارى أثناء مرورهم في آسيا الصغرى لزيارة بيت المقدس . اما الباعث المباشر على هذه الحروب فكان الاستنجاد الذي ارسلهُ سنة ١٠٩٤ الامبراطور ألكسِيوس كُوْمنِينوس الى البابا أربانوس الثاني عندما اكتسح السّلاجقة املاك الامبراطور الاسيوية حتى بحر مرمرا واخذت جيوشهم تهدد القسطنطينية نفسها . ولعل البابا رأى في ذلك الاستنجاد فرصة سانحة لضم الكنيسة اليونانية الى كنيسة رومة . وكان الانشقاق التام النهائي في الكنيسة المسيحية قد حدث سنة ١٠٥٤ .

وقد تكون الخطبة التي القاها البابا أربانوس في ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٠٩٥ في كلارمونت من اعمال فرنسا الجنوبية الشرقية مستنهضاً بها همم المؤمنين « لسلوك الطريق المؤدية الى كنيسة القيامة وانتزاعها من ايدي القوم الاشرار والاستيلاء عليها » نقول قد تكون هذه الخطبة اشد خطب التاريخ أثراً . وللحال تنادى الفرنجة إلى الحرب صارخين « إنها ارادة الله » . فرددت بلادهم هذه الصرخة وتجاوبت اصداؤها في كل ناحية فملكت جوامع القلوب . وما جاء ربيع السنة اللاحقة حتى استجاب للدعوة الى السلاح نحو مئة وخمسين الف رجل اكثرهم من الافرنسيين (الذين كانوا يدعون فرنك Franks اي فرنجة وهو الاسم الذي أطلِق بعدئذٍ على

الغربيين جميعاً) والنورمنديّين. واحتشد هذا الجيش في القسطنطينية وبذلك بدأت الحملة الصليبية الاولى . وإنما وسمت بهذا الوصف اشارة الى الصليب الذي حمله اعضاؤها علامةً على صدورهم .

وجديرٌ بالذكر انه ليس كل من اشترك في هذه الحملات كان مدفوعاً بالعاطفة الدينية . فعدّة من الزعماء ومنهم بوهيمند إنما كان هدفهم الرئيسي افتتاح اراضٍ جديدة يرفعون عليها أعلامهم . اما تجار بيزا والبندقية وجنوى فكان رائدهم مصالح تجارية . فعوامل هذه الحروب كثيرة تشمل مطامح المغامرين واهل الشقاوة وشذاذ الافاق مع آمال الاتقياء وحنين المجرمين الى التكفير عن معاصيهم. والواقع ان اندفاع الجماهير في فرنسا واللورين وايطاليا وصقلّية إلى امتشاق الحسام لم يكن كله تضحية بل تفريجاً للأزمة الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تعانيها تلك البلدان .

اما تصنيف هذه الحملات الصليبية ، إلى سبعٍ او تسع ، على ما يذهب المؤرخون فبعيد عن المنطق ، غير وافٍ . ذلك بان مجرى هذه الحملات كان متواصلاً ومن الصعب فصل الحملة الواحدة عن الاخرى فصلاً واضحاً لا غموض فيه . ومن هنا كان الاصح تقسيم هذه الحروب الى ادوار ثلاثة : اولاً دور ظفر للافرنج وقد امتدّ حتى سنة ١١٤٤ . وثانياً دور رد فعل اسلاميّ انتهى بانتصارات صلاح الدين الباهرة . وثالثاً الحروب الاهلية والمعارك الصغرى التي انتهت سنة ١٢٩١ عندما فقد الصليبيون آخر سلطة لهم في برّ الشام . واذن فدور الظفر انقضى برمّته قبل بداية ما هو معروف بالحملة الثانية (١١٤٧ — ١١٤٩) . في حين انتظم الدورُ الثالث


الولايات الصليبية في سورية
حوالي ١١٤٠
بلاد الروم
قبرس
الخلافة الفاطمية
العريش
غزة
متاطعة الاتابكة
أنطاكية
الرقة

تقريباً القرنَ الثالث عشر . ومن حملات الدور الاخير واحدة على القسطنطينية (١٢٠٢ – ١٢٠٤) واثنتـــان فاشلتان على مصر (١٢١٨ – ١٢٢١) ،وواحدة على تونس (١٢٧٠) .

كانت طريق الحملة الصليبية الاولى بعد احتشادها في القسطنطينية عبرَ آسيا الصغرى ، وكان الظفر يرافقها . فاسترد ألكسيوس — وكان قد اخذ من جميع زعماء الصليبيين يمين الطـــاعة الاقطاعي — النصفَ الغربي من شبه جزيرة الاناضول . وبذلك تأخرت غزوة الترك على أوربا ثلاثـة قرون ونصف قرن .

وسقطت في ايدي الصليبين سنة ١٠٩٨ طرسوس وانطاكية وحلب . وكان اكتشاف الصليبيين في كنيسة في انطاكية« للحربة المقدسة » ، التي طُعن بها جنب المُخلّص وهو على الصليب ،ملهباً لحماستهم . وكانت هذه المدن في ايدي السلاجقة . وفي ٧ حزيران سنة ١٠٩٩ وقف جيش الفرنجة المؤلف من اربعين الفاً نصفهم من الجنود المدرّبـــة ، على ابواب بيت المقدس الذي لم تزد حاميتـه المصرية الفاطمية على الف رجل . وطـاف الصليبيّون اولاً حول المدينة حفاةً ينفخون بالابواق ، وكلهم رجاء ان تسقط اسوارها كما سقطت اسوار أريحا في ايدي العبرانيين ، إلا ان الحصـــار الذي ضيّقوه عليها شهراً كان اشدّ اثراً وأنجع . وفي الخامس عشر من تموز هاجم العدو المدينةَ واعمل السيف في رجالها ونسائها واطفالها دونما تمييز« حتى شوهدت اكوام الرؤوس والايـدي والارجل في شوارع المدينـــة ومربعاتها » . حتى إذا سقطت أورشليم شعر كثيرون من الصليبيين ولفيف الحجاج ان نذورهم قد وفيت فأبحروا

عائدين الى اوطانهم الاوربية .

وانشأ القواد بوهيمند Bohemond وبولدوين Baldwin وغودفري Godfrey وتَانكْرِد Tancred تحت زعامة ريموند ده تولوز Raymond ، وهو اعظم نبيل افرنسي ، إمارتين ومملكة لاتينية في سورية . اولها إمارة شمالي سورية وعاصمتها انطاكية ، وثانيها في فلسطين وعاصمتها اورشليم وهي التي اصبحت فيما بعد مملكة ، وثالثها في طرابلس على الشاطىء اللبناني . وقد جرى انشاء غيرها فيما بعد ذلك. غير انهذه الدويلات لم تُعَمّر طويلا لما قام فيها من منازعات وخصومات . وليس تاريخها في الواقع الا فصلاً من تاريخ اوربا لا من تاريخ بلاد العرب . ولكن اهم ما يسترعي انتباهنا في هذه العجالة هو العلاقات الودية والسلمية التي قامت بين الغربيين وابناء البلاد الوطنيين .

جاء الفرنجة الى الاراضي المقدسة وهم يحسبون انفسهم ارفع منزلة من اهلها ويعتبرونهم وثنيين يعبدون محمداً إلهاً . ولكنهم ما كادوا يحكمون الصلات بالمسلمين حتى سقطت الغشاوة عن عيونهم . اما الاثر الذي تركه الفرنجة في نفوس المسلمين فقد عبر عنه المؤرخ العربي أسامة بقوله في « كتاب الاعتبار » انهم « بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير » . ولكن الاختلاط الذي لم يكن منه بد بين الجانبين في ايام السلم – وهي اطول من ايام الحرب كثيراً – ادى الى تطوّر الشعور بين الفريقين فأحْكِمَت على اثر ذلك علاقات الصداقة وحسن الجوار . وصار الفرنجة يستأجرون صنّاعاً وفلاحين يأتمنونهم . وما لبث النظام الاقطاعي الذي اوجدوه ان تحول

واصبح على مرور الايام ملائماً لاحوال البلاد . واتخذ الفرنجة لانفسهم الخيول العربية والبزاة وكلاب الصيد وعقدوا اتفاقيات مع العرب لحماية الصيادين من الاعتداء . كذلك تحالف الفريقان على صيانة رجال السفر والتجارة فوضعوا لذلك قوانين جرى الفريقان على مراعاتها . واقلع الفرنجة عن لباسهم الاوربي واختاروا الازياء الوطنية التي كانت ادعى الى الراحة واكثر ملاءمة لطبيعة البلاد . واكتسبوا اذواقاً جديدة في الطعام فأحبّوا بخاصة الالوان التي يكثر فيها استعمال السكر والتوابل . وفضلوا سكنى البيوت الشرقية التي تتوسطها صحون مكشوفة واسعة فيها نوافير للمياه . وتزوج بعضهم بالوطنيات فنشأ من هذا المزاج جيل جديد متوسط بين الجنسين أشير الى افراده بلفظة « بولان » (Poulains). وبلغ اخذهم بالعقائد المحلية درجة احترموا معها المزارات التي قدسها المسلمون واليهود . وكان اللاتين في بعض خصوماتهم المستمرة فيما بينهم يرحبون بمساعدة المسلمين الذين كانوا يحسبونهم قبلا كفاراً . وكذلك فعل المسلمون ، فكثيراً ما حالفوا الاقوام اللاتينية ضد اخوانهم المسلمين .

ولقد احدث احتلال المسيحيين لسورية ومعظم القطر المصري ردّ فعل في العالم الاسلامي شرع به زنكي التركي سلطان الموصل وخلفَهُ ابنُهُ نورالدين سلطان دمشق ، وبلغ اشد درجاتهِ في ايام الملك الناصر السلطان صلاح الدين يوسف . وُلِد صلاح الدين في تَكْريت على دجلة سنة ١١٣٨ من ابوين كرديّين . ولا نعلم الا القليل عن طفوليّته ودراسته الاولى في سورية . والظاهر ان ميوله

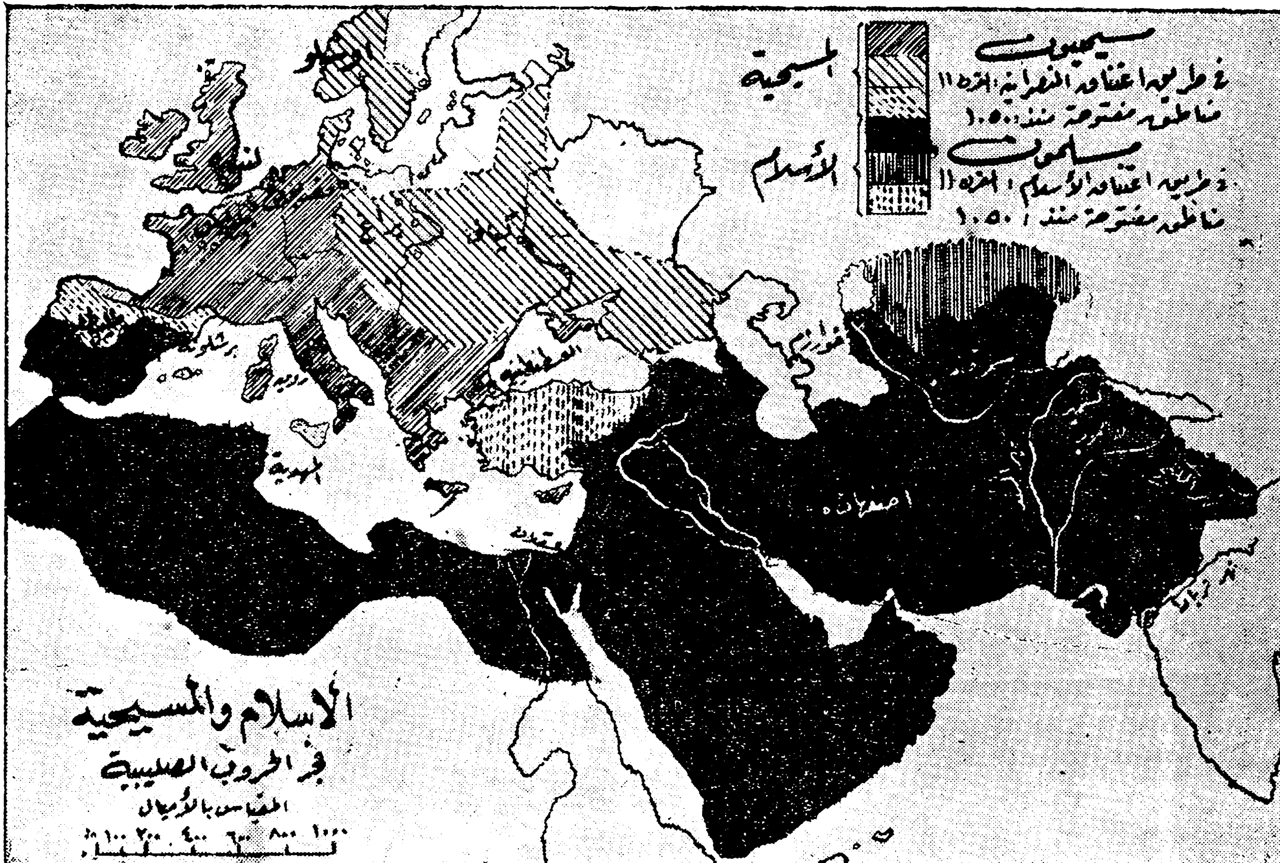
وهو فتىً اتجهت نحو الابحاث الدينية . ولم يشتهر اسمه في الناس حتى سنة ١١٦٤ اذ سار « على كره منه » على ما ذكر المؤرخ ابو شامة في صحبة عمه شيركوه القائد اللامع في خدمة نورالدين في حملته الاولى لاكتساح مصر والقضاء على دولةالفواطم فيها. وكانت لصلاح‌الدين امنيتان وقف حياته في سبيل تحقيقهما . اولاهمـــا انزال السُنّة منزلة الشيعة في مصر والثانيـــة مواصلة الجهاد ضدّ الفرنجة . وفي سنة ١١٦٩ أسندت اليه‌الوزارة في مصر على اثر وفاة عمه شيركوه . وبعد عامين من ذلك قضى على خلافة الفاطميين وامر الخطباء بأن يقطعوا خطبة العاضد آخرهم ويخطبوا للخليفـــة العباسي المستضيء فامتثلوا لامره .

ولتحقيق امنيّتهِ الاخرى بدأ صلاح الدين حملاته على الفرنجة . ففي اول تموز من سنة ١١٨٧ احتل طبريّة بعد حصار دام ستة ايام . وعلى مقربة منها جرت معركة حِطّين . بدأ القتال يوم الجمعة الذي كان صلاح الدين كثيراً مايختاره للجهادفيكون يوم بؤس وشؤم على الفرنجة . وكان في معسكر الفرنجة نحو عشرين الفـــاً انهكهم العطش والحرّ فوقع جلّهم في قبضة جيش صلاح‌الدين . وكان في مقدمة الاسرى الممتازين غي دي لوسينيان Guy de Lusignan ملك اورشليم . فأحسن السلطانُ صلاح الدين الكريم النفس استقباله . اما رفيقه الملك راجينالد ده شاتيون Reginald of Chatillon موقد نار الحرب فنال معاملة اخرى . ولعل راجينالد هذا كان اشد زعماء اللاتين مغامرةً واكثرهم تعدّياً ونقضاً للعهود وأوفرهم إلماماً باللغة العربية . وحين كانت الكرك في عهدته اوقع مراراً بالقوافل الآمنة

يسلبها أمتعتها بينما كان اصحابهـــا يجتازون الطريق خلف اسوار حصنه . كل هذه الامور أتاها خروجاً على شروط العهود والمحالفة . وبلغ منه الكيد للمسلمين ان جهّز اسطولاً اخذ يعيث في شواطيء الحجاز فساداً ويُنزل الاذى بمواكب الحجاج . وكان صلاح الدين قد اقسم اليمين ان يقتل بيده هذا الرجل الذي نكث العهود ولم يحترم شروط الهدنة . وها هي ذي الفرصة قد حانت للوفاء باليمين . فاحتال راجينالد للنجاة بان شرب الماء في خيمـة صلاح الدين وهو عارف بان العادات العربية تحول دون ايقاع الاذى بمن شرب ماء القوم . وإذْ قد شرب الماء دون اذن من صلاح الدين فلم يحظ بأمانه بل جوزي على غدره بان ضرب صلاح الدين عنقه وجمع ما عنـده من فرسان الداويّة Templars والاسْبتاريّة Hospitallers فأمر بهم فضُربت اعناقهم على مشهد من الناس .

وجاء الانتصار بحِطّين قضاءً مبرماً على الفرنجة . وبعد حصار اسبوع سلّمت اورشليم في ٢ تشرين الاول سنة ١١٨٧ وقد تمزّق شمل حاميتها في موقعة حِطّين . فصـــدح صوت المؤذن من على المسجد الاقصى عوضاً عن ناقوس النصارى ، وانزل رجـــال صلاح الدين الصليبَ الذهبي من على قبة الصخرة .

وبسقوط عاصمة المملكة اللاتينية دانت لصـــلاح الدين معظم المدن الافرنجية في سورية وفلسطين . وبعد سلسلة حملات باهرة سقطت اغلب القلاع وكادت هزائم الفرنجة تؤدي الى جلائهم التام عن البلاد . ولم يبق في حوزتهم إلا انطـــاكية وطرابلس وصور وبعض المدن الصغيرة والقلاع .


الإسلام والمسيحية
في الحروب الصليبية
المقياس بالأميال
مسيحيون
مسلمون
المسيحية
الإسلام
أصفهان

ولقد استثار سقوط المدينة المقدسة حماسة اوربا فنسي حكامها خصوماتهم القديمة ونشط فردرك بربروسا Barbarossa امبراطور المانيا وريتشرد قلب الاسد Richard Coeur de Lion ملك انكلترا وفيليب اوغسطس Philip Augustus ملك فرنسا الى حمل الصليب . وعلى اكتاف هؤلاء الثلاثة وهم اعاظم ملوك اوربا آنئذ نهضت الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩ - ١١٩٢) وهي اكبر الحملات عدداً . ولقد أمدت هذه الحملة التي لمعت فيها شخصية صلاح الدين وقلب الاسد الاساطيرَ والروايات الشرقية والغربية بأمتع الزاد .

وكان اول من شرع بالسير الى الحرب فردرك الذي سلك طريق البر فغرق وهو يعبر نهراً في كيليكية فارتد معظم افراد جيشه الى مواطنهم . اما ريتشرد فعرج في طريقه على قبرس فاحتلها. وقد قدّر لهذه الجزيرة ان تصبح فيما بعد آخر ملجأ للصليبيين المنهزمين من البلاد السورية .

وايقن اللاتين في البلاد المقدسة ان عكا هي الآن المفتاح الذي يمكنهم به استعادة ما خسروه من ممتلكاتهم . فقاموا عليها بجميع قواتهم مع من تبقى من جيش فردرك وكتائب ملك فرنسا . وتزعم الهجوم الملك غي Guy الذي كان صلاح الدين قد أطلق سراحه قبلا آخذاً عليه العهد بالا يعود لقتال المسلمين ، فلم يف به . ووصل صلاح الدين في اليوم التالي لينقذ المدينة . فنصب معسكره قبالة العدو . ونشب القتال براً وبحراً . واحتفى الفرنجة بقدم ريتشرد فتهللوا واشعلوا نيران البشرى ، وفي اثناء الحصار جرت عدة حوادث نادرة

الوقوع دوّنها مؤرّخو العرب واللاتين المعاصرين. منها تبادل صلاح الدين وقلب الاسد الهدايا دلالةً على اعجاب الواحد منهما بالآخر. ولكنهما لم يجتمعا قط . وكان رتشرد يكافئ بسخاء كل من زحزح حجراً من اسوار المدينة فحفـزَ ذلك المحاربين والنساء على الاتيان باعمال باهرة من البطولة . ودام هذا الحصار الذي يُعَدّ من الاعمال الحربية الباهرة في القرون الوسطى سنتين (٢٧ آب سنة ١١٨٩ — ١٢ تموز سنة ١١٩١) . ولقد ساعد الفرنجةَ تفوّقُ اسطولهم ومدافعهم الحديثة . اما المسلمون فانحصرت افضليتهم في توحيد القيادة في شخص واحد . واخيراً اضطرت حامية عكا الى التسليم .

وكانت اهم شروط الصلح تسريح الحامية مقابل مئتي الف دينار وارجاع المسلمين للصليب المقدس . واذ لم يُدفع المال بعد شهر امر رتشرد باعدام الاسرى البالغ عددهم زهاء الفين وسبعمائة . وهو عمل شائن يناقض تماماً معاملة صلاح الدين لأسرى اللاتين عندما احتل بيت المقدس . فصلاح الدين ايضاً كان قد اشترط ان يفتدي الفرنجة انفسهم بالمال ولكن عدداً من الفقراء يبلغ الثلاثة الآلاف عجز عن تأدية الفدية المفروضة ، فأخلى صلاح الدين سبيلَ الف منهم نزولاً عند رغبة اخيه واطلق سراح فريقٍ آخر منهم اجابة لتوسّط البطريرك . ولما رأى صلاح الدين ان اخاهُ والبطريرك قد أدّيا الزكاة بهذه الحسنة شعر أن عليه ان يقوم بقسطه من هذا الواجب فاطلق سراح الباقين وبينهم عددٌ من النساء والاطفال .

واحتلت عكا بعد سقوط اورشليم مرتبة الزعامة . وبقيت مفاوضات الصلح جارية بين الفريقين المتحاربين دون انقطاع . ولما

لان رتشرد كثير الافكار الخيالية فقد اقترح زواج اختـه بالملك العادل اخي صلاح الدين على ان تُعطى اورشليم هدية للزوجين فينتهي بذلك العداء المستحكم بين النصارى والمسلمين . وفي احد الشعانين (٢٩ ايار سنة ١١٩٢) انعم برتبة الفروسية على الملك الكامل ابن العادل في حفلة شائقة . واخيراً عُقد الصلح في ٢ تشرين الثاني سنة ١١٩٢ على ان يكون الساحل للاتين والداخل للمسلمين وألاّ يتعرّض احـد باذى للحجاج الوافدين على بيت المقدس . ولكن صلاح الدين لم يُكتَب له الا اشهر قليلة يقتطف فيها ثمرات الصلح . ففي ١٩ شباط من السنة اللاحقة اصابته حمى في دمشق فمات بعد اثني عشر يوماً وهو في الخامسة والخمسين من عمره . ولايزال قبرهُ في العاصمة السورية ، ملاصقاً للجامع الأموي ، قِبلةَ الزائرين .

لم يكن صلاح الدين بطلًا وحامياً للسُنّة فقط بل كان منشطاً للعلم والعلماء ومشجعاً للدراسات الدينية ومصلحاً اجتماعياً واقتصادياً . فلقد أنشأ المدارس والمساجد وابتنى السدود واحتفر الاقنية . ومن آثاره الباقية قلعة الجبل في القاهرة التي اخذ في تشييدها مع اسوار المدينة في سنة ١١٨٣ فاستخدم فيها حجارة من الاهرام الصغرى . وصلاح الدين عند العرب في مصافّ هرون الرشيد وبَيْبَرس وفي مقدمة من تهواهم مخيلات الشعب عامته وخاصته الى يومنا هـذا . اما في اوربا فلقد اطنب في ذكراه المنشدون في العصور الوسطى وحاكاهم في ذلك الروائيون العصريون . وهو لا يزال يُعتبر حتى اليوم مثالَ الفروسية الكاملة .

واستمرت المناوشات الحربية بين الفريقين بعد هذا الدور مدة

قاربت القرن لم يستطع خلالها اللاتين امراً سوى المحافظة على مراكزهم . ولولا حوادث الحملة الصليبية السادسة التي تزعمها لويس التاسع لما كان في هذه الدولة ما يستحق الذكر.

وقد احتل هذا الملك المعروف في التاريخ بالقديس لويس مدينة دمياط في مصر سنة ١٢٤٩ . حتى اذا زحف بجيشه على القاهرة قاطعاً ارضاً تكثر فيها المستنقعات وتعترضها الاقنية ، وكان النيل في اعلى ارتفاعه ، تفشى الوباء في الجيش وانقطعت عنه الامداد فهلك وأُسر الملك لويس ومعظم نبلائه . وبعد شهر أطلق سراحهم مقابل ما دفعه من جزية وما رضيَ به من تسليم دمياط . وقد قاد لويس هذا في سنة ١٢٧٠ حملة صليبية اخرى خاسرة على تونس ، حيث مات . ويمتاز لويس من سائر الزعماء الصليبيين بطهارة سيرته ونبل اخلاقهِ . قال فيه مؤرخهُ : « إن حياته كلها كانت عبارة عن صلاة ، وكان قصده الاسنى العمل بمشيئة الله » .

وجاءت دولة المماليك ، فكان رابع امرائها الملك الظاهر بَيْبَرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧) اولَ السلاطين الذين انزلوا بالصليبيين الضربات الاخيرة القاضية . ففي سنة ١٢٦٣ احتلّ الكرك وهدم كنيسة الناصرة . ولم تقوَ قَيْسارية ويافا وأنطاكية على الوقوف في وجه هجماته العنيفة ، فاضطُرّت الى التسليم . وفي سنة ١٢٦٨ اعدم حامية انطاكية التي كان يبلغ عددها ستة عشر الفاً وسبى من رجالها ونسائها واطفالها نحوَ مائة الف فباعهم في الاسواق ، فكان ثمن الطفل يومئذ اثني عشر درهماً وثمن الطفلة خمسة دراهم . ولما جرى تقسيم الغنائم كانت الأموال تكال كيلًا . ولم تستطع

انطاكية النهوض بعد هذه الكارثة الى يومنا الحاضر . وفي سنة ١٢٧١ انتزع بيبرس حصن الاكراد من ايدي الفرسان . امـا المَرْقَب بجوار طرطوس فانتزعه سنة ١٢٨٥ خليفتُه قلاوون الذي استولى على طرابلس بعد ذلك باربعة اعوام .

وهكذا لم يبقَ من مراكز الفرنجة الهامّة إلا عكا . ولقد جرى حصارها في عهد الملك الاشرف خليفةِ قلاوون . وبعد قتال دام شهراً واستخدام اثنين وتسعين منجنيقاً فتحها المسلمون في ايار ١٢٩١ واعملوا السيف في رقاب حاميتها من الفرسان الداويّة فابادوهم جميعاً . وبهذا سقط آخر حصن منيع للاتين في الشرق. وفي السنة نفسها استولى المسلمون على صور وصيدا وبيروت وطرطوس . وكذلك أسْدِلَ الحجاب على أروع الفصول الحربية في تاريخ سورية المتوسّط .

والحق انّ الحروب الصليبيّة جاءت غنيةً بالحوادث الباهرة والوقائع النادرة فقيرةً بالاثر التاريخي الذي بولغ فيه ، لا سيما في الغرب . وهو اثرٌ محصور في الفنّ والصناعة والتجارة دون العلم والادب . اما في سورية فقد تركت هذه الحروب معالم الدمار والخراب . ومما ورثهُ الشرق الادنى عن تلك الحروب ذكريات التعصّب الديني والنفور بين المسلمين والنصارى .

كانت الثقافة الاسلامية في الشرق عَهْدَ الصليبيين منحطةً متداعية . وكاد نور اعلامها في الفلسفة والطب والموسيقى وسواها من العلوم والفنون يخبو وينطفيء . ومن هنا كانت سورية التي تمركزت العلاقات فيها بين الاسلام والنصرانية الغربية طيلةَ القرن

الثاني عشر والثالث عشر اقلّ اهمية من اسبانيا او شمال افريقيا ، بل اقلّ اهمية من الامبراطورية البيزنطية من حيث نقلُ المؤثرات العربيّة الى الغرب . ومع ان الاسلام أثّرَ في النصرانية الاوربية عن طريق الاتصالات التجارية وعن طريق الاصطدام المباشر بالصليبيين وما احدثهُ هذا الاصطدام من تجاوب في الغرب فان آثارهُ الروحيّة والفكرية لم تكن ملحوظة . ومن جهة اخرى فأن علينا ان نذكر ان الفرنجة في سوريّة ، فضلاً عن كون ثقافتهم دون ثقافة اعدائهم ، فقد كانوا في الغالب جماعاتٍ عسكريّة اجنبية تنزل في القلاع والثكنات وتقتصر صلاتها على عامّة الناس من فلاحين وصنّاع ، دون الطبقة الراقية المفكّرة. زد على ذلك ان التحزّبات القومية والتعصّبات الدينية والعداوات المتأصلة حالت دون تبادل الافكار والثقافات . ولم يكن عند الفرنجة من العلم والفلسفة ما يلقّنونه ابناءَ البلاد . اما المقابلة بين الطبّ عند القومَين فتمثّلها النوادر الطريفة التي رواها أسامة الذي هزأ ايضاً من طرق الفرنجة القضائية إذ اعتمدوا في محاكماتهم على المبارزة والرمي في الماء .

ومنذ القرن الثاني عشر بدأت تنشأ في جميع انحاء اوربا دور المعالجة والبيمارستانات واهمها تلك التي تُعنى بالبرص . وهذا يبرر لنا الافتراض ان طريقة التداوي المنظم استمدت حافزها من الشرق الاسلامي. والى الشرق ايضاً يعود الفضل في ارجاع الحمامات العمومية الى اوربا . وكانت رائجة عهد الرومان الا ان المسيحية لم تحبذها .

اما في الاداب فلقد كان الاثر اوسع مدى . ففي الاساطير المنسوجة حول قصة الكأس المقدسة التي استعملها المسيح في العشاء

الاخير عناصر لا ريب في انها سورية الاصل . وليس من شك في ان الصليبيين سمعوا قصص « كليلة ودمنة » و « الف ليلة وليلة » فحملوها الى اوطانهم . وفي حكايات الشاعر الانكليزي تشوسر Chaucer قصة من « الف ليلة وليلة » . ومن المصادر السماعية استمد بوكاتشيو Boccaccio الايطالي حكايات شرقية ادخلها في كتابه « ديكامرون » Decameron . ويمكننا ان ننسب الى الصليبيين الفضل في اقبال الارساليات التبشيرية الاوربية على دراسة اللغة العربية وسواها من اللغات الاسلامية .

اما في ميدان الحرب فكان من الطبيعي ان يكون التأثير اكثر ظهوراً . فاستعمال القوس القذاف والدروع يلبسها الفرسان والخيل واستخدام الوسائد القطنية تحت الدروع كلها من اصل صليبي . وفي سورية ادخل الفرنجة في جوقاتهم الموسيقية العسكرية الطنبورَ والطبل ولم يكونوا يستعملون قبلُ الا البوق والنفير . وتعلموا من اهل البلاد استخدام حمام الزاجل لحمل المعلومات الحربية ونقلوا عنهم عادة الاحتفال بالظفر باشعال الانوار واجراء سباقات الخيل ولعب الجريد . والمقرّر ان جانباً كبيراً من مبادىء الفروسية نشأ في سهول سورية . اما سعة انتشار علامات النسب على الاسلحة وشارات الفرسان فناتجة عن الاحتكاك بالفرسان المسلمين .

وقد أنعشت هذه الحروبُ ايضاً فن الحصار وحسنته فسهل امر الهدم واللغم واستخدام المجانيق والكبوش (١) والمواد القابلة

---

(١) جمع كبش (بفتح الكاف) : آلة من آلات الحرب كانت تقذف على جدران الحصون .

للاشتعال والقذائف . والظاهر ان البارود جرى اختراعه في سورية او اوربا اللاتينية ، والرأي الاخير أرجح ، وذلك حوالى آخر هـذه الحقبة . اما ادعاء الصليبيين انهم اخـترعوه فـلا تؤيده البيّنات . ولكن الاستعانة بقوة البارود الانفجارية لرمي القذائف اي اختراع الاسلحة النارية — وهي خطوة اشدّ خطورة — فامر لم يحدث قبل الربع الثاني من القرن الرابع عشر . ونحن نجـد اول صفةٍ اوربية لتركيب البارود في ذيل كتاب وضعه في اللاتينية نحو سنة ١٣٠٠ رجل اسمه مارك اليوناني .

اما في الزراعة والصناعة والتجارة فانتهى الصليبيون الى نتائج اعظم من تلك التي انتهوا اليها في العلوم. والى هذا يرجـــع انتشار نباتات جديدة في بلدان البحر المتوسط الغربيـــة مثل السمسم والخروب والدُخن [1] والارز والليمون والبطيخ والمشمش وبصل عسقلان . ولهذه النباتات اسماء اوربية محرفة عن لغات شرقية . اما المشمش فكان الغربيون يسمونه «خوخ دمشق»

واكتسب الفرنجة إبان اقامتهم في بلاد الشرق اذواقاً جـديدة وبخاصة ما يتعلق منها بالروائح العطرية والتوابل والحلويات وسواها من محصولات المناطق الحارة التي تمتاز بها بلاد العرب والهند والتي كانت اسواق سورية زاخرة بها . ثم ان هذه الاسواق الجديدة أدت بعد إلى انعاش التجارة في المدن الايطالية وسواحل البحر المتوسط. فاشتهرت انواع البخور وسواها من صموغ الجزيرة العربية الزكية الرائحة وماء الورد الدمشقي والروائح العطرية التي امتـــازت بها

(١) الدخن (بالضم) حب صغير أملس جدا كحب السمسم .

دمشق وغيرهـا من الزيوت والعطور الفواحة المشتهرة بها فارس . ومن العقاقير الجديدة التي تعرفوا اليها حجر الشبّ والندّ . ثم ان انواع كبش القرنفل والتوابل الزكية والفلفل والبهارات وغيرها كل اولئك درج استعمالها في الغرب خلال القرن الثاني عشر. ومن ذلك الوقت الى اليوم والوان الطعام لا تستقيم على مائدة دون ان يدخل بعضها التوابلُ . وفي مصر عرف الصليبيون الزنجبيل واخذوا يضيفونه الى الوان طعامهم . واهم من ذلك كله السكر ، فقد كان الاوربيون لا يعرفونه من قبلُ وكانوا يستخدمون العسل لتحليـة اطعمتهم . فعلى ساحل سورية ، حيث ترى الاولاد الى هـذا اليوم يمصّون قصب السكر ، عرف الاوربيون هذا النبات الذي اخذ منذ ذلك الحين يلعب دوراً هاماً في الحيـــاة الاقتصادية وفي تركيب الصفات الطبية . وكان السكر اول اللذائذ الفاخرة التي أدخلت الى الغرب ولم يبلغ درجتها طعامٌ آخر مما استطابته الافواه الغربية . ومع السكر دخلت الاشربة غير الكحولية والماء الذي تُخلط فيـه بواسطة التقطير خصائصُ الورد والبنفسج وسواهمـا من الزهور . وكذلك دخلت شتى انواع الحلويات . اما الاقمشة الموصلية والدمشقية والاطلسية وسواها فقـــد ولجت اوربا من الشرق العربي كما تدل اسماؤها في اللغات الاوربية محرّفةً عن العربية .

وكان لظهور الاسواق الجديدة في اوربا لمنتجات الزراعـــة والصناعة الشرقية كما كان لحركة النقل التي قضت بها ضرورة حمـل الحجاج والصليبيين ذهاباً واياباً أثر ادى الى توسيع نطـاق الحركة البحرية والتجارة العالمية الى درجة لم تكن معروفة منذ ايام الرومان

فأخذت مرسيليا تزاحم الجمهوريات المستقلة من مدن ايطاليا ، واصبحت مركزاً لشحن البضائع تقاسم جنوى وبيزا والبندقية الثروةَ الناجمة عن ذلك . وتطلّب هذا الموقف الجديد كميات اكبر من النقد فجرى سكّها وزاد تداولها . وتولد عن ذلك ابتداع الحوالات المالية واستعمالها فظهرت شركات الصيارفة في جنوى وبيزا مع فروعٍ لها في الشرق . وصارت الفرسان الداويّة تستعمل كتب التفويض المالية وتستلم الاموال كودائع لاصحابها وتسلّف المال بالفائدة . وكانت البوصَلة (ابرة الفلاحين) من اهم الاختراعات ذات العلاقة بهذه الحركة الصليبية البحرية . والراجح ان الصينيين هم اول من اكتشف ما للابرة المغنطيسية من طبيعة الاتجاه الى ناحيةٍ معينة . ولكن المسلمين الذين كان لهم في عصر باكر تجارة نشيطة ما بين الخليج الفارسي وبحار الشرق الاقصى كانوا اول من اخرج هذا الاكتشاف إلى حيّز العمل اذ استخدموا الابرة في الملاحة . وعن طريقهم تعرّف الغرب إلى هذا الاكتشاف .

في خلال هذه الحقبة كانت الامبراطورية العربية في تقلّص دائم وكان العقل الاسلامي يزداد تصلّباً . اما الاوربي فكان يفتح عينيهِ على آفاق جديدة ويستمدّ نشاطاً مما يراهُ امامهُ من عالم راقٍ متسع الارجاء . ولكن قبل ان قُضي على هذه الامبراطورية العربية بكاملها قامت دولة جديدة تحاول إنعاشها ، أعني دولة المماليك السورية المصرية التي سنتكلم عليها في الفصل التالي .

دولة المماليك

دولة المماليك هي آخر دول العالم العربي في العصور الوسطى وأشدها غرابة. وقد عقبت الدولة الايوبية (١١٧١ –١٢٥٠) المنسوبة الى صلاح الدين وتألفت من أسرتين البحرية او التركية (١٢٥٠ – ١٣٨٢)والبرجية أو الجركسية (١٣٨٢ – ١٥١٧) ومن الصعب على دارس التاريخ ان يتصور في غير الاسلام إمكانية نشوء دولة كدولة المماليك وبلوغها ما بلغته من عزّ وفلاح. فالمماليك كانوا كما يدلّ اسمهم أرقاء من مختلف الاجناس والعناصر شكلوا حكومات عسكرية في بلادٍ هم فيها غرباء . فقيامهم كان نتيجة طبيعية لفساد الحياة الاجتماعية العربية خلال قرون عدة . ولهذه الدولة ميزة ثانية ناتجة عما حققته بنفسها من الاعمال الباهرة . ومن هنا كان هؤلاء السلاطين المماليك يستحقون صفحة ضافية في آخر

فصل من تاريخ الامبراطورية العربية .

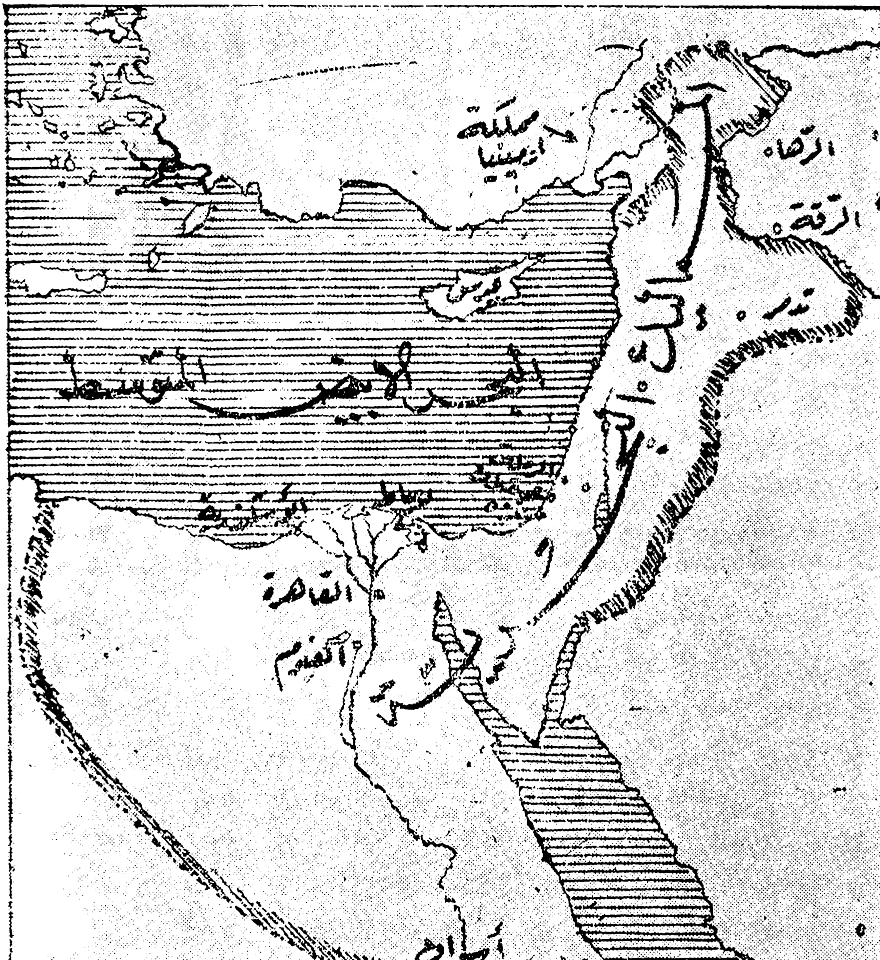
أفلح السلاطين المماليك في إجلاء بقايا الصليبيّين عن مملكتهم السورية المصرية . وقاموا عقبة أبدية في وجه جيوش ُهولاكو وتيمور المرعبة التي كانت خليقةً ، لولاهم ، بأن تغيّر مجرى التاريخ والثقافة في آسيا الغربية ومصر . وبذلك حالوا دون تعرّض مصر للدمار الذي نزل بسورية والعراق . فنعمت البلاد بثقافة متواصلة وأنظمة سياسية مستمرّة لم تتوفر لايّ بلاد إسلامية اخرى خارج الجزيرة العربية . فطوالَ مدة قاربت القرنين وثلاثة ارباع القرن (١٢٥٠ — ١٥١٧) سيطر المماليك على بقعة من أشد بقاع الارض اضطراباً محافظين ابداً على ميزاتهم الجنسيّة الخاصّة . ومع انهم كانوا على وجه العموم عديمي الثقافة سفّاكي دماء فان عنايتهم بالفنّ والعمارة تضاهي عناية اهم دولة متمدنة بحيث صارت القاهرة من اجمل المدن في العالم الاسلاميّ . واخيراً قام السلطان سليم العثماني فغلبهم على امرهم في سنة ١٥١٧ . وبذلك زالت آخر الدُويلات التي نشأت على انقاض الخلافة العربيّة وتوفّرت الاسباب لقيام خلافة جديدة غير عربيّة هي خلافة الترك العثمانيين .

وليس من شك في ان أعظم سلاطين دولة المماليك ومؤسسها الحقيقيّ هو رابعهم الملك الظاهر ركن الدين بَيْبَرس (١٢٦٠ — ١٢٧٧) وهو في الاصل رقيق تركيّ . وكان بَيْبَرس رجلًا طويل القامة اسمر اللون جهوري الصوت شجاعاً نشيطاً يمتاز بصفات الزعامة . نشأ في حضن الدولة الايوبيّة التي اتّبعت خطة خلفاء بغداد في إدخال الارقاء الاجانب في الحرس والجيش . فما عتّم

هؤلاء الاجانب والارقّاء الذين فاقوا سادتهم في المقدرة والاقدام أن اصبحوا كما كان زملاؤهم من قبل في بغداد — امراءَ الجيش ومن ثم سلاطين الامّة . ومن هؤلاء بَيْبَرس الذي انتدبهُ السلطان الصالح الايوبيّ اولاً لقيادة فصيلة من حرسه الخاص ولم يلبث ان ترقى بالعنف والبطش واهراق الدمّ الى اعلى منصب في البلاد . ولم تكن السلطة في دولة المماليك وراثية بل كانت من حق الاقوى. وقد ظل الاقوياء فيها لعدة قرون من الارقاء اصلًا ومن ذرية الارِقّاء .

فاز بيْبَرس في بدء امرهِ باكليل الظفر يوم انتصارهِ على جيش ُهولاكو في عين جالوت (فلسطين) عام ١٢٦٠ . على ان شهرته تقوم في الاكثر على الحملات العديدة التي جرّدها على الصليبيين ، تلك الحملات التي قصمت كما اشرنا ظهر المقاومة الفرنجية. وفي اثناء ذلك قام قوادُهُ بنشر سلطانهِ غرباً على البربر وجنوباً على النوبة التي استقرّ فيها الآن حكم السلطان المصري .

ولم يكن بَيْبَرس رجل حرب فقط ، ولم تنحصر مآتيهِ في تنظيم الجيش وتعمير الاسطول وتحصين قلاع سوريّة بل تجاوزتها الى احتفار الاقنية وتحسين الموانيء وربط القاهرة ودمشق بواسطة مصلحة بريد سريع يصل ما بين المدينتين في اربعة ايام . وكانت بدائل الخيل تقف على أهبة الجري في كل محطّة للبريد حتى لقد كان في مكنة السلطان ان يلعب الصولجان في كلتا العاصمتين خلال مدة لا تزيد على اسبوع واحد . وفيما سوى البريد العادي فقد اتقن المماليك فنّ استخدام حمام الزاجل الذي كان منذ ايام الفاطميين


مملكة أرمينيا
الرها
الرقة
قبرص
البحر الأبيض المتوسط
القاهرة
الفيوم
أسوان
مملكة المماليك
في منتصف القرن الرابع عشر
المقياس بالأميال
٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٥٠ ٠

يربّى وتحفظ أنسابهُ في سجلاّت خاصّة . وكان بيبرس ينشط الاشغال العامّة ويجمّل الجوامع ويقيم المؤسسات الدينية والخيرية . ومن العمارات الشهيرة الباقية التي شيّدها الجامعُ الكبير والمدرسة التي تحمل اسمه . اما الجامع فقد جعلهُ نابليون فيما بعد قلعةً ثم اصبح مستودع ارزاق لجيش الاحتلال البريطانيّ . وهو اول سلطان بمصر عيّن اربعة قضاة يمثلون مذاهب السنّة الاربعة ووضع للمحمل المصري نظاماً دائماً . فلزومهُ جانب السنة وغيرتهُ الدينية والمجد الذي اكسبه اياه الجهاد كل هذه جعلت له شهرة تضاهي شهرة هرون الرشيد في نظر المسلمين . وفي التاريخ الخرافي يتألق اسمهُ فوق اسم صلاح الدين . و « سيرة بيبرس » « كسيرة عنتر » لا يزال الاقبال عليها في البلاد العربية اشدّ من الاقبال على «الف ليلة وليلة» الى اليوم.

ومن مميزات عهد بيبرس المحالفات العديدة التي عقدها مع ملوك المغول وملوك اوربا . وبينها محالفة عقدها بعد تقلده السلطة مع زعيم خانات المغول في قبشاق من وادي الفولغا . كذلك امضى اتفاقيات تجـــارية مع تشارلس ده آنجو Charles of Anjou ملك صقلية شقيق لويس التاسع ومـع جايمس ملك أراغون والفونسو ملك إشبيلية .

ولعل اروع الحوادث في ملك بيبرس اقدامهُ على تجديد الخلافة العباسية واحيائها ، وذلك بالاسم فقط . وكان جل قصده من ذلك جعل سلطنته شرعية ، واكساب بلاطه رفعة في نظر سائر الاقطار الاسلامية ، وقمع فتن الشيعة التي كان يتطاير شررها في مصر خصوصاً منذ ايام الفاطميين . لذلك استقدم من دمشق في حزيران سنة ١٢٦١

عمّ المستعصم آخر خلفاء بغداد العباسيين ، وكان قد نجا من مذبحة بغداد . فبايع له بيبرس والناس على طبقاتهم . وكتب بيبرس الى النواحي باخذ البيعة للخليفة وبالخطبة باسمه على المنابر وبنقش اسمه في السكة . واتخذ الخليفة لقب المستنصر . وكان قدومه الديار المصرية من سورية صحبة جماعة من امراء العرب . فخرج السلطان للقائه ومعه الوزير والعلماء والاعيان والشهود والمؤذنون حتى اليهود بتوراتهم والنصارى بانجيلهم . فكان يوماً مشهوداً . وأثبت نسب الخليفة وأشهد على نفسه بثبوت النسبة الشريفة امام قاضي القضاة ومجلس العلماء . ثم جاء دور السلطان فالبسه الخليفةُ بيده شارات السلطنة وفوّض اليه الامور في البلاد الاسلامية وقلده الحكم على مصر وسورية وديار بكر والحجاز واليمن والعراق . وبعد ثلاثة اشهر توجه بيبرس من القاهرة ، ومعه الخليفة ، طامعاً في اعادة بغداد الى املاك الخلافة . ولكنه لم يرافقه إلا الى دمشق فودعه فيها وعاد الى مصر . وقبل ان يصل المستنصر الى بغداد اغار عليه حاكم المغول ببغداد في الصحراء ، فكان ذلك آخر العهد به .

وتعاقب أبناؤه على الخلافة مدة قرنين ونصف وليس لهم منها إلا الاسم قانعين بنقش اسمائهم في السكة والخطبة لهم من منابر مصر وسورية. ولما انتزع السلطان سليم العثماني مصرَ في سنة ١٥١٧ من ايدي المماليك نقل معه الى القسطنطينية الخليفة المتوكل آخرَ هذه الاسرة .

وهكذا استهلّ المماليك عهدهم بمصر بزعامة سلاطين ظافرين فخورين فازوا باستئصال آخر السلطة الفرنجية في سورية وتمكنوا من الحيلولة بين المغول وتدويخ العالم . وما وافت نهاية هذا العهد

الذي سادت فيه حكومة خاصة عسكرية حتى تسرّبت الحزبيات بين الجماعات المتنفّذة وزُيفّت النقود وثقلت الضرائب وُفقد الامن على الحياة والممتلكات وتعاقب الطاعون والاوبئة والمجاعات والثورات فكاد الخراب يعمّ مصر وسورية الملحقة بها . وفي وادي النيل خصوصاً راجت سوق الخرافات القديمة البالية وضروب السحر وتحالفت مع العقائد الدينية الرجعية والمحافظة فلم تترك للتقدم العلمي مجالاً . وفي أحوال كهذه لم يكن من الممكن نشوء حركة فكرية راقية . والواقع ان مطلع القرن الثالث عشر شهد جميع انحاء العالم العربي تفقد سيادتها العلمية التي كانت تتمتع بها منذ القرن الثامن . فأصبح العياء العقليّ الذي سببتهُ اجيال الجهاد ، والاسترخاء الاخلاقي الناجم عن تراكم الثروة والسلطة باديين في كل مكان .

وبعد منتصف القرن الثالث عشر لم يبقَ للعرب من مكانة في العلم الا في فرعين : الفلك – الرياضيات وفي جملتها علم حساب المثلّثات ، والطب ، وبخاصة طب العيون . ومن ألمع اطباء هذه الحقبة ابن النفيس الذي درس في دمشق حيث توفي سنة ١٢٨٩ ، وقد كان رئيس الطبابة في مستشفى القاهرة . وعلى الرغم من ان اكتشاف الدورة الدموية منسوب الى سيرفيتس Servetus البرتغالي فان ابن النفيس سبقهُ الى هذا بثلاثة قرون . وكانت هذه الحقبة خصبة بوجه خاص في انتاجها ذلك النوع من المؤلفات الغرامية الذي نسمّيه اليوم بـ « الأدب الجنسيّ » . على ان الادب العربي كان في مراحله جميعاً طافحاً بالقصة والفكاهة والنكتة التي نحسبها

في عصرنا الحاضر من النوع البذيء .

بيد أن اغرب المحاسن التي تحلّى بها عصر المماليك ، على ما كان فيه من شأن عظيم للحروب والاهوال ، الانتاجُ الباهر في العمارة والفنّ على اسلوب لا مثيل له في تاريخ مصر منذ ايام البطالسة والفراعنة . وتعود مبادىء « مدرسة » المماليك في العمارة الى مؤثرات سورية - عراقية اتصلت بها عند ما اصبحت مصر في القرن الثالث عشر مأوى الفنّانين والصنّاع المسلمين اللاجئين اليها من الموصل وبغداد ودمشق قبل الغزوات المغولية . وبانتهاء الحروب الصليبية انفتحت مرةً اخرى طريق الحصول على حجارة البناء من مقالعها في الشمال واستعيض بها عن الآجرّ في عمارة المآذن . واتقن البناؤون تشييد الجوامع والمدارس ذوات الشكل المصلّب وظهرت القبة في هيئة تزري بالاشكال المناظرة لها من حيث الخفة والظرافة واناقة الزخرفة . اما العمارات ذوات الخطوط الملونة كالقصر الابلق للملك الفاخر المتوفى سنة ١٣٤٠ فناشئة عن استعمال حجارة ذات الوان مختلفة في خطوط متساوية وهو اسلوب يعود الى اصل روماني أو بيزنطي . وجدير بالذكر ظهور المتدلّيات السقفية في هذه الحقبة . وبروز ميزتين فائقتين اتصف بهما فنّ الزخرفة الاسلامية : الاشكال الهندسية والحروف الكوفية . اما الاشكال الحيوانية فقد كانت طيلة العصور الاسلامية اقلّ استعمالاً في مصر وسورية منها في اسبانيا وفارس . وانه لمن حسن الطالع ان تكون افضل نماذج العمارات الراجعة الى عصر المماليك باقية حتى اليوم . وهي من امتع المشاهد التي يقصدها السياح

وطلاب العلم .

حتى إذا كانت اواخر القرن الرابع عشر انتهى عهد المماليك الى أن يكون من اظلم عهود تاريخ سورية ومصر . فكان عدد من سلاطينهم بغاةً سفاحين ، بل إن منهم من كان سافلاً خليعاً . في حين كان اكثرهم لا يملكون شيئاً من الكفاءة أو الثقافة . فهذا المؤيد شيخ (١٤١٢ – ١٤٢١)، الذي اشتراهُ السلطان بَرْقُوق من تاجر جركسي ، كان سكيراً يقترف جسام القبائح . وذاك بَرْسْبَاي (١٤٢٢ – ١٤٣٨) ، وهو كذلك من مماليك برقوق ، لم يكن يحسن اللغة العربية . ومن مساوئهِ انه امر بقطع رأسَيْ طبيبَيْه عندما تعذر عليهما شفاؤه من داء مميت . اما إينال (١٤٥٣ – ١٤٦٠) ، وهو ايضاً من مماليك برقوق ، فكان أمياً يجهل القراءة والكتابة . وعلى الرغم من تطاول عهد سلطنته فأنه لم يكن بقادر على توقيع اسمه على المناشير والمراسيم الا بعد أن يرسم له الموقّع رسماً خفيّاً عليها فيعيد هو على ذلك بالقلم . واتهم إينال هذا بحب الغلمان كما اتهم بَيْبرس من قبله . وكانت منشآت الغلمان التي اشتهر امرها في زمن العباسيين مزدهرةً في ايام هؤلاء السلاطين المماليك . اما يَلْبَاي (١٤٦٧) ثالث خلفاء إينال فلم يكن أمياً فحسب ، بل معتوهاً . وأما قايِتباي (١٤٦٨ – ١٤٩٥) ، الذي كان بَرْسبَاي اشتراه بخمسين ديناراً ، فقد امر بالكيماوي علي بن المرشوشي ان تُقلع عيناه ويُقطع لسانهُ لعجزهِ عن تحويل المعادن السفلى ذهباً .

ومما زاد في سوء حالة البلاد الاقتصادية سياسة السلاطين النفعية

القائمة على مصالحهم الشخصية . من ذلك ان برسباي منع استيراد التوابل من الهند ، وفي جملتها الفلفل المرغوب فيه كثيراً ، وقبل ان ترتفع اسعارها وضع يده على الكميات الموجودة منها في البلاد وباعها من الناس باسعار ضمنت له ربحاً فاحشاً . كذلك احتكر صناعة السكر . وبلغ به الطمع ان حظر زراعة قصب السكر زمناً لكي يؤمن لنفسه أرباحاً طائلة . وفي عهده اجتاح الطاعون مصر والبلدان المجاورة ، وهو ضربة نكبت بها البلاد تكراراً ، فكثر الطلب على السكر اذ كان يستخدم علاجاً خاصاً لهذا الداء . ومع ان الطاعون لم يفتك بالناس فتك « الموت الاسود » Black Death في اوربا فانه تُوفي من جرائه ، على ما قيل ، نحو ثلاثمائة الف نسمة في العاصمة وحدها خلال ثلاثة اشهر . وخاف السلطان من الوباء فحسبه عقاباً من الله لانتشار المعصية بين الناس . وعدّ خروج النساء في الاسواق علة ذلك البلاء فمنعهن من ذلك . ثم إنه سعى الى التكفير عن سوء اعماله بفرض ضرائب جديدة على اليهود والنصارى .

على ان ابتزاز الاموال لم يقتصر على غير المسلمين . ولما كانت الحكومة لا تعرف نظاماً معيّناً لجباية الضرائب فلم يكن لهؤلاء السلاطين سبيل الى جمع الاموال اللازمة لحملاتهم الحربية ولاسرافهم الفاحش في نفقات البلاط وتشييد العمارات الكبرى الا ابتزاز الاموال من الرعية ومصادرة اموال ذوي المناصب في الدولة الذين أثروْا على حساب الجمهور ، أضف الى ذلك ان قبائل البدو في الدلتا والصحراء الشرقية كانت تغير على الفلاحين الآمنين في مزارعهم في وادي النيل فتنهب وتُتلف ما استطاعت الى ذلك سبيلا . ثم ان

الجراد ، كالاوبئة ، كان يزور البلاد بين الفينة والفينة حتى أصبح الجوع ضربة مزمنة يتفاقم شرها بخاصة في سني الطاعون والجفاف الناشىء عن انخفاض الماء في النيل . وتقدر خسارة سورية ومصر بسبب ذلك كله في عصر المماليك بنحو ثلثي مجموع سكانها .

وفي آخر هذه الحقبة اخذت بعض العوامل العالمية تزيد البلاد فقراً وتعاسة . ففي سنة ١٤٩٧ اكتشف الملاّح البرتغالي فاسكو دا غاما Vasco de Gama طريقاً بحرية جديدة حول رأس الرجاء الصالح . وهو حادث خطير كان له اثرهُ السيء في تاريخ المملكة السورية المصرية لا لأن غارات الاسطول البرتغالي وسواهُ من اساطيل اوربا على سفن المسلمين في البحر الاحمر والمياه الهندية تكاثرت بعد ذلك فحسب ، بل لان حركة تجارة التوابل و سواها من المحصولات الاستوائية التي امتازت بها الهند وبلاد العرب انتقلت من المرافىء السورية والمصرية الى غيرها . وبذلك تلاشى إلى الابد ذلك المرفق الذي كان يدرّ على القطرين عوائد كبيرةً .

وفي مطلع القرن الخامس عشر حلّت بسورية ضربة انزلها بها رجل تَتريّ من برابرة آسيا الوسطى كانت اشد من ضربات المماليك. ذلك هو تيمورلنك (تيمور الأعرج) الذي ولد سنة ١٣٣٦ في ما وراء النهر من سلالة وزيرٍ لِجنْكز خان ، وإن تكن اسرتهُ ادّعت التحدّر من جِنْكز نفسه . اما ابن عَرَبْشاه الذي ترجم لتيمور وحمل عليه فيقول : « كان ابوه اسكافاً فقيراً جداً . ولما كان به من القلّة اندفع الى ارتكاب الجرائم . ففي بعض الليالي سرق غنمة فضربهُ الراعي في كتفهِ بسهم فأبطلها وثنّى عليه

باخرى في فخذه فأبطلها فازداد كسرهُ على فقرهِ فسمي لنك اي « أعرج » . وفي سنة ١٣٨٠ سار على رأس اقوامهِ التتر في سلسلة حملات متواصلة الحلقات افتتح بها افغانستان وبلاد العجم وفارس وكردستان . واستولى سنة ١٣٩٣ على بغـــداد . ودوّخ ارض الرافدين . ففي تكْريت مثلًا ، مسقط رأس صلاح الدين ، انشأ هرماً من رؤوس القتلى . حتى اذا كانت سنة ١٣٩٥ حمل على أرض القبشاق واحتل موسكو فاقام بها ما فوق العام . وبعــد ثلاث سنوات غزا الهند الشمالية وقتل ثمانين الفاً من اهالي دلهي .

وكانت سرعة اكتساح تيمور لسورية الشمالية سنة ١٤٠١ اشبه بالعاصفة تمر بالبلاد فلا تبقي ولا تذر . ففي حلب اقام عساكره نحو ثلاثة ايام يأسرون وينهبون ويقتلون ويستبيحون كل شيء . ولقد عمل تيمور من رؤوس نحو عشرين الف من سكانها المسلمين أكَيْمات (تصغير أكمة) محيط كل واحدة منها عشرون ذراعاً وارتفاعها عشرة اذرع جاعلًا الوجوه بارزة إلى الخارج يراها من يمر بهـا . وهدم أجمل ما فيها من مساجد ومدارس ، فلم يُعدْ احدٌ بناءها حتى الآن . وتوجه تيمور الى دمشق فاحتل في طريقه حماة وحمص وبعلبك . ولم يقوَ الجيش المصري على الصمود في وجه جيشه فانهزم هزيمة شنعاء . وسقطت دمشق بعد ان دافعت عنها حامية قلعتها شهراً . واعمل جيش تيمور في دمشق النهبَ والسلب والنار حتى لم يبقَ من الجامع الاموي الا بعض جدرانه . ومن دمشق اسرع هذا الغازي السفاح راجعاً الى بغداد ليثأر من اهلها لقتلهم بعضَ رجاله . فاعمل في المدينة السيف واخذ في التقتيل والتفظيع مُقيماً

فيها مائة وعشرين برجاً من رؤوس ضحاياه .

وفي السنتين اللاحقتين زحف تيمور على آسيا الصغرى فسحق جيش العثمانيين عند انقره في ٢١ تموز سنة ١٤٠٢ واخذ السلطان بايزيد الاول اسيراً في قفص . واستولى ايضاً على عاصمته بروسه وعلى ازمير . ولحسن طالع المماليك مات تيمور بعد سنتين وهو زاحف لافتتاح الصين تدفعه اشد رغباته واطماعه . اما خلفاؤه فقد أفنوا قواهم في المشاحنات والفتن الداخلية .

وجاءت الضربة القاضية على الامبراطورية العربية من جانب العثمانيين في اوائل القرن السادس عشر . ولقد سبقت الاشارة الى اصل الترك العثمانيين في بلاد المغول والى اختلاطهم بالقبائل الايرانية في آسيا الوسطى والى نزولهم آسيا الصغرى حيث انتزعوا السيطرة تدريجياً من ابناء عمهم السلاجقة وابتلعوهم حتى اذا ما جاء مطلع القرن الرابع عشر انشأوا مملكة كُتب لها ان ترث الامبراطورية البيزنطية والخلافة العربية .

وفي سنة ١٤٨١ نهضت المشكلة العثمانية في وجه سلاطين مصر فأقضّت عليهم مضاجعهم . وبدأت المنافسة بين الجانبين تقوى وتعظم. ولقد ظهرت اول امرها في مناوشات متعاقبة بين عمالهما على حدود آسيا الصغرى وسورية . فادى ذلك تدريجياً الى نشوب الحرب ، واهم مواقعها معركة مرج دابق بين جيوش المماليك بقيادة قانَصَوْه الغَوري (١٥٠٠ — ١٥١٦) وجيوش الترك في ٢٤ كانون الثاني سنة ١٥١٦ بالقرب من حلب ، التي انتصر فيها العثمانيون على المماليك انتصاراً باهراً . ولا عجب فقد كانت

تجهيزات الجيش التركي بالمعدات الجديدة من المدافع والبندقيات وسواها من الاسلحة ذات المرمى البعيد تفضل معدات الجيش المصري . فكان الجيش المصري يضم لفيفاً من البدو والسوريين الذين لم تكن لهم خبرة في استعمال هذه الاسلحة . زدْ على ذلك انه سبق للترك استعمال البارود مدة من الزمن ، في حين احتفظ السوريون والمصريون بنظريتهم القائلة بأن البطولة الشخصية هي العامل الحاسم في القتال . وهكذا دخل سليم السلطان العثماني مدينة حلب ظافراً فرحب به اهلها منقذاً من فظائع المماليك . وما لبثت سورية باسرها ان انتقلت الى حوزته . ومن ثم زحف هذا الفاتح جنوباً الى مصر فاحتلها سنة ١٥١٧ . وبذلك قضى على سلطة المماليك قضاءً مبرماً . وإذ كان الحجاز بحاضرتيه مكة والمدينة ملحقاً بالمملكة المصرية فقد اصبح الان بحكم الطبع جزءاً من السلطنة العثمانية . أما القاهرة التي كانت مركز السلطة الاسلامية في الشرق فأمست مدينةً من مدن الامصار ، يخطب الوعاظ من على منابرها قائلين :

« وانصرِ اللهُ السلطانَ بنَ السلطان مالك البرَّين والبحرَين ، وكاسر الجيشين ، وسلطان العراقَين ، وخادم الحرَمين الشريفَين ، الملك المظفّر سليم شاه . اللهمَّ انصرهُ نصراً عزيزاً ، وافتح لهُ فتحاً مبيناً ، يا مالك الدنيا والآخرة يا ربَّ العالمين » .

وسواء أصحت الدعوى القائلة بأن المتوكل آخر الخلفاء الاسميين أوصى بالخلافة الى السلطان العثماني ام لم تصح فالامر الواقع ان امير القسطنطينية التركي اكتسب على التدريج امتيازات

الخلافة ، ليتخذ بعد لنفسه لقبَ الخليفـــة . ومع أن بعض خلفاء سليم تسمّوا بالخلفاء وخوطبوا بلقب الخلافة فان هذا اللقب لم يكن إلا من قبيـل التبجيل ولم يُعترف به خارج مناطق نفوذهم . واول وثيقة سياسية معروفة أشير فيها الى السلطـان العثماني بلقب الخلافة واعُتِرف فيها بسلطته الدينية على المسلمين خارج الولايات العثمانية هي المعاهدة الروسية التركية التي عقدت سنة ١٧٧٤ .

وهكذا اصبح سلطانُ القسطنطينية الخليفةُ اعظمَ مـلوك الاسلام ووارثاً لخلفاء بغداد وأباطرة بيزنطيـة في وقتٍ معـاً . وبتحطيم سلطة المماليك وتوطيد أقدام الـترك على البوسفور تحوّل مركز السلطة الاسلامية غرباً . ذلك بأن مركز الحضارة العالميـة ايضاً كان قد انتقل في هذا الزمن غربـاً ، وجاء اكتشاف اميركا والطريق البحري حول رأس الرجاء الصالح فاتحةً لعصر جديـد . وهنا ينتهي تاريخ الخلافة العربية والدول الاسلامية التي نشأت في العصور الوسطى على انقاض الامبراطورية العربية ويبدأ تاريخ سلطة العثمانيين على العالم العربي .

العصور المظلمة وفجر النهضة الحديثة

بينما كان الاوربي يتخبط في ديجور العصور الوسطى كانت البلدان العربية ترتع في عصورها الذهبية رافعةً مشعال النور والعرفان. ولقد ظلت كذلك في نجوة من الظلمات التي دهمت اوربا قبلها الى ان استولى على ربوعها المماليك ثم الاتراك العثمانيون. فقد فاز هؤلاء الأتراك بتشييد امبراطورية من اعظم الامبراطوريات الاسلامية وأطولها عمراً. وهم فضلاً عن استيلائهم في صدر القرن السادس عشر على مجمل البلدان العربية فقد نشروا سلطانهم بعد ذاك حتى جبال القوقاس شرقاً وأبواب فينّا غرباً وجعلوا من عاصمتهم القسطنطينية التي اغتصبوها من البيزنطيين عام ١٤٥٣م مركزاً تحسب له دول اوربا حساباً. في هذه الحقبة عمّ الكسوف البلاد العربية بحواضرها المدينةِ ودمشق وبغداد والقاهرة، هذه الحواضر

التي كانت كل منها عاصمةً لامبراطورية ومركزاً لثقافة فأصبحت الآن مقراً لولاة يعيّنهم الباب العالي ومرابطَ لحاميات ترسلها الاستانة، تلك المدينة التي تطاولت اليها فيما مضى أعناق أبناء دمشق وبغداد غير مرّة عندما كانت الاولى عاصمة الأمويين والثانية قاعدة العباسيين.

وانتظمت الامبراطورية العثمانية عدا العنصرَ العربيّ عناصر شتى من ارمنيّة وسريانية وكردية ويونانية وبلقانية وغيرها لا تجمعها بالعنصر الحاكم ولا تجمع بعضها ببعض اية جامعة وثيقة قومية كانت أو لغوية أو دينية أو ثقافية. إنما كان يربط هذه العناصر جميعاً رابط القوة المسيطرة ليس غير. ومن هنا ساهمت كلها، بمقادير مختلفة، في احتمال المظالم ودفع الضرائب والخضوع لنظُم قلم المراقبة وعسف ديوان الجاسوسية. فلا غرو اذا لم نجد في القرون الاربعة التي ابتدأت عام ١٥١٧ أثراً عربياً ما يتّصف بالابداع والابتكار سواء في العلم والأدب أم في الفنّ.

ولقد قام من السلاطين مَن حاول إجراء إصلاحات في الادارة والجندية كسليم الثالث (١٧٨٩ – ١٨٠٧) ومحمود الثاني (١٨٠٨ – ١٨٣٩). ولكن التنظيمات التي سنّوها لم تُنفّذ. ومثل ذلك كان نصيب الخطّ الشريف الذي نشرهُ عبد المجيد الأول عام ١٨٣٩ والخطّ الهمايوني الذي نشره عام ١٨٥٦ وتوخّى بهما إقامة العدل ورفع الحيف والمساواة بين جميع أفراد الرّعية بقطع النظر عن الدين والملّة. وما ان جاء دور عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ – ١٩٠٩) حتى قُضي على كلّ نزعة حرّة في المملكة وطُمس كلّ قبس من نور.

ولكنّ بعض الولايات العربية أفلتت بعض الافلات من هذا النير المخوف وتمتّعت بشيء من الحكم الذاتي . فانتهت السيادة التركية في مصر إلى ان تصبح منذ اوائل القرن التاسع عشر اسميّة فقط . وهي كانت ابداً كذلك في الجزيرة العربية باستثناء بعض المراكز البحرية أو المجاورة للبحر من أعمال الحجاز واليمن . أما الهلال العربي ، بما فيه العراق وسورية الكبرى ، فبقي مخسوفاً طيلة هذه الحقبة يئن أبناؤه من جور الحكّام الاتراك . فعمّ الفقر وخيّم الجهل وقلّ عدد السكان في هذه الديار خلا جبل لبنان الذي احتفظ ابناؤه - الدروز في الجنوب والموارنة في الشمال - بمقدار من الحرية الفردية والقومية ، والذي تمتع بنظام إقطاعيّ مستقلّ أو شبه مستقلّ ولا سيما أثناء ولاية الامير فخر الدين المَعْنيّ الثاني (١٥٨٥ - ١٦٣٥) وولاية الامير بشير الشهابيّ الكبير (١٧٨٨ - ١٨٤٠) . وبعد حوادث سنة الستّين اعترف الباب العالي باستقلال لبنان الداخلي تحت حماية الدول الاوربية الخمس الكبرى .

وكانت مصر اول بلاد عربية اللسان أفاقت من سباتها وأحكمت العلاقات الحيوية مع بلدان اوربا الغربية ، وذلك ابتداء من غزوة نابليون عام ١٧٩٨ . فقد أدخل نابوليون الى هذا القطر مطبعةً عربية كان غنمها من رومة وأنشأ أول هيئة علمية يمكن اعتبارها مجمعاً . وبذلك ولّد ، من حيث لم يحتسب ، شرارةً فكرية ما لبثت ان أضرمت ناراً امتدّ لهيبها . وكان في الجيش العثماني الذي ساهم في إجلاء نابوليون عن وادي النيل ضابط ألبانيّ الجنس تركيّ اللسان اسمه محمد علي وهو الذي تمكن

فيما بعد من توطيد سلطتهِ على البلاد باسرها وتأسيس الدولة الخديوية في ظلّ الخلافة العثمانية. ومن أجلّ ما قام به محمد علي من الخدمات للشرق ولمصر بخاصة انه عرّض بلادهُ لاستقبال المؤثرات الخارجية من ثقافية وعلمية وأرسل بعثات من الطلبة المصريين الى فرنسا. وكان محمد علي يحلم بانشاء امبراطورية عربية تتمركز في عاصمتـــهِ القاهرة قبل ان كان أبناء العربية على شيء من الوعي القومي او الاستعداد للانضمام الى جامعة شاملة. وبعـد ان سحقت جيوشُه القوات الوهابية في الجزيرة سارت عام ١٨٣١ بقيادة ابنهِ ابراهيم باشا الى سورية فاستخلصتها من ايدي بني عثمان وكادت تقضي على تلك الخلافة باسرها لولا تدخّل انكلترا وغيرها من الدول الاوربية ودعمها العرش العثماني المتداعي.

وجاء حكم ابراهيم باشا للبلاد الشامية (١٨٣١ - ١٨٤٠)فاتحة عهد جديد فتحت فيه البلاد ابوابها للبعثات والارساليات الاجنبيّة، فكثر فيها عدد المعلمين والاطباء والزائرين والسيّاح من برتستانت وكاثوليك ومن افرنسيس وبريطانيّين واميركان. وأنشئت في البلاد على اثر ذلك مدارسُ ومكاتب ومطابع اجنبية ووطنية، وتشكلت جمعيات علمية وادبية، وترجمت كتب دينية وفلسفية وعلمية،وكان من نتيجة ذلك كله ان تلقحت العقلية العربية بلقاح الفكر الاوربي الحديث وان تسربت الى البلاد افكار جديدة في الاقتصاد والسياسة والاجتماع وغيرها من الاراء الحديثة ذات العلاقة بالديمقراطيّـــة العصرية والقومية الوطنية. والواقع ان هذه اليقظة التي تمّت للشرق العربي من عصوره المظلمة بفضل المنبّهات الاوربية الغربيّـــة

والاميركية تماثل يقظته في القرن التاسع عندما كانت المنبهات بالاكثر يونانية وتعارض يقظة الغرب في القرن الثاني عشر التي سارت فيها المنبهات من الشرق الى اوربا.

على ان الجزيرة العربية لم تتعرض لهذه العوامل كما تعرّضت لها اخواتها في الشمال ، وذلك بداعي اعتزال الجزيرة الجغرافي ومحافظتها الدينية وعصبيتها الموضعية . فبقيت حضارتها من طراز العصور الوسطى ولم تصطبغ بألوان حديثة . وليست الاصلاحات التي احدثها مؤخراً ابن سعود على اهميتها لتغير كثيراً من جوهر الحال . ولقد كانت الجزيرة في مطلع الحرب الاوربية الاولى مركزاً لحركة قام بها الشريف حسين ترمي الى الوحدة العربية السياسية . وهذه هي المحاولة الثانية ، بسبيل هذه الوحدة ، بعد محاولة محمدعلي، وقد فشلت مثلها لمجيئها قبل اوانها .

وكان من نتيجة الاحتكاك بين العقلية السورية والنتاج الفكري الغربيّ ان تولدت مبادىء القومية العربية الشاملة واستمدت وحيها بالاكثر من النظريات السياسية الاميركية — بخلاف القومية التركية التي جاءت متأخرة عن العربية والتي استمدت إلهامها من مبادىء الثورة الافرنسية . وانما كان ظهور مبادىء القومية العربية في العقد السابع من القرن الفائت على يد رجال الفكر السوريين ، وغالبهم من اللبنانيين المسيحيين، الذين تثقفوا في المدارس الاميركية في بلادهم ووجدوا في مصر الخديوية جواً اكثر ملاءمة لجهودهم العلمية والسياسية.

على ان النهضة العربية كانت في باديء امرها حركة فكرية مجردة قوامها إحياء اللغة العربية ودرس آثارها والإشادة بماضي العروبة

المجيد . وما لبثت ان استوحت من الماضي ما حملها على التطلع الى المستقبل فجرّت وراءها نهضة قومية سياسية تستهدف الاستقلال الشامل والوحدة العربية . غير أن هذه النهضة القومية السياسية تطوّرت فيما بعد وتنوّعت بمقتضى الموجبات المحلية والمشاكل الموضعية التي اصطدمت بها ، فاتخذت في مصر بعد عام ١٨٨٢ شكل المقاومة للاحتلال البريطاني وفي سورية شكل المقاومة للسياسة التركية وسياسة التتريك التي اعتنقها حزب تركيا الفتاة. وكذلك كان شأن فلسطين التي تولدت فيها بعد الحرب العالميّة الاولى قوميةٌ فلسطينية بفضل الاصطدام بالانتداب البريطانيّ والحركة الصهيونية ، وشأن العراق الذي تمخّض بروح عراقية بسببٍ من مقاومة الانتداب البريطاني . وفي البلاد العربية اليوم حركة ترمي الى جمع شملها في اتحاد عربي من دعائمه الاولى الثقافة والاقتصاد .

ومما لا ريب فيه ان القومية الحديثة انما هي بضاعة غربية استوردها العالم ، بما فيه الشرق العربي ، من اوربا الغربية. وباقتباس مبادئها سار الشرق عن قصد او عن غير قصد في سبيل التجديد واطّراح التقليد والاخذ بالعلمانية والاتجاه نحو اهداف الحضارة الغربيّة .

والواقع ان تعرّض العرب للعوامل الاوربية الغربية وما نتج عن ذلك من الوعي القومي هو اكبر حَدَث في تاريخ الشرق العربي في القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين . واذا صحّ الاستنتاج بالقياس على الاحداث التي تلت القرن التاسع فسيتلو هذا الدورَ الذي يجتازه الشرق العربي اليوم دورُ ابداع وابتكار يقوم فيه ابناء العربية بقسطهم من خدمة المدنية والانسانية .

فهرست الاعلام

آذربيجان ٦٥، ٧٤
آرين ٤٨، ١٧٩
الاباضية ٧٦، ٧٧
ابراهيم (النبي) ٤٥، ٦٧، ١٠٥
ابراهيم باشا ٢٥٥
ابراهيم الثاني ٢٠١
ابراهيم بن المهدي ١١٤
ابقراط ١١٩
الاتراك ٩، ٦١، ٨٠
الاحاطة في تاريخ غرناطة ١٧٨
احمد (القاضي الطليطلي) ١٦٦
الاحمر ، البحر ١٤، ٢٥، ٥٣، ٢٤٧
اخيلا ٩١
الادرياتيكي ٢٠٢
الادريسي ٢٠٤، ٢٠٥
أذرح ٣٩، ٧٦
الاراميون ٧، ١٢، ٦١، ٧٢
أراغون ٨٨، ١٩٦، ١٩٨، ٢٤١
أربونة ٩٢، ٩٥، ١٨٨
الاردن ٦٤
ارسطو ٩، ١١٧، ١١٨، ١٢٠، ١٢١، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٤، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ٢٠٦
ارمياء ٢٧
ارمينية ٦٥، ٧٤، ١٠٩
ازمير ٢٤٩
الازهر ١٦٩
اسامة بن منقذ ٢٢٢
اسبانيا ٨٥، ٨٦، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ١٠١، ١٠٦، ١١٧، ١٣١، ١٣٣، ١٤٠، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٠، ١٨٣، ١٨٥، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٦، ٢١٠، ٢١٧، ٢٣٢، ٢٤٤
الاستانة ٢٥٣
استورية ٨٨
الاسرا الى مقام الاسرى ١٨٨
الاسرار (كتاب) ١٤٢
الاسكندر ٥٧، ٦٣، ٦٧
الاسكندرية ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٧٢، ١٠٣، ١٣٠، ١٦٨، ١٦٩
الاسكندرية (مكتبة) ٦٧، ٦٨
الاسكوريال (مكتبة) ١٧٧
اسماعيل ٤٥
الاسماعيلية ١٩٢
اسوج ١١٤
آسيا ٧، ١٤، ١٨، ٣٦، ٤٢، ٦٥، ٦٦،

٧٧، ٨٣، ١٠٥، ١١٥، ١٢١،
١٣١، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٥، ١٤٧
١٦٨، ١٦٩، ١٩٢، ٢١٣، ٢١٧
٢٣٨، ٢٤٧، ٢٤٩
اسيا الصغرى ٨٠، ٨١، ٢١٧، ٢١٨،
٢٢١، ٢٤٩
اشبيلية ٨٦، ٨٨، ١٦٨، ١٧٦، ١٧٨،
١٧٩، ١٨٨، ١٩٣، ١٩٥،
١٩٩، ٢٤١
الاشرف، الملك ٢٣١
الاشعري، ابو موسى ٧٥، ٧٦
الاشوريون ٧، ١٢، ٧٢
الاصفهاني، ابو الفرج ١١٣، ١٧٠
الاغالبة ٢٠١، ٢٠٢
الاغاني (كتاب) ١١٣، ١١٤، ١٢٥، ١٧٠
الاغريق ٨
افريقيا ٧، ٢٥، ٢٦، ٤٢، ٥٣، ٦٦، ٧٦
٨٤، ٨٥، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ١٠٠،
١٠١، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٨، ١٠٩،
١١٥، ١٢١، ١٣١، ١٤٧، ١٦٠،
١٦٩، ١٨١، ١٨٣، ١٩٤، ١٩٧،
١٩٨، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢١١،
٢١٣، ٢٣٢
الافشين ١٢٧
افغانستان ٢٤٨
افلاطون ١١٩، ١٢١، ١٤٤، ١٨٤
الافلاطونية الجديدة ١١٧، ١٢١، ١٨٦
افنيون ٩٥
الاقباط ١٠١
اقليدس ١٤٤
اكسفورد ٩، ٩٤، ٢٠٧
اكوتانيا ٩٢، ٩٣
الالب، جبال ١٨٨، ٢٠٢
البرتوس ماغنوس ١٨٨
البيرة ٨٦
الف ليلة وليلة ١١٥، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٨
١٢٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٦، ٢٣٢
الفونسو العاشر ١٧٢، ١٨٠، ٢٤١
الكسيوس كومنينوس ٢١٨، ٢٢١
المانيا ١١٥، ١٦٣، ١٦٦، ١٨٨،
٢٠٥، ٢٢٧
المرية ١٦٧
اليان ٩١
الامويون ٦٢، ٦٤، ٧٩، ١٠٤، ١٠٧،
١٠٨، ١١١، ١٣٧، ١٥٩، ١٦٠
الامويون (في الاندلس) ١٦٣، ١٦٥،
١٩٣، ١٩٥
اميركا ٩، ١٠، ١٨، ١٩٦، ٢٥٦
الامين (خليفة) ١١٤، ١٢٩،
١٥٣، ١٥٢
امية، بنو ٧٧، ٨٥
انجو ٢٤١
الاندس (وادي) ٨٤
الاندلس ٧، ١٣، ١٨، ٧٨، ٨٣، ٨٥،
٨٦، ٨٨، ٩٠، ١٠٩، ١١١،
١٢١، ١٣٥، ١٥٩، ١٦١،

١٦٢، ١٦٣، ١٦٥، ١٦٨، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٤، ١٧٦، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٦، ١٩٤، ١٩٨، ١٩٩، ٢١٠ .

انطاكية ١٥٥، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٥، ٢٣٠، ٢٣١

انطيوخوس ٦٧

انقره ٢٤٩

انكلترا ١١، ١٦٧، ١٨٨، ١٨٩، ٢٢٧، ٢٥٥

اوباس ٩١

اورال (جبال) ٧

اوربا ٧، ٩، ١٠، ٨٥، ٩٢، ١٠٠، ١١٥، ١١٧، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٥، ١٤٠، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٧، ١٥٤، ١٦٣، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٨، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٥، ١٧٦، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٤، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢١٧، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٤١، ٢٤٧، ٢٥٢

اوربانوس ٢١٨

اورشليم ٢٧، ٢١٨، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٨، ٢٢٩ انظر بيت المقدس

اورليان ٢٦

اوستا ٢٠٢

اوغسطس ٦٧

اوغسطينوس ٨٤

ايبيرية ١٩٥

ايران ١٣، ١٤، ٣٥، ٧٤، ٨٣ انظر ايضاً فارس

ايزابيل (ملكة قشتالة) ١٩٦

ايطاليا ١١، ١٣٢، ١٦٣، ١٨١، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٨، ٢١٩، ٢٣٥

ايل خان ٢١٦

ايليا ٤٥

اينال ٢٤٥

ايوب ٢٧، ٤٥

باب المندب ٢٦

بابليون ٦٧

البابليون ٧، ١٢، ٧٢، ١٣٤

بابل ٢٢، ٢٥، ١١٧

باترنا ١٦٧

ابن باجة ١٨٢

باري ٢٠٢

باريس ٩٤، ١٦٦، ١٨٦، ٢٠٧

باسيليوس الاول ٢٠٣

باكون ، روجر ١٤٢، ١٤٤

بايزيد الاول ٢٤٩

البتراء ٢٣، ٢٦

بخارى ٨٣، ١٣١، ٢١٤

بدر (معركة) ٣٦

بدر (مولى) ١٦٠

بربروسا (فردرك) ٢٢٧

البراق ٣٥، ٣٦
البرانس ٩٢، ٩٣، ١٦١، ١٨٨
البربر ٨٤، ١٠١، ١٢٢، ١٦١، ١٦٣، ١٩٤، ١٩٧، ٢٣٩، ٢٤٧
البرتغال ٢٠٠
برتون، رتشرد ٣٩
برسباي ٢٤٥، ٢٤٦
برشلونة ١٦٦
برقة ١٣
برقوق ٢٤٥
بروسة ٢٤٩
البشكنش ١٦١
بشير (الامير) ٢٥٤
البصرة ٧٥، ١٠٢، ١٣٠، ١٣١
البطالسة ٢٥، ٦٨، ٢٤٤
بطرس الفنرابل ٤٤، ١٨٩
بطرس الصارم ١٩٩
ابن بطوطة ١٢٦
بطليموس ١٤٠، ١٤٧، ١٤٨، ٢٠٥
بعلبك ٢٤٨
بغداد ٢٣، ٢٨، ٧٨، ١٠٧، ١٠٩، ١١١، ١١٤، ١١٥، ١١٧، ١١٨، ١٢٥، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٧، ١٣٨، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٥، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٦، ١٦٣، ١٦٦، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٦، ١٩٠، ٢٠١، ٢٠٦، ٢١٠، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٨، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣

البغدادي ، عبداللطيف ٦٩
ابو بكر الصديق ٣٤، ٦٢، ٦٣، ٧٢
البلاذري ٦٥
بلرم ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٨
بلنسية ١٦٧
بلوخستان ٨٤
البنجاب ٨٤
البنغال ١٣٥
البندقية ١٤٢، ٢٠٢، ٢٠٨، ٢١٠، ٢١٩، ٢٣٦ .
بنيامين التطيلي ١٣٧
بواتيه ٩٣، ٩٤
بوران ١١٢
بوردو ٩٣
البوسفور ٢٥١
بوكاتشيو ٢٣٣
بوهمند ٢١٩، ٢٢٢
بيبرس ٢١٦، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٥،
بيبين ٩٣
بيت الحكمة ١١٨
بيت المقدس ٣٥، ٣٦، ٣٨، ٧٢، ٨٩، ١٠٥، ١٥٢، ١٦٢، ٢٠٥، ٢١٨، ٢٢١، ٢٢٨، ٢٢٩
بيروت ١٤٢، ١٤٦، ٢٣١
بيزا ١٨١، ٢١٩، ٢٣٦
بيزنطية ١١٠، ١٦٣، ٢٠١، ٢٥١
البيزنطيون ٥٦، ٦٣، ٦٤، ٨٠، ٨٥،

١٥٤، ١٥٨، ١٩٩، ٢٠٢
ابن البيطار ١٨٢
تانكرد ٢٢٢
التتر ٢٤٨
تحتميس الثالث ٦٧
تدمر ٢٢، ٢٣، ٢٦، ١٤٥
ترتليانوس ٨٤
تركستان ١٠٠، ١٠١، ١٣٠
الترك ٥٤، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٤
تركيا ٣٥، ٧٧، ١١٥
التروبادور ١٧٥
تشارلس (ملك انجو) ٢٤١
تشوسر ٢٣١
تكريت ٢٤٨
تنيس ١٢٧
توبولسك ٥٠
تور ٩٣، ٩٤، ٩٥
تولوز ٩٢، ١٨٨
توما الاقويني ٢٠٧
تونس ١٢١، ٢٠١، ٢١١، ٢٢١، ٢٣٠
التيمس (نهر) ٦٧
تيمورلنك ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩
ثادري ٢٠٦
ثيودوشيوس ٦٩
جابر بن حيان ١٤٦، ١٤٧
جالينوس ١١٧، ١١٩، ١٤٠، ١٤٢
جايمس (ملك اراغون) ٢٠١
جبريل ٤٩
جبل طارق ٨٥، ٩٤
ابن جبير ٢٠٤
الجدري والحصبة (رسالة) ١٤٢
الجربى ٣٩
الجرمان ١٦٦
الجزائر ١٢١، ١٩٤
ابن الجصاص ١٣٦
جليقية ٨٨
جمال باشا ٦٧
الجمل (وقعة) ٧٥
جنديسابور ١٤٥
جكنيز خان ٢١٣، ٢١٤، ٢٤٧
جنوى ٢١٩، ٢٣٦
الجهشياري ١٥٠
ابن جهور ١٧٤
جيان ١٦٨
جيحون ٨٣
جيرارد الكرموني ١٤٢، ١٨٣
حارم ٢١٥
الحاكم ٢١٧
الحاوي (كتاب) ١٤٢
الحبشة ١٥، ٣٥
حبيبة (زوج ابي بكر) ٧٢
الحثيون ١١
الحجاز ٣٣، ٦٣، ٦٦، ٧٥، ٩٠، ٢٤٢، ٢٥٠، ٢٥٤ .
الحر بن عبد الرحمن الثقفي ٩٢
الحريري ١٧٣

ابن حزم ١٧٢
حساب الجبر والمقابلة (كتاب) ١٤٥
الحسن بن علي ٧٤، ٧٨، ٧٩، ٨٠
الحسين بن علي ٧٥، ٧٩
الحسين (ملك) ٢٥٦
الحشاشون ١٩٢
حطين ٢٢٤، ٢٢٥
حلب ٩٨، ١٥٥، ٢٢١، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠
حماه ٢٤، ٢١٥، ٢٤٨
الحمراء ١٦٨، ١٩٤، ١٩٩، ٢٠٠
حمص ٢٦، ٩٨، ٢٤٨
حمورابي ٢٢
حنين بن اسحق ١١٦، ١١٨، ١١٩، ١٢٠ .
الحوريون ١١
الحيرة ١١٩
حي بن يقظان ١٨٤
خالد بن الوليد ٣٨، ٥٦، ٦٣، ٦٤، ٦٧
خديجة ٣٣، ٣٤، ٤١
خراسان ١٥٧
الخطيب، لسان الدين بن ١٦٨، ١٧٧، ١٧٨
ابن خلدون ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩
ابن خلكان ١١٦، ١٧٢
الخوارزمي ١١٨، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧
خوزستان ١٣٢
خيمانس ١٩٦
دابق ، مرج ٢٤٩
دانتي ٢٨، ٣٥، ٤٥، ١٨٨
داود (النبي) ٤٥، ١٣٨
دجلة ٦٥، ١٠٩، ١١٤، ١٣٤، ١٥٧
الدردنيل ٨١
الدروز ٢٥٤
دلالة الحائرين ١٨٧
دلهي ٢٤٨
دمشق ٢٤، ٢٨، ٦٣، ٧٢، ٧٥، ٨٩، ٩٢، ٩٥، ٩٧، ٩٨، ١٠٦، ١٢٤، ١٤٥، ١٥٢، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٨٨، ٢٠٠، ٢١٥، ٢٢٩، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٨، ٢٥٢، ٢٥٣
دمياط ٢٣٠
ده لسبس ١٣١
دوزي ١٧٠
الدؤلي، ابو الاسود ١٠٢
دون كيخوته ١٧٣
ديار بكر ٢٤٢
ديقوريدس ١١٩
ديكامرون ٢٣٣
ذات الخال ١٢٩
ذات الصواري ٨٠
راجينالد ده شاتيون ٢٢٤، ٢٢٥
الرازي ١٤١، ١٤٢
رأس الرجاء الصالح ٢٦، ٥٠، ٢٤٧، ٢٥١

ابن رشد ١٢١، ١٨٢، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧
الرصافة ١٦٢
الرعاة (ملوك) ١٨
رفائيل (مصور) ٢٠٢
الرقة ١٥٣
ركارد الكثلكة ٩١
روبنصن كروزو ١٨٤
روتر ، الدون ٣٩
روجار (كتاب) ٢٠٥
روجر الاول ٢٠٣، ٢٠٤
روجر الثاني ٢٠٤، ٢٠٥
روس ، اسكندر ٤٤
روسيا ١١٥، ١٤٥
الرولا ١٧
رولان ١٦١
رولان ، اغنية ١٧٥
الرومان ٧، ٨، ٢٦، ٦٣، ٧٢، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ١٠٦، ١٤٩، ١٥٧، ٢٠٣، ٢٣٢، ٢٣٥
رومة ٢٢، ٢٦، ١٧٦، ٢٠١، ٢٠٢، ٢١٨، ٢٥٤ .
ريتشرد قلب الاسد ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩
ريموند ملك تولوز ٢٢٣
زبيدة ١١٢، ١٢٩
الزبير ٧٤، ٧٥
زرادشت ١٣٠
زنجبار ١٤٧
زنكي نور الدين ٢٢٣، ٢٤٥
زنوبيا ٢٣، ٢٦
الزهراء ١٦٤
زيدان (الشريف) ١٧٧
ابن زيدون ١٧٤
سامرا ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥
سبتمانيا ٩٢
سبتة ٩١، ١٦١
سرابيس ٦٧
سبينوزا ١٨٨
سدوم ٤٥
سرفنيس ١٧٣
سرفيتيس ٢٤٣
سرقسطة ٨، ٩٢، ١٦١، ٢٠٣
السريان ٦١، ١٠١
سعد ، عمر بن ٧٩
ابن سعود ٨، ٢٥٩
السفاح ، ابو العباس ١٠٨
سكوت ، ميخائيل ١٨٣، ٢٠٦
سكينة ابنة الحسين ١٠٤
السلاجقة ٢١٣، ٢١٨، ٢٤٩
سلاذو ٨٦
سليم الثالث ٢٥٣
سليم العثماني ٢٣٨، ٢٤٢، ٢٥٠، ٢٥١
سليمان الحكيم ٢٧، ٤٥
سليمان بن عبد الملك ٨٩، ٩٠
السمح بن مالك الخولاني ٩٢، ٩٣
سمرقند ٨٣، ١٣٠، ١٣١، ١٣٣
سنان بن ثابت ١٤٠

سنجاز ١٤٥
السند ٨٤
السندباد ١١٥
السند هند ١٤٥
سندو ٨٤
السنغال ٥٣
السودان ٧
سورية ١٣، ١٨، ٢٤، ٤٠، ٥٣، ٥٧، ٦٠
٦٣، ٦٥، ٦٦، ٨٣، ١٠٠، ١٠٦،
١٢١، ١٢٨، ١٤٠، ١٥٣، ١٨٣
٢٢٣، ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٣١، ٢٣٣
٢٣٤، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٢،
٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩
٢٥٠، ٢٥٥، ٢٥٧
سوسا ١٥٥
السويس ١٣١
سويسرا ٢٠٢
سويفي ٩٠
سيارا اليوني ٥٠
سيان فو ١٣٧
سيراف ١٣٠، ١٣١
ابن سينا ١٢١، ١٤٠، ١٤٢، ٢٠٦
سيناء ٢٢، ٢٥، ٢٦
الشارات (جبل) ١٦٣
شاش ٨٣
شارل مارتل ٩٣، ٩٤
الشام ٣٦، ٥٦، ٥٧، ٧٥، ٧٨، ٨٠، ٨٤
٨٩، ١٠٥، ١١٥، ١١٧، ١٣٣
١٣٥، ١٥٤، ١٩٩، ٢١٥، ٢١٩
ابو شامة ٢٢٤
شرق الاردن ١٣
شرلمان ٩، ١١٠، ١١١، ١٢١، ١٦١، ٢١٧
شلمنانسر ٢٤
شهرزاد ١٥٠
الشهرستاني ٦١
شولميت ٢٧
شيراز ١٣٢
شيبان ٢١١
شيركوه ٢٢٤
الصابئة ١٣٥
الصالح (السلطان) ٢٣٩
الصقالبة ١٢٨، ١٦٤
صقلية ١٣، ١٤، ١٠٨، ١١٧، ١٤٠، ١٤٢
١٧٧، ١٩٥، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٤ ،
٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٠ ،
٢١٧، ٢١٩، ٢٤١ .
صلاح الدين ١٨٦، ٢١٠، ٢١٦، ٢١٩
٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٢٨ ،
٢٢٩، ٢٣٦، ٢٤١، ٢٤٨ .
الصليبية (الحروب) ١٨، ١٢٨، ١٣٣
٢٢٧، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٤٤ .
الصليبيون ١٣٥، ١٥٤، ٢١٦، ٢١٧ ،
٢١٩، ٢٢١، ٢٢٧، ٢٣٠، ٢٣٢ ،
٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٨، ٢٣٩ .
صور ١٣٣، ١٥٥، ٢٢٥، ٢٣١
صيدا ١٣٣، ٢٣١

الصين ٧، ٩٥، ١١٥، ١٣٠، ١٣٣، ١٣٧
١٤٧، ١٥٤، ١٦٧، ١٨٣، ٢٤٩
طارق بن زياد ٨٥، ٨٦، ٨٨، ٨٩
طارنت ٢٠٣
طبرية ١٨٧، ٢٢٤
طرابلس ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٣١
طرابلس الغرب ٦٩
طرسوس ٢٢١
طرطوس ٢٣١
طرواده ٢١٧
طريفة ٨٥
طغرل بك ٢١٣
ابن طفيل ١٨٢، ١٨٤
طلحة ٧٤، ٧٥
طليطلة ٨٥، ٨٦، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ١٦٧
١٧٩، ١٨٣، ١٨٨، ١٩٥، ١٩٩ .
الطوائف (ملوك) ١٩٤
طوران ٨٣
طورس ، جبال ٦٥
الطوطون ٥٦، ٩٠، ٢١٧
ابن طولون ١٤١، ٢١٠، ٢١١
الظلمات (بحر) ٧، ٨٥، ١٤٧
عائشة ٤١، ٦٢، ٧٥
العادل (الملك) ٢٢٩
العباد ١١٩
العباس ١٠٨
العباس ، عبد الله بن ١٠٨
العباسيون ١٠٨، ١٠٩، ١٣٤، ١٣٧
١٣٨، ١٥٣، ١٥٦، ١٥٩، ١٦٠
٢١١، ٢٢٤ .
عبد الحميد الثاني (العثماني) ٧٧، ٢٥٣
عبد الرحمن الداخل ١٦٠، ١٦١، ١٦٥
١٧٣، ١٩٨
عبدالرحمن الغافقي ٩٣، ٩٤، ٩٥
عبدالرحمن الناصر ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤
١٦٥، ١٦٨، ١٧٧
عبدالعزيز بن موسى بن نصير ٨٨
عبد المجيد الاول ٢٥٣
عبد المجيد الثاني ٦١
العبرانيون ١٢، ٣٤، ٧٢، ١٨٤، ٢٢١
العتابي ١٣٢
عثمان بن عفان ٤٤، ٦٢، ٧٤، ٨٠
العثمانيون ١٣٤، ٢١٤، ٢٤٩، ٢٥١
٢٥٢، ٢٥٥
عدن ١٣٤
العراق ٨، ١٣، ٥٣، ٥٦، ٥٧، ٦٠، ٦٣
٦، ٦٦، ٧٥، ٧٨، ٧٩، ٨٣، ١٢١
١٣٢، ١٣٤، ١٧٠، ١٨٣، ١٩٣
٢٣٨، ٢٤٢، ٢٥٤، ٢٥٧
ابن عربشاه ٢٤٧
ابن عربي محيي الدين ١٨٨
العزيز (الملك) ١٨٦
عكا ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣١
ابن العلقمي ٢١٥
علي بن ابي طالب ٣٤، ٤١، ٦١، ٦٢، ٧٤
٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩

عليّة ١١٢

عُمان ٣٩، ٧٦

عمر بن الخطاب ٢٣، ٣٥، ٣٦، ٦٢، ٦٨، ٧٢، ٧٣، ٧٤

عمر بن ابي ربيعة ١٠٤

عمر بن عبد العزيز ١٣٦

عمرو بن العاص ٣٨، ٥٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٥، ٧٦ .

العموريون ١٢

عنتر (سيرة) ٢٤١

ابن العوام ١٨١

عيسى ، علي بن ١٤١

عين جالوت ٢٣٩

غارون (نهر) ٩٣

الغال (بلاد) ٩٣

الغاليون ٩٣

غبّون ٩٤

غرناطة ٧٦، ١٧٤، ١٧٦، ١٧٨، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠ .

غودفري ٢٢٢

غورز ١٨٩

غي (الملك) ٢٢٤، ٢٢٧

غيطشة ٨٦

الفاتيكان ٢٠٢

الفاخر (الملك) ٢٤٤

الفارابي ١٥٧

فارثيا ٣٨

فارس (بلاد) ٢٧، ٦٠، ٧١، ٣، ١٠٢، ١١٠، ١٢٨، ١٣٢، ١٣٥، ١٣٩، ١٤٥، ١٥٥، ١٨٣، ٢٠١، ٢١٢، ٢١٧، ٢٣٥، ٢٤٤، ٢٤٨ .

فارس (خليج) ١٤، ٢٣٦

فاسكو دي غاما ٢٤٧

فاطمة ٤١، ٦٢، ٧٤، ٧٨

الفاطميون ٢١١، ٢١٣، ٢٢٤

فانديك ١٤٣

الفرات ٧٥، ١٠٩، ١٣٤، ١٤٥، ١٦٠

الفراعنة ١٣٤، ١٥٤، ٢١٢

فرج بن سالم ١٤٢

فردرك الثاني ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧

فرديناند (ملك اراغون) ١٩٦

الفرس ٢٦، ٥٦، ٦١، ٦٥، ٦٦، ٧٢، ١٠١، ١٠٢، ١٠٦، ١١٧، ١٥٤

فرنسا ٩٢، ١٣٢، ١٦٣، ١٦٧، ١٧٥، ١٨٨، ١٨٩، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٧، ٢٥٥

الفزاري ١١٧، ١١٨

فزوفيوس ٢٠٢

الفسطاط ٦٨، ١٥٥، ٢١٢

الفصل في الملل والاهواء والنحل ١٧٢

الفصول في الطب ١٨٧

ابو فطرس ١٠٨

فلسطين ١٣، ١٨، ٣٥، ٥٧، ٦٧، ٧٦، ٧٨، ٨٩، ١٠٠، ١٢١، ١٨٧، ٢٢٢، ٢٢٥، ٢٣٩، ٢٥٧ .

الفندال ٩٠

فنلندا ١١٥
الفولغا ٢٤١
فيثاغورس ١٤٤
فينا ٢٥٢
فيصل (ملك العراق) ٨
فيلبس العربي ٢٢
الفيلبين ١٩٧
فيليب اوغسطس ٢٢٧
فيليب الثالث ١٧٧، ١٩٨
فيليب الثاني ١٧٧، ١٩٨
الفينقيون ١٢، ٧٢، ١٣٣
قائت باي ٢٤٥
قانصوه الغوري ٢٤٩
القاهرة ٢٨، ٧٨، ١٣٠، ١٤٠، ١٥٦، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٩، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٩، ٢٤٢، ٢٥٠، ٢٥٢، ٢٥٥
قبرس ٢٢٧
قبريانوس ٨٤
القبشاق (ارض) ٢٤٨
القرآن ٤٩، ٥٢، ١٠٢، ١٠٣، ١٣٦، ١٤٣، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٦، ١٧٣، ١٧٦، ١٨٤، ١٨٩
القرامطه ١٩٢
قرطاجنه ٨٤، ٨٥، ١٦٤، ٢٠٠
قرطبة ٩، ٧٨، ٨٦، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٩، ١٧٤، ١٧٦، ١٧٩، ١٩٣، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠
قرقر ٢٤
قرمونة ٨٨
قريش ٣٢، ٣٦، ٣٨، ٦٢، ٧٤، ٧٥، ١٧٤
قزوين (بحر) ١٣١
قسطنطين السابع ١١٢
القسطنطينية ٦٦، ٨٠، ٨٤، ٩٢، ١٥٦، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٦، ١٦٨، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢١، ٢٤٢، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣
قشتالة ١٧٢، ١٧٦، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧
القفطي ١٧٢
قلورية ٢٠١، ٢٠٣
قمبيز ٦٧
القوط ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ١٦٣
قيدار ٢٧
قيس ١٠٨
قيسارية ٦٧، ٢٣٠
كانت ١٨٨
كانتون ٥٠
كربلاء ٧٩
الكرج (بلاد) ٦٥
كردستان ٢٤٨
الكرك ٢٢٤، ٢٣٠
كسرى ٦٥، ٦٦
الكعبة ٣٨
كلارمونت ٢١٨
الكلدانيون ٧، ١٢
كاوني ١٨٩

كليوبترة ٦٧
الكايات في الطب ١٨٥
كليلة ودمنة ١٧٢، ٢٣٣
كليكية ٢٢٧
الكناري (جزر) ١٤٨
كندة ١٧٨ الكندي ١٤٤
كوفا دونغا ١٩٥
الكوفة ٧٤، ٧٥، ١٤٦
كولمبس ١٧٩، ١٩٦
كولون ١٨٩
اللاتين ١٤٢، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠
٢٣١
لافونتين ١٧٢، ١٧٣
اللامبارديون ١٦٤، ٢٠١
لبنان ١٣٨، ١٠٨، ١٢١، ١٧٥، ٢٥٤
لذريق ٨٦
لندن ٦٧، ٩٤
لود فيكو دي فارثيا انظر فارثيا
اللورين ١٨٨، ١٨٩، ٢١٩
لوط ٤٥
اللوفر (متحف) ١٥٥
ابو لؤلؤة ٧٤
لويس التاسع ٢٣٠، ٢٤١
لياج ١٨٩
ليبريا ٥٣
ليون ٨٨، ٩٥، ١٦٦، ١٧٢، ١٩٥، ١٩٧
ليوناردو فيبوناتشي ١٨١
مارتنيوس ٩٣
مارك اليوناني ٢٣٤
مارية القبطية ٤١
ابن ماسويه يوحنا ١١٩
مالابار ١٣٧
مالطه ٢٠٢، ٢٠٣
مالقة ١٦٧، ١٦٨، ١٧٦
المأمون ١١٢، ١١٨، ١٢٠، ١٢٨، ١٢٩
١٤٠، ١٤٥، ١٥٣.
المتوسط، البحر ١٣٥، ٢٣٤
المتوكل ١٢٠، ١٢٩، ١٣٦، ١٥٣، ١٥٤
المتوكل (مصر) ٢٤٢، ٢٥٠
محمد السادس (غرناطة) ١٧٨
محمد (الغالب) ١٩٤، ٢٠٠
محمد علي ٢٥٥، ٢٥٦
محمد (النبي) ٧، ٩، ٢٨، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥
٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤٠، ٤٢، ٤٣
٤٦، ٤٨، ٤٩، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٧٣، ٧٥
٧٧، ٩٥، ٩٩، ١٠٤، ١٠٥، ١٢١، ١٤٩
١٥٤، ١٩٠، ٢١٣، ٢١٦، ٢٢٢
محمد بن ابي بكر ٧٤
محمد بن يوسف ١٧٨
محمود الثاني ٢٥٣
المدائن ٦٦، ٧٢
المدجنون ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٠
مدريد ١٧٧
المديانيون ١٨
المدينة ٣٥، ٣٦، ٤١، ٤٢، ٧٢، ١٠٤
٢٥٠، ٢٥٢

المرابطون ١٩٤، ١٩٩
مراكش ١٠، ١٢١، ١٣١، ١٣٣، ١٦٧، ١٧٦، ١٧٧، ١٩٣
مرسيليا ١٠٨، ٢٢٦
المرشوشي، علي بن ٢٤٥
مريم (والدة المسيح) ٤٥
المستضيء ٢٢٤ المستعين ١٣٢
المستنصر ١٥٣، ٢١٢، ٢٤٢
المستنصرية ١٥٢
المسعودي ١١٤، ٢٠٥
المسيح ١٨، ٣٦، ٤٥، ٢٣٢
مصر ٨، ١٣، ٢٥، ٢٦، ٥٣، ٥٦، ٥٧، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧١، ٧٤، ٧٦، ١١٥، ١١٧، ١٢١، ١٣٣، ١٣٤، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٧، ١٦٨، ١٨٣، ١٨٧، ٢٠٦، ٢١١، ٢١٣، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٣٠، ٢٣٥، ٢٣٨، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧
معاوية بن ابي سفيان ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٩٥، ١٠٨
المعتزلة ١١٨
المعتصم ١٢٧، ١٢٩، ١٤٠، ١٥٤
المعتضد (العبادي) ١٧٤
المعني، فخر الدين ٢٥٤
المغول ٩، ٨٣، ١٠٩، ١٣٧، ١٣٨، ١٥٣، ١٩٣، ٢١٣، ٢١٤، ٢٤١، ٢٤٩.
المقتدر ١١٢، ١٣١، ١٤٠، ١٤١، ١٥٣
المقري ١٧٤ مقنا ٣٩
مكة ٣٥، ٣٦، ٣٨، ١٤٧، ١٦٢، ١٦٨، ٢٥٠
ماتان ٨٤
ملقة ٥٣، ١١٥، ١٣٥
المماليك ١٦٤، ٢١٦، ٢٣٠، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٢.
منتبليه ١٨٨
المنصور (العباسي) ١٠٩، ١٥٣، ١٦٤
المنصور، الحاجب ١٦٥، ١٩٩
المهاجرون ٣٦، ٤١
الموحدون ١٩٤، ١٩٩
موريتانيا ١٩٧
الموريسكو ١٩٧، ١٩٨
موسكو ٢٤٨
موسى (النبي) ٢٣، ٢٧، ٤٥
موزل، الوا ١٧
موسى بن نصير ٨٤، ٨٥، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩٢، ١٠٠
الموسيقى الكبير (كتاب) ١٥٩
الموشى ١٢٥
الموصل ١١٤، ٢٤٤
المؤيد شيخ ٢٤٥
ابن ميمون ١٨٢، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨
نائلة ٧٤
نابل ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٧
نابليون ٥٧، ٦٧، ٢٤١، ٢٥٤، ٢٥٥
الناصرة ٢١٦، ٢٣٠
ناصري خسرو ٢١٢

نافارا ١٦٦
النجاشي ٣٥
نروج ١١٥
نجد ٢٤
نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ٢٠٥
النساطرة ١١٩، ١٥٤
بنو نصر ١٩٤، ١٩٦، ٢٠٠
النظامية ١٦٩
نفح الطيب ١٧٤
ابن النفيس ٢٤٣
نهاية الارب في فنون الادب ١٢٣
النهروان ٧٦
ابو نواس ١١٣، ١١٤، ١٢٥، ١٢٩
النوبة ٢٣٩
النورمنديون ٢١٩
نوميديا ١٦٤
النوميديون ١٦٣
النويري ١٢٣
نيجيريا ٥٣
النيل ١٤، ٢٥، ١٣٤، ٢٠٥، ٢٠٢، ٢٣٠، ٢٤٣، ٢٤٦، ٢٥٥
نيويورك ٦٧
هرون الرشيد ٢٢، ١١٠، ١١١، ١١٣، ١٢٠، ١٢٨، ١٢٩، ١٣١، ١٣٦، ١٤٠، ١٥١، ١٥٦، ١٥٧، ٢٢٩، ٢٤١ .
هرقل ٦٤
هشام (خليفة في الاندلس) ١٦٢، ١٩٨
هشام (خليفة في دمشق) ١٦٠
الهلال الخصيب ١٥، ٧١، ٧٢، ١١٨
الهمذاني ١٧٣
الهند ٧، ١١، ٢٥، ٢٦، ٦٦، ١١٥، ١١٧، ١٣٥، ١٣٧، ١٤٨، ١٦٨، ٢٣٤، ٢٤٧، ٢٤٨ .
الهند الصينية ١٠
الهندي (محيط) ١٤
هنيبال ٥٧
هولاكو ٢١٤، ٢١٥، ٢٣٨، ٢٣٩
الوشاء ١٢٥
الولايات المتحدة ١١
ولكوكس ١٣٤
الولادة ١٧٤
الوليد ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩٥، ١٠٦
وليم الثاني ٢٠٤
يافا ١٠٨، ٢٣٠
ياقوت الحموي ١١٠
يثرب ٣٦
اليرموك ٦٤، ٦٥
يزيد بن معاوية ٧٩، ١٠٨
يزيد بن الوليد ١٠٧
يلبغاي ٢٤٥
اليمن ٣٩، ٥٣، ١٧٨، ٢٤٢، ٢٥٤
يوحنا الثامن ٢٠٢
يوليوس قيصر ٦٧، ٦٨
يوسف (النبي) ٤٩
يوسف ، ابو الحجاج ١٧٨
اليونان ٧، ١١، ٢٩، ٦١، ٧٢، ١١٧، ١١٨، ١٢٨، ١٣٩، ١٤٢، ١٥٨، ١٧٦، ١٨٠، ٢٠١، ٢٠٣، ٢١٧ .
يونان (النبي) ٤٥

فهرست

فاتحة	٥
١ – مكانة العرب في التاريخ	٧
٢ – العرب الاصليون : البدو	١٣
٣ – قبل فجر الاسلام	٢٤
٤ – محمد رسول الله	٣٢
٥ – القرآن والايمان	٤٣
٦ – سير الاسلام	٥٦
٧ – الخلافة	٧١
٨ – فتح الاندلس	٨٣
٩ – بدء الحياة الثقافية والاجتماعية	٩٧
١٠ – بغداد في اوج مجدها	١٠٧
١١ – مناحي حياة العامة	١٢٢
١٢ – العلوم والآداب	١٣٩
١٣ – الفنون الجميلة	١٥٢
١٤ – قرطبة جوهرة العالم	١٥٩
١٥ – فضل العرب على المدنية الغربية	١٧١
١٦ – أفول نجم العروبة في الشرق والغرب	١٩٠
١٧ – الحروب الصليبية	٢١٧
١٨ – المماليك البحرية	٢٣٧
١٩ – العصور المظلمة وفجر النهضة الحديثة	٢٥٢
فهرست الأعلام	٢٥٩

ثمن النسخة :

في سورية ولبنان : اربع ليرات

في سائر العالم العربي : ٤٥٠ فلساً او مليماً او ملاً

مطبعة الكشاف بيروت